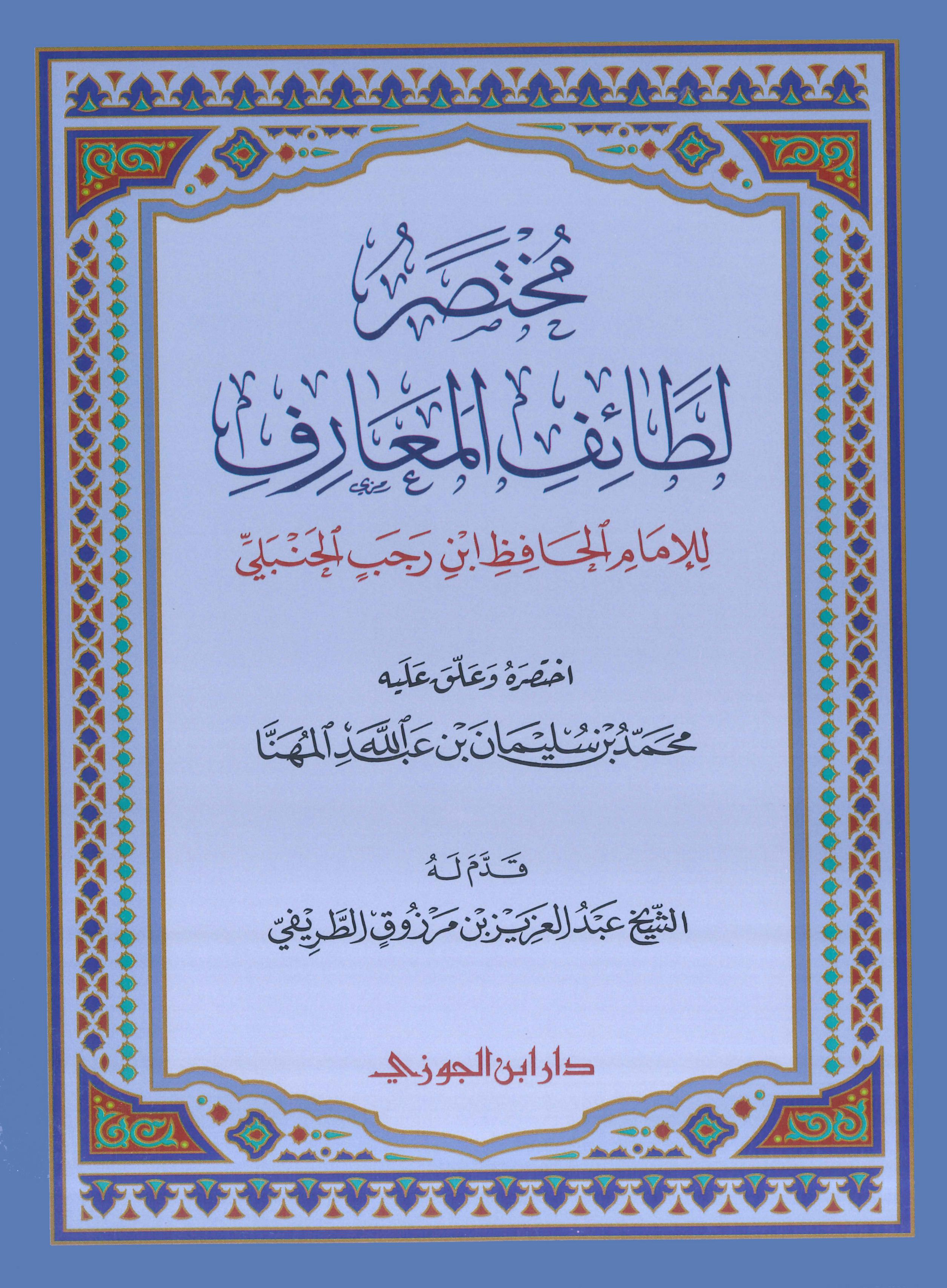


مختصر لطائف المعارف

لِلإمامِ الحافظِ ابنِ رجبٍ الحنبليّ

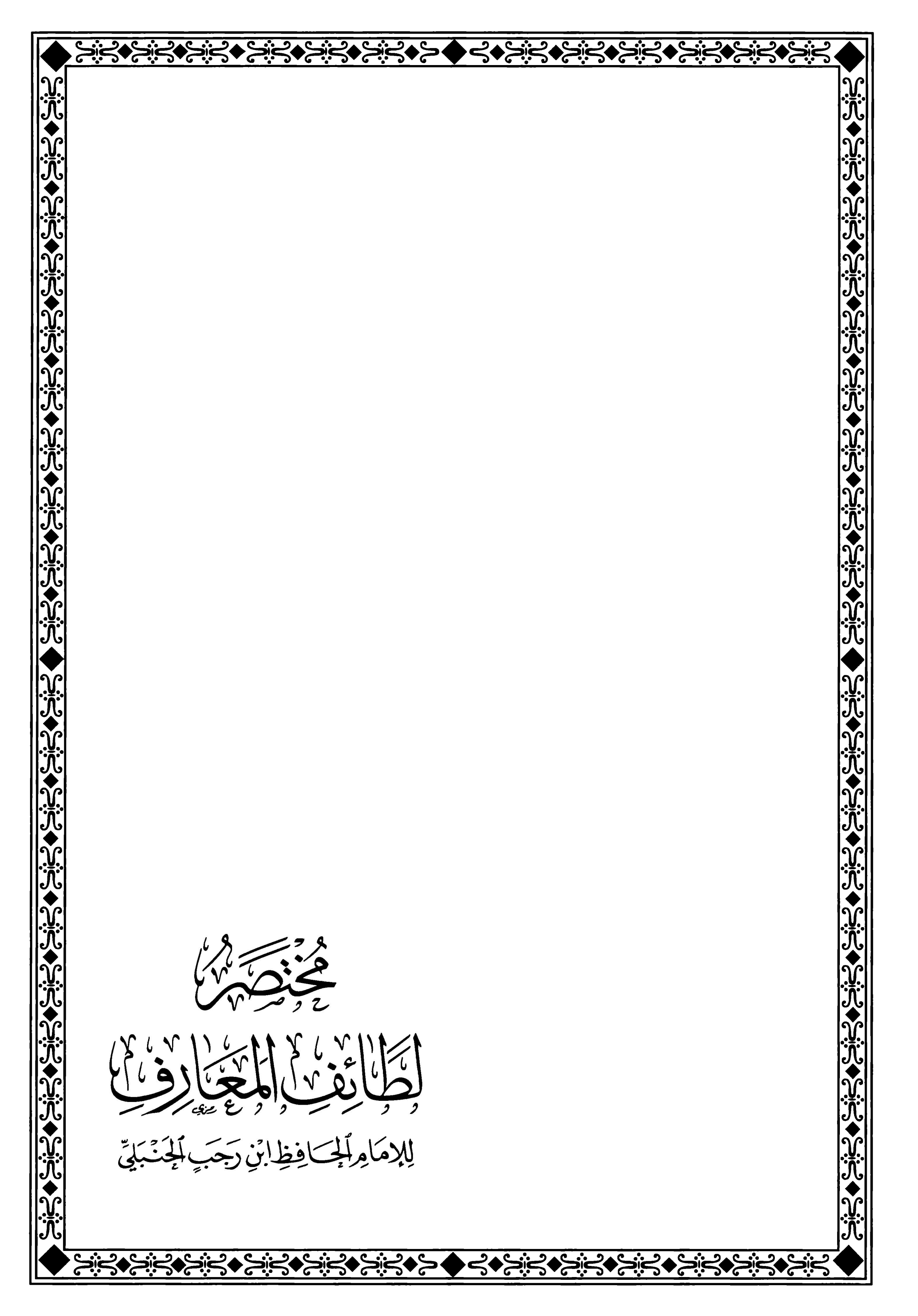
اختصره وعلّق عليه

محمّد بن سليمان بن عبد الله المهنّا

قدّم له

الشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطّريفي

دار ابن الجوزي



مختصر
لطائف المعارف
للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣

٠١٣٨٤١٢١٠٠

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣

جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة :

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣

٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

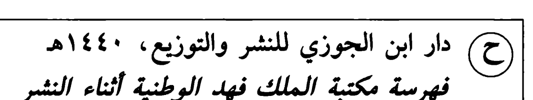
aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

ibnaljawzi.com



ح **دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المهنا، محمد بن سليمان بن عبد الله

مختصر لطائف المعارف./ محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا.- الدمام، ١٤٤٠هـ

٢٧١ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩ - ٩٨ - ٨٢٤٥ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الوعظ والإرشاد أ. العنوان

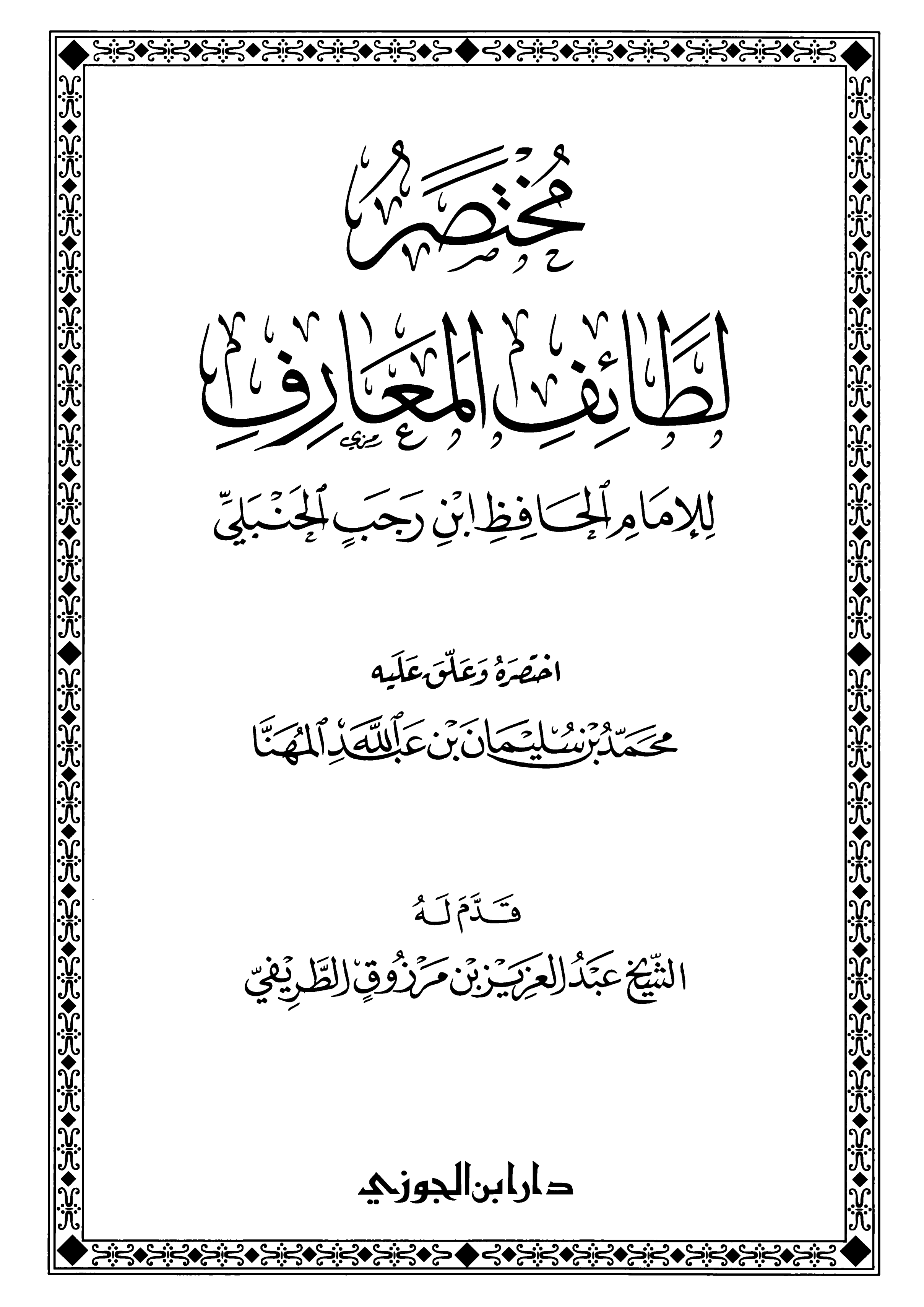
ديوي ٢١٣ ١٤٤٠/٦٢٢٩

الطبعة الثالثة

١٤٤٥

٢٠٢٣

الباركود الدولي: 9786038245989



مختصر لطائف المعارف

للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي

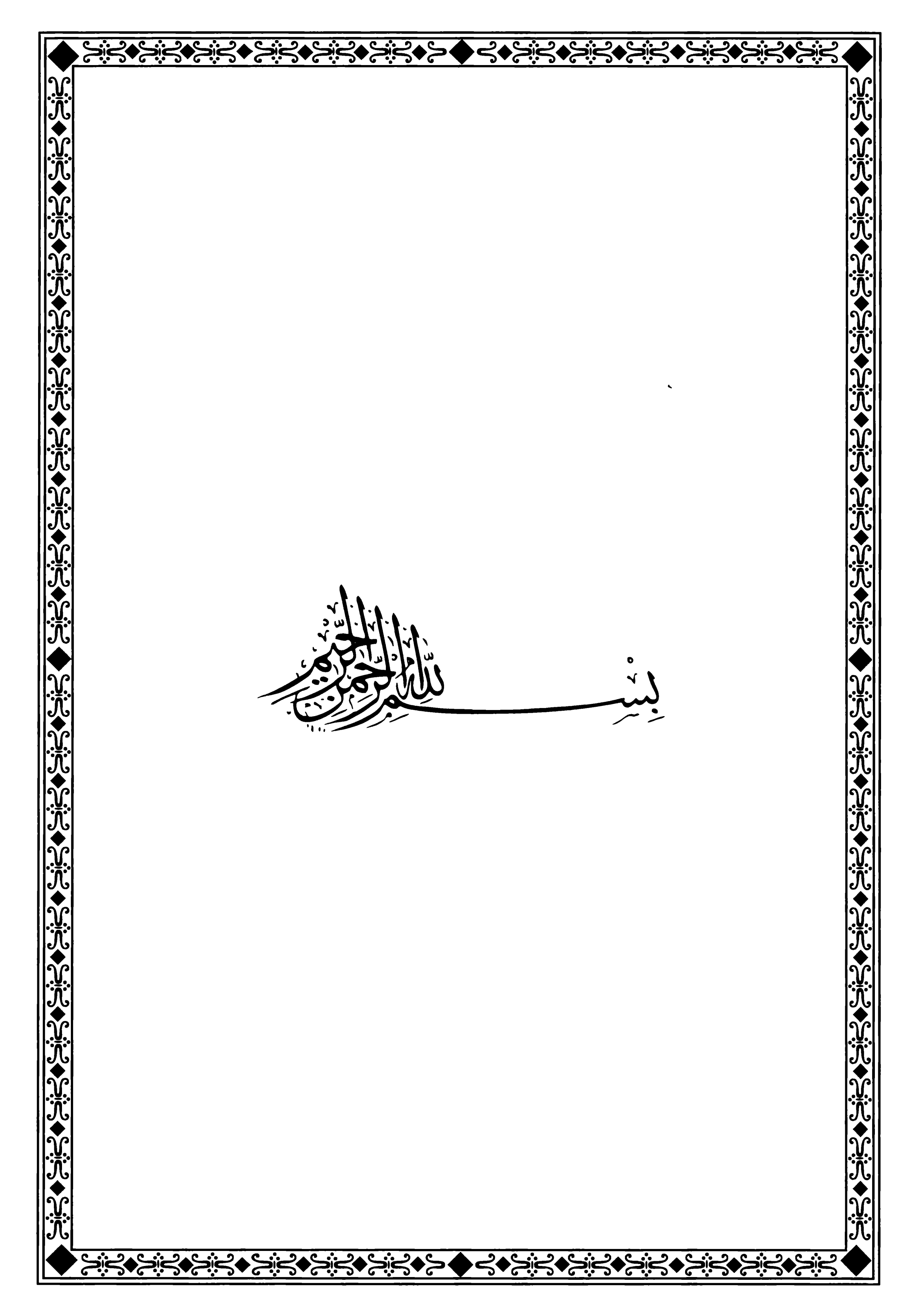
اختصره وعلق عليه

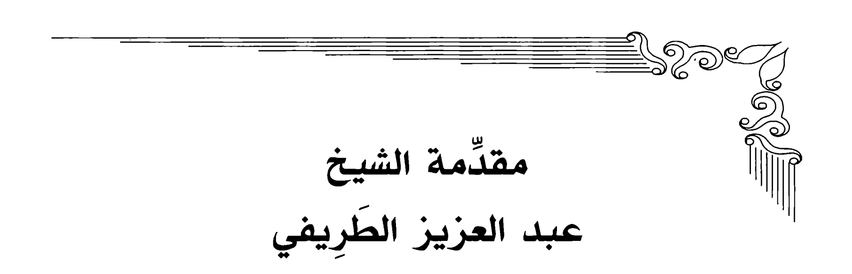
محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

قدم له

الشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة الشيخ
عبد العزيز الطَرِيفي

الحمدُ لله مستحِقِّ كمالِ الحمد، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ مصنَّفات الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أَجَلِّ وأنفس ما كتبه المتأخِّرون، لقربها من مناهج المتقدِّمين، ولِما أَودَعَ فيها من علم محرَّر وفوائد محقَّقة، وهو بالمنزلة المعروفة من الإمامة وسعة العلم ودِقَّة الفهم.

ومن كتبه اللطيفة كتاب «لطائف المعارف» جمع فيه من الأحكام والآداب والسلوك ما يحتاج إليه المسلم في يومه وليلته وشهره وعامه، وهو زادٌ للمتعبِّد يعرف به ما أوجب الله عليه، وما شرعه له حتى يعبد الله على بصيرة.

وقد عمد الشيخ الموفَّق «محمد بن سليمان المهنا» إلى تهذيب هذا الكتاب واختصاره اختصارًا لا يُخِلُّ بمقصود مؤلِّفه من تأليفه، ويُقرِّبه إلى القارئ ليجد فيه مقصوده بلا إطالة، في زمنٍ قلَّت فيه عناية الناس بالكتاب، وزهدوا في القراءة، وكثُرت فيه الصوارف والمُلهيات عن المُهِمَّات، فضلًا عن قراءة المطوَّلات.

وعَمَلُ الشيخ «محمد المهنا» عملٌ مشكور، وأرجو أن يكون عند الله مبرورًا، وبفعله مأجورًا.

أسأل الله أن ينفع بهذا المختصر كما نفع بأصله، وأن يجعله زادًا وبُلْغَةً وذُخرًا لمؤلِّفه ومُخْتَصِرِهِ وقارئه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله.

كتبه
عبد العزيز الطَرِيفي
١٢/٣/١٤٣٧هـ

مقدِّمة مُخْتَصِر الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

ففي تراثنا الثَّرِّ الثَرِي، وفي تاريخنا الإسلامي الخالد الماجد، أسماءٌ كثيرةٌ عظيمةُ القيمة، بالغةُ التأثير، امتدَّ مداها، وعمَّ نفعها بلادًا بعيدة وقرونًا مديدة، ولا زال ذلك النفع والأثر باقيًا مستمرًا إلى يوم الناس هذا.

من تلك الأسماء: أسماءُ علماءَ أجلَّاء، وكتبٍ سائرة، كان لها في تعليم الناس وتفقيههم، وإرشادهم وتوجيههم، أعظم الأثر وأوفر النصيب.

وحين يُذكر العلماء المؤثِّرون والكتب التي يُظنُّ أن الله بارك فيها، يُذكرُ من متأخري العلماء نفرٌ من الصالحين المصلحين ممن لا نزال نتفيَّأ ظِلال علمهم وحكمتهم وتزكيتهم، من أمثال الإمام يحيى بن شرف النووي الشافعي، المتوفى في دمشق عام ٦٧٦هـ، وهو صاحب أشهر كتاب من كتب الحديث الفرعية على الإطلاق، أعني كتاب رياض الصالحين، الكتاب الذي شاع أمره وذاع ذِكره، وطار في الناس كل مطار، ولا زال ـ بحمد الله ـ يقع من نفوس طلاب العلم ونفوس عامة محبي الخير أحسن المواقع.

وليس الإعجاب برياض الصالحين والاحتفاء به أمرًا جديدًا ظهر بعد انتشار سبل النشر وتيسر وسائل الطباعة، بل هو قديم قِدَمَ تأليف الكتاب، وممن أشاد به من الأكابر إمام الدنيا في معرفة الرجال في وقته: الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ قال وهو يوصي طالب العلم: (فعليك يا أخي بتدبر

كتاب الله، وبإدمان النظر في الصحيحين، وسنن النسائي ورياض النواوي تفلح) والنواوي هو النووي.

ولم يكن رياض الصالحين وحده هو ما اشتهر من كتب الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل اشتهر له كثير من الكتب كالمنهاج والمجموع والأذكار والتبيان وتهذيب الأسماء واللغات، وغيرها من الكتب القيِّمة المحرَّرة التي تبلغ عشرات المجلدات، مع أنه توفِّي وهو ابن ٤٥ عامًا.

وحين يُذكر المؤثِّرون في تراثنا الإسلامي العظيم، يُذكر اسم الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أكبر تلاميذ مدرسة الإمام ابن تيمية والمقدَّم فيهم، وهو الذي بسط علم ابن تيميَّة وحرَّره وحبَّره، ثم انبرى لمتابعة مسيرته والذبِّ عنه والدفاع عن عقيدته، وهي عقيدة أئمة الإسلام أتباع السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ولم تقتصر مهمَّة ابن القيِّم وهمَّته على ذلك، بل كان إمامًا من أئمة الإسلام في الدعوة إلى الدين القيِّم بأصوله وفصوله، وكان حامل لواء الدعاية إلى اتِّباع الكتاب والسُّنَّة، وكتبه في ذلك أشهر الكتب وأنفعها وأحلاها وأولاها بالقراءة والمدارسة والاهتمام.

وفي مدرسة ابن تيمية وابن القيم تخرَّج إمامٌ جليلٌ هو الإمام ابن رجب، الذي تتلمذ على الإمام ابن القيِّم في دمشق، فارتضع في مدرسة ابن تيميَّة وابن القيِّم حُبَّ الكتاب والسُّنَّة، فغدا مُعظِّمًا للنصوص، معتنيًا بالآثار، عالي الإسناد، حفيًا بفقه السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباعهم، معتقدًا عقيدتهم، مترسِّمًا منهاجهم في العلم والعمل والسلوك، فكانت سيرته وكان تراثه عينًا معينًا لطلَّاب العلم من بعده، ينهلون منها من نحو سبعة قرون.

وقد رُزق ابن رجب السعادة في كتبه، فكانت مؤلفاته ذات حظ عظيم وحظوة تامَّة، وكان كثيرٌ منها مرجعًا مهمًّا في بابه، ومن أجلِّ تلك الكتب:

فتح الباري شرح صحيح البخاري، وهو سابق لفتح الباري للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، وبين أيدينا منه الآن عشرة أجزاء، وهو غايةٌ في الإحكام والجودة.

ومن كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ: تقرير القواعد وتحرير الفوائد، المعروف بـ«قواعد ابن رجب» في أربعة أجزاء، وهو أعجوبة من أعاجيب كتب الفقه.

ومنها: جامع العلوم والحِكم، وهو شرحٌ في مجلدين للأربعين النووية، وهو من أجلِّ كتب الإسلام وأشهرها.

ومنها: لطائف المعارف، وهو المرجع الأول في باب المواسم ووظائف الأوقات.

وهذا الكتاب «لطائف المعارف» كتاب جليل القدر، لطيف الموضوع، جميل الأسلوب، كثير الفوائد، حافلٌ بنصوص الكتاب والسُّنَّة وآثار السلف، ملئ بالقصص والأخبار، والحِكَم والأشعار، مترَعٌ بمعاني الوعظ والتربية وتزكية النفوس، وهو إلى ذلك حسن السبك، مليح التصنيف، لا يملُّ القارئ من تَصَفُّح صفحاته وتَنَشُّق نفحاته، فلا عجب وهذا حالُه، أن يحُلَّ من نفوس الناس المحلَّ الأعلى والمقام الأغلى(١).

---

(١) اسم الكتاب: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف.

ومو ضوعه: ما يكون في العام «السَنَة» من الأيام الفاضلة والشهور والفصول والمواسم، وما ينبغي اعتقاده ومعرفته والعمل به في ذلك، ابتداءً بشهر الله المحرَّم، وختمًا بشهر ذي الحجة، مرورًا بفصول العام كالربيع والشتاء، وهو نوع فريد مفيد من أنواع التصنيف، ملأه المؤلف بعُقَدِ العِلم ومُلَحِه، حتى غدا من أشهر الكتب المؤلَّفة في الترغيب والترهيب، والمواعظ والرقائق، والتربية والتزكية، وأكثرها نفعًا.

وقد اختصرتُه بحذف الروايات الكثيرة الزائدة التي لا يحتاج إليها إلا الباحث المتخصص، وحذف بعض التفريعات التي قد تشتِّتُ ذهن القارئ وهي كثيرة جدًا، ثمَّ وفَّقتُ بين ما أبقيتُه بطريقة مناسبة لا يرى القارئ معها إلا أنه يقرأ أصل الكتاب لا مختصره، وهذا محض فضل الله سبحانه.

ومن مِنَنِ الله عليَّ: أن حبَّب إليَّ هذا الكتاب في مُبتَدَأ أمري ومُقتَبَل عمري «من نحو عشرين سنة» فكنتُ أقرأ فيه، وأستمدُّ منه مادة طيبةً أُلقيها إلى جماعة المسجد الذي أكرمني الله في صغري بإمامته، فنشأتْ بيني وبين هذا الكتاب علاقة قرب ومحبة لم يزدها مرُّ السنين إلا قوة.

ولمَّا صدر كتابي «مختصر جامع العلوم والحِكم» لابن رجب، عام ١٤٣٤هـ، أشار عليَّ بعض أهل العلم والفضل مشكورين، أن أختصر كتاب «لطائف المعارف» لطوله وكثرة ما يحتاج إلى التهذيب منه، فاستعنتُ بالله، وقرأتُ الكتاب بتؤدة وعناية، ثم اختصرتُه اختصارًا أحسبُ أنه لا يُخلُّ به، ولا يُقلِّل من قدره، ولا يغادر شيئًا من فرائد فوائده، ولا يَشْعُرُ قارئه وهو يقرؤه إلا أنه يقرأ أصله، وهذا من نعمة الله السابغة، وفضله العظيم.

هذا.. وإني كما شكرتُ من أشار عليَّ باختصار «لطائف المعارف» لأشكر من كان سببًا في المُضي في هذا الطريق: طريق اختصار الكتب وتقريبها للناس، وهم القراء الكرام الذين أغراني ثناؤهم على «مختصر جامع العلوم والحِكَم» على المتابعة، وزيَّن لي استحسانُهم المواصلةَ، وأخصُّ منهم من تفضَّل عليَّ فقرأ الكتاب في مسجده على جماعته، أو في مجلسه على جلسائه، ومن قرَّره على طلَّابه في حلقة تدريسه، أو دار تحفيظه، أو معهد علومه، أو قاعة درسه في جامعته، فجزاهم الله عنِّي خيرًا.

كما أشكر صاحب الفضل والفضيلة: الشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطَّرِيفي الذي تفضَّل عليَّ بالتقديم للكتابين فكان اسمه على الغلاف كالطَّابع على الخطاب والختم على الكتاب.

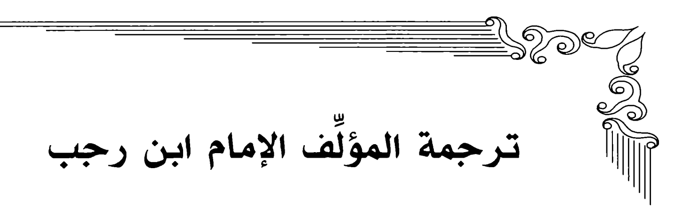
ثم أشكر الشيخ عجلان بن عبد العزيز العجلان وأخويه الشيخ محمد والشيخ فهد، فهم أصحاب فضل كبير برعايتهم للكتاب حتى صار سهل

التناول، يُباع بأقل من قيمة تكلفته، رغبةً في نشر الكتاب، وتيسيرًا على طلبة العلم.

ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّك أنت السميع العليم، وتب علينا إنَّك أنت التواب الرحيم، واغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا المسلمين.

اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمَّد بن سليمان بن عبد الله المهنَّا
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
إيميل: almohanna.m@gmail.com
تويتر: @almohannam
جوال: ٠٠٩٦٦٥٠٥٤٩٠٥٢٥



ترجمة المؤلِّف الإمام ابن رجب

هو الإمام الحافظ الفقيه المتفنِّن عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، أحد الأئمة الأعلام في العِلم والحفظ والزهد والوعظ وحُسْن التصنيف.

وُلِد رَحِمَهُ اللَّهُ في بغداد سنة ٧٣٦هـ، وقدم إلى دمشق مع والده وهو صغير، وتتلمذ على الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وطبقته من العلماء، وكان سلفي المعتقد، أثري المشرب، حنبلي المذهب، فقيهًا مفسرًا نحويًا مؤرخًا، آيةً في معرفة عِلل الحديث وأسانيده ورجاله.

صنَّف كتبًا كثيرة هي المرجع في بابها، من أجلِّها فتح الباري شرح صحيح البخاري، وهو سابق لفتح الباري للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، وصل فيه إلى كتاب الجنائز، وبين أيدينا منه الآن عشرة مجلدات، وهو غاية في الإحكام والجودة.

ومنها مؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ: شرح سنن الترمذي في عشرين مجلدًا كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، ولم يبلغنا منه سوى مجلدين هما شرح علل الترمذي.

ومنها: تقرير القواعد وتحرير الفوائد وهو المعروف بـ(قواعد ابن رجب) في أربعة مجلدات، وهو أعجوبة من أعاجيب كتب الفقه.

ومنها: لطائف المعارف، وهو المرجع الأول في باب المواسم ووظائف الأوقات.

ومنها: جامع العلوم والحِكم، وهو شرحٌ في مجلدين للأربعين النووية، وهو من أجلِّ كتب الإسلام وأشهرها.

توفِّي الإمام ابن رجب بدمشق عام ٧٩٥هـ وهو ابن تسع وخمسين سنة.

قال العلَّامة ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثني من حفر قبر الشيخ ابن رجب، أنَّ الشيخ ابن رجب جاءه قبل أن يموت بأيام فقال له: احفر لي ها هنا قبرًا، وأشار إلى البقعة التي دُفن فيها، قال: فحفرت له، فلما فرغتُ من الحفر نزل الشيخ في القبر واضطجع فيه فأعجبه وقال: هذا قبر جيد ثم خرج، قال: فو الله ما مضى سوى أيام إلا وقد أُتي به ميّتًا محمولًا في نعشه، فوضعتُه في ذلك اللحد، رَحِمَهُ اللَّهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الملكِ القهّار، العزيزِ الجبّار، الرَّحيمِ الغفَّار، مقلِّبِ القلوبِ والأبصار، مقدِّرِ الأُمورِ كما يَشاءُ ويَخْتار، مكوِّرِ النَّهارِ على الليلِ ومكوِّرِ الليلِ على النَّهار. أسْبَلَ ذيلَ الليلِ فأظْلَمَ للسُّكونِ والاستتار، وأنارَ منارَ النَّهارِ فأَضاءَ للحركةِ والانتشار، وجَعَلَهُما مواقيتَ للأعمالِ ومقاديرَ للأعمار. وسَخَّرَ الشَّمسَ والقمرَ يجْريانِ بحسبانٍ ومقدار، ويعْتَقِبانِ في دارةِ الفَلَكِ الدَّوَّارِ على تعاقبِ الأدوار، وجَعَلَهُما معالمَ تُعْلَمُ بهِما أوقاتُ الليالي والأيَّامِ والشُّهورِ والأعوامِ في هذهِ الدَّار، ويُهْتَدى بهِما إلى ميقاتِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والحجِّ والصِّيامِ والإفطار، حجَّةً قائمةً قاطعةً للأعذار، وحكمةً بالغةً من حكيمٍ عليمٍ ذي اقتدار. أحْمَدُهُ وحلاوةُ محامدِهِ تَزْدادُ معَ التكرار، وأشْكُرُهُ وفضلُهُ على مَنْ شكَرَ مِدرار.

وأشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ شهادةً تُبَرِّئُ قائلَها مِنَ الشِّركِ بصحَّةِ الإقرار، وتُبَوِّئُ قائلَها دارَ القرار.

وأشْهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، البدرُ جبينُهُ إذا سُرَّ اسْتَنَار، واليمُّ يمينُهُ فإذا سُئِلَ أعطى عطاءَ مَنْ لا يَخْشَى الإقتار، والحنيفيَّةُ دينُهُ الدِّينُ القيِّمُ المختار، رَفَعَ اللهُ ببعْثِهِ عن أُمَّتِهِ الأغلالَ والآصار، وكَشَفَ بدعوتِهِ أذى البصائرِ وقذى الأبصار، وفَرَّقَ بِشريعتِهِ بينَ المتَّقينَ والفجَّار، حتَّى امْتَازَ أهلُ اليمينِ مِن أهلِ اليسار، وانْفَتَحَتْ أقفالُ القلوبِ فانْشَرَحَتْ بالعلمِ والوقار، وزالَ عنِ الأسماعِ أثقالُ الأوقار. صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ أُولي الإقدامِ والأقدار، وعلى أصحابِهِ أقطابِ الأقطار، صلاةً تُبَلِّغُهُم في تلكَ الأوطانِ نهايةَ الأوطار، وسَلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بعدُ؛ فقد قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]. وَقالَ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. فأخْبَرَ ﷻ أنَّه عَلَّقَ معرفةَ السِّنينَ والحِساب على تقديرِ القمرِ منازلَ. وقيلَ: بل على جعلِ الشَّمسِ ضياءً والقمرِ نورًا؛ لأنَّ حسابَ السَّنةِ والشَّهرِ يُعرَفُ بالقمرِ، واليومِ والأُسبوعِ يُعْرَفُ بالشَّمسِ، وبِهِمَا يَتِمُّ الحسابُ.

وإنَّما عَلَّقَ اللهُ تَعالى على الشَّمسِ أحكامَ اليومِ مِن الصَّلاةِ والصِّيامِ حيثُ كانَ ذلكَ أيضًا مشاهدًا بالبصرِ لا يَحْتَاجُ إلى حسابٍ ولا كتابٍ: فالصَّلاةُ تَتَعلَّقُ بطلوعِ الفجرِ وطلوعِ الشَّمسِ وزوالِها وغروبِها ومصير ظلِّ الشيءِ مثلَه وغروبِ الشَّفقِ، والصِّيامُ يَتَوقَّتُ بمدَّةِ النَّهارِ مِن طلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشَّمسِ.

وَجَعَلَ اللهُ ﷻ في كلِّ يومٍ وليلةٍ لعبادِهِ المؤمنينَ وظائفَ موظَّفةً عليهِم مِن وظائفِ طاعَتِهِ: فمنها ما هوَ مفترَضٌ كالصَّلواتِ الخمسِ، ومنها ما يُنْدَبون[1] إليهِ مِن غيرِ افتراضٍ كنوافلِ الصَّلاةِ والذِّكرِ وغيرِ ذلكَ.

وجَعلَ في شهورِ الأهلَّةِ وظائفَ موظَّفةً أيضًا على عبادِهِ: كالصِّيامِ، والزَّكاةِ، والحجِّ. ومنهُ فرضٌ مفروضٌ عليهِم كصيامِ رَمَضانَ وحَجَّةِ الإسلامِ، ومنهُ ما هوَ مندوبٌ كصيامِ شَعبَانَ وشَوَّالٍ والأشهرِ الحُرُمِ.

وجَعَلَ اللهُ سبحانَهُ لبعضِ الشُّهُورِ فضلًا على بعضٍ: كما قال تَعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقالَ تعالَى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

كما جَعَلَ الأيَّامَ والليالِيَ بعضَها أفضلَ مِن بعضٍ، وجَعَلَ ليلةَ القَدْرِ خيرًا

(١) الندب: هو الاستحباب.

مِن ألفِ شهرٍ، وأقْسَمَ بالعَشْرِ ـ وهوَ عشرُ ذي الحِجَّةِ على الصَّحِيحِ كما سَنَذْكُرُهُ في مَوضِعِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى ـ.

وما مِنْ هذهِ المواسمِ الفاضلةِ موسمٌ إلَّا وللهِ تَعالى فيهِ وظيفةٌ مِن وظائفِ طَاعتِهِ يُتَقَرَّبُ بها إليه، وللهِ فيهِ لطيفةٌ مِن لطائفِ نفحاتِهِ يُصيبُ بها مَن يَعودُ بِفضلِهِ ورحمتِهِ عليه. فالسَّعِيدُ مَنِ اغْتَنَمَ مواسمَ الشُّهورِ والأيَّامِ والسَّاعات، وتَقَرَّبَ فيها إلى مَولاهُ بما فيها مِن وظائفِ الطَّاعات، فعَسى أنْ تُصِيبَهُ نفحةٌ مِن تلكَ النَّفحاتِ، فيَسْعَدُ بها سعادةً يَأْمَنُ بعدَها مِن النَّارِ وما فيها مِن اللَّفَحات.

ورَوى ابنُ أبي الدُّنْيا بإسنادِهِ عن مُجَاهِدٍ، قال: ما مِن يومٍ إلَّا يقولُ: ابن آدَمَ! قد دَخَلْتُ عليكَ اليومَ، ولنْ أرْجِعَ إليكَ بعدَ اليومِ، فانْظُرْ ماذا تَعْمَلُ فيَّ. فإذا انْقَضى، طَواهُ، ثمَّ يُخْتَمُ عليهِ فلا يُفَكُّ حتَّى يكونَ اللهُ هوَ الذي يَفُضُّ ذلكَ الخاتَمَ يومَ القيامةِ.

وعنِ الحَسَنِ، قالَ: ليسَ يومٌ يَأتي مِن أيَّامِ الدُّنيا إلَّا يتَكَلَّمُ يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ! إنِّي يومٌ جديدٌ، وإنِّي على ما يُعْمَلُ فيَّ شهيدٌ، وإنِّي لو قد غَرَبَتْ شمسي لمْ أرْجِعْ إليكُم إلى يومِ القيامةِ.

وعَن عُمَرَ بنِ ذَرٍّ: أنَّهُ كانَ يقولُ: اعمَلُوا لأنفسِكُم رَحِمَكُمُ اللهُ في هذا الليلِ وسوادِهِ، فإنَّ المغبونَ مَن غُبِنَ خيرَ الليلِ والنَّهارِ والمحرومَ مَن حُرِمَ خيرَهُما، إنَّما جُعِلا سبيلًا للمؤمنينَ إلى طاعَةِ ربِّهِم ووبالًا على الآخرينَ للغفلةِ عن أنفسِهِم، فأحْيُوا للهِ أنسَكُم بذكرِهِ، فإنَّما تَحْيا القلوبُ بذكرِ اللهِ ﷻ. كم مِن قائمٍ للهِ في هذا الليلِ قد اغتَبَطَ بقيامِهِ في ظلمةِ حُفرتِهِ! وكم مِن نائمٍ في هذا الليلِ قد نَدِمَ على طولِ نومِهِ عندَما يَرى مِن كرامةِ الله ﷻ للعابدينَ غدًا! فاغْتَنِموا ممرَّ السَّاعاتِ والليالي والأيَّامِ رَحِمَكُمُ اللهُ.

وعَنْ قَتادَةَ: إنَّ المؤمنَ قد يَنْسى بالليلِ ويَذكُرُ بالنَّهارِ ويَنْسى بالنَّهارِ

ويَذْكُرُ بِالليلِ. قالَ: وجاءَ رجلٌ إلى سَلْمَانَ الفارِسيِّ فقالَ: إنِّي لا أسْتَطيعُ قيامَ الليلِ، قالَ لهُ: فلا تَعْجِزْ بالنَّهارِ.

* * *

وقدِ اسْتَخَرْتُ اللهَ تَعالَى في أنْ أجْمَعَ في هذا الكتابِ وظائفَ شهورِ العام، وما يَخْتَصُّ بالشُّهورِ ومواسِمِها مِنَ الطَّاعاتِ كالصَّلاةِ والصِّيامِ، والذِّكْرِ والشُّكرِ وبذْلِ الطَّعامِ وإفشاءِ السَّلام... وغيرِ ذلكَ مِن خصالِ البَرَرَةِ الكرام: لِيَكونَ ذلكَ عونًا لنفسي ولإخواني على التَّزَوُّدِ للمعادِ، والتَّأَهُّبِ للموتِ قبلَ قدومِهِ والاستعداد، وأُفَوِّضُ أمرِي إلى اللهِ إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعباد. ويَكونَ أيضًا صالحًا لِمَنْ يُريدُ الانتصابَ للمواعظِ مِن المذكرين، فإنَّ مِن أفضلِ الأعمالِ عندَ اللهِ لِمَنْ أرادَ بِهِ وجْهَ اللهِ إيقاظَ الرَّاقِدينَ وتنبيهَ الغافلينَ: قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وَوَعَدَ مَن أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ يَبْتَغي بِهِ وجهَهُ أجرًا عظيمًا، وأخْبَرَ نبيُّهُ ﷺ أنَّ «**مَنْ دَعَا إلى هُدًى، فلهُ مثلُ أجرِ مَنْ تَبِعَهُ**»، وكَفى بذلِكَ فضلًا عميمًا.

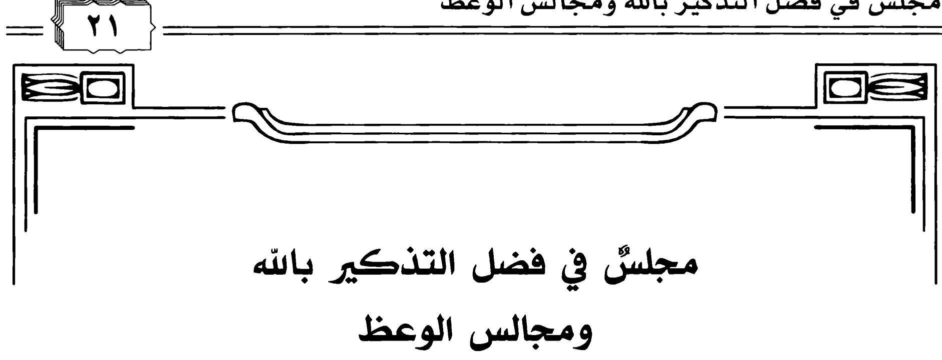
وَقد جَعَلْتُ هذِهِ الوظائفَ المتعلِّقَةَ بالشُّهورِ مجالسَ، مرتَّبةً على ترتيبِ شهورِ السَّنةِ الهلاليَّةِ، فأبْدأُ بالمُحرَّمِ وأخْتِمُ بذِي الحِجَّةِ، وأذْكُرُ في كلِّ شهرٍ ما فيهِ مِن هذهِ الوظائفِ، وما لم يَكُنْ لهُ وظيفةٌ خاصَّةٌ لمْ أذْكُرْ فيهِ شيئًا. وخَتَمْتُ ذلكَ كلَّهُ بوظائفِ فصولِ السَّنةِ الشَّمسيَّة، وهيَ ثلاثةُ مجالِسَ في ذكرِ الرَّبيعِ والشِّتاءِ والصَّيفِ. وخَتَمْتُ الكتابَ كلَّهُ بمجلسٍ في التَّوبةِ والمبادرةِ بها قبلَ انقضاءِ العمرِ، فإنَّ التَّوبةَ وظيفةُ العمرِ كلِّهِ. وأبْدأُ قبلَ ذكرِ وظائفِ الشُّهورِ بمجلسٍ في فضلِ التَّذكيرِ باللهِ يتَضَمَّنُ ذِكْرَ بعضِ ما في مجالسِ التَّذْكيرِ مِن الفضلِ. وسمَّيْتُهُ «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف».

واللهُ المسؤولُ أنْ يَجْعَلَهُ خالصًا لوجهِهِ الكريم، ومقرِّبًا إليهِ وإلى دارِهِ دارِ السَّلامِ والنَّعِيمِ المقيم، وأنْ يَنْفَعَني بهِ وعبادَهُ المؤمنين، وأنْ يُوفِّقَنا لِما

يُحِبُّ ويَرضَى ويَخْتِمَ لَنا بخيرٍ في عافيةٍ، فإنَّهُ أكرمُ الأكرمينَ وأرحمُ الرَّاحمين، آمين.

وهذا أوانُ الشُّروعِ فيما أَرَدْناهُ والبداءةِ بالمجلسِ الأوَّلِ كما شَرَطْناه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.





مجلسٌ في فضل التذكير بالله ومجالس الوعظ

كَانَتْ مجالسُ النَّبيِّ ﷺ معَ أصحابِهِ عامَّتُها مجالسَ تذكيرٍ باللهِ وترغيبٍ وترهيبٍ: إمَّا بتلاوةِ القرآنِ، أو بما آتاهُ اللهُ مِن الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وتعليم ما يَنْفعُ في الدِّين. كما أمَرَهُ اللهُ تعالى في كِتابِهِ أنْ يُذَكِّرَ ويَعِظَ ويَقُصَّ، وأنْ يَدْعُوَ إلى سبيلِ ربِّهِ بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وأنْ يُبَشِّرَ ويُنْذِرَ.

وسَمَّاهُ اللهُ مُبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللهِ. والتَّبشيرُ والإنذارُ هوَ التَّرغيبُ والتَّرهيبُ، فلذلك كانَتْ تلكَ المجالسُ تُوجِبُ لأصحابِهِ رقَّةَ القلوبِ والزُّهْدَ في الدُّنيا والرغبةَ في الآخرةِ.

فأمَّا رقَّةُ القلوبِ، فتَنْشأُ عنِ الذِّكرِ، فإنَّ ذكرَ اللهِ يوجِبُ خشوعَ القلبِ وصلاحَهُ ورقَّتَهُ ويَذْهَبُ بالغفلةِ عنهُ:

قالَ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

وقالَ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

وقالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

وَقَالَ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وَقالَ العِرْباضُ بنُ سارِيَةَ: وَعَظَنا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً بليغةً وجِلَتْ مِنها القلوبُ وذَرَفَتْ مِنها العيونُ[(١)].

وقالَ ابنُ مَسْعودٍ: نِعْمَ المجلسُ المجلسُ الذي تُنْشَرُ فيهِ الحِكمةُ وتُرْجى فيهِ الرَّحْمةُ، مجلسُ الذِّكرِ.

وشَكَا رجلٌ إلى الحَسَنِ قساوةَ قلبِهِ فقالَ: أَدْنِهِ مِنَ الذِّكرِ.

وقالَ: مجالسُ الذِّكرِ مَحْياةُ العلمِ وتُحْدِثُ في القلبِ الخشوعَ.

القلوبُ الميِّتةُ تَحْيا بالذِّكرِ كما تَحْيا الأرضُ المَيْتَةُ بالقَطْرِ.

بِذِكْرِ اللهِ تَرْتَاحُ القُلوبُ ... ودُنْيانا بِذِكْرَاهُ تَطِيبُ

وأمَّا الزُّهْدُ في الدُّنيا والرَّغْبةُ في الآخرةِ، فبما يَحصُلُ في مجالسِ الذِّكرِ: مِن ذكرِ عيوبِ الدُّنيا وذمِّها والتَّزهيدِ فيها، وذكرِ فضلِ الجنَّةِ ومدحِها والتَّرغيبِ فيها، وذكرِ النَّارِ وأهوالِها والتَّرهيبِ مِنها.

وفي مجالسِ الذِّكرِ تَتَنَزَّلُ الرَّحمةُ وتَغْشى السَّكينةُ وتَحُفُّ الملائكةُ ويَذْكُرُ اللهُ أهلَها فيمَن عندَهُ.

وهُمُ القومُ لا يَشْقَى بهِم جليسُهُم: فربَّما رُحِمَ معَهُم مَن جَلَسَ إليهِم وإنْ كانَ مذنبًا، وربَّما بَكى فيهم باكٍ مِن خشيةِ اللهِ فوُهِبَ أهلُ المجلسِ كلُّهُم لهُ[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) معنى هذا الكلام: أن مجالس الذكر خيرٌ للمحسنين وللمسيئين، فإن الله تعالى ربما قبل عمل واحد من المحسنين فكان قبوله لعمله ورضاه عنه سببًا للعفو عن المسيئين، =

فإذَا انْقَضى مجلسُ الذِّكْرِ، فأهلُهُ بعدَ ذلكَ على أقسامٍ:

فمنهُم مَن يَرْجِعُ إلى هواهُ فلا يَتعلَّقُ بشيءٍ ممَّا سَمِعَهُ في مجلسِ الذِّكرِ ولا يَزْدادُ هدىً ولا يَرْتَدِعُ عن ردى. هؤلاءِ شرُّ الأقسامِ، ويَكونُ ما سَمِعوهُ حُجَّةً عليهِم فتَزْدادُ بهِ عقوبتُهُم، وهؤلاءِ الظَّالمونَ لأنفسِهِم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل: ١٠٨].

ومنهُم مَن يَنْتَفِعُ بِما سَمِعهُ، وهُم على أقسامٍ: فمِنهُم مَنْ يَرُدُّهُ ما سَمِعَهُ عنِ المُحرَّماتِ ويُوجِبُ له التزامَ الواجِباتِ، وهؤلاءِ المقتصدونَ أصحابُ اليمينِ. ومنهُم مَن يَرْتَقي عن ذلكَ إلى التَّشميرِ في نوافلِ الطَّاعاتِ والتَّورُّعِ عَن دقائقِ المكروهاتِ ويَشْتاقُ إلى اتِّباعِ آثارِ مَن سَلَفَ مِن السَّاداتِ، وهؤلاءِ السَّابقونَ المقرَّبون.

كَانَ كثيرٌ مِن السَّلفِ إذا خَرَجوا مِن مجلسِ سماعِ الذِّكرِ خَرَجوا وعليهِمُ السَّكينة والوقارُ.

أفضلُ الصَّدقةِ تعليمُ جاهلٍ أو إيقاظُ غافلٍ.

قالَ بعضُهُم: لا تَنْفَعُ الموعظةُ إلَّا إذا خَرَجَتْ مِنَ القلبِ، فإنَّها تَصِلُ إلى القلبِ، فأمَّا إذا خَرَجَتْ مِنَ اللسانِ، فإنَّها تَدْخُلُ مِنَ الأُذُنِ ثمَّ تَخْرُجُ مِنَ الأُخْرى.

قالَ بعضُ السَّلَفِ: إنَّ العالِمَ إذا لمْ يُرِدْ بموعظتِهِ وجهَ اللهِ، زَلَّتْ موعظتُهُ عنِ القلوبِ كما يَزِلُّ القَطْرُ عنِ الصَّفا.

كانَ يَحْيَى بنُ مُعاذٍ يُنْشِدُ في مجالسِهِ:

= وهذا كالدعاء المشهور: (وهب المسيئين منا للمحسنين) قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه الطلب من الله أن يعفو عن المسيئين من المسلمين بسبب المحسنين، ولا حرج في ذلك فإن صحبة الأخيار ومجالستهم من أسباب العفو عن المسيء. فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم. انتهى كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

مَـوَاعِـظُ الـواعِـظِ لَـنْ تُـقْـبَـلا حَـتَّـى يَـعِـيَـهـا قَـلْـبُـهُ أوَّلا
يَـا قَـوْمِ مَـنْ أظْـلَـمُ مِـنْ واعِـظٍ خَـالَـفَ مَـا قَـدْ قـالَـهُ فـي الـمَـلا
أظْـهَـرَ بَـيْـنَ الـنَّـاسِ إحْـسـانَـهُ وَبـارَزَ الـرَّحْـمَـنَ لَـمَّـا خَـلا

العالمُ الذي لا يَعْمَلُ بعِلمِهِ مَثَلُهُ كمَثَلِ المِصباحِ يُضيءُ للنَّاسِ ويُحْرِقُ نَفسَهُ.

قالَ أبو العَتاهِيَة:

وَبَّخْتَ غَـيْـرَكَ بِـالـعَـمـى فَـأَفَـدْتَـهُ بَـصَـرًا وَأنْـتَ مُـحَـسِّـنٌ لِـعَـمَـاكـا
وَفَـتيلَـةُ الـمِـصْباحِ تُـحْـرِقُ نَـفْـسَـهـا وَتُـضِـيءُ لِـلأعْـشـى وَأَنْـتَ كَـذاكـا

المواعظُ دِرياقُ الذُّنوبِ، فلا يَنْبغي أنْ يَسْقِيَ الدِّرياقَ إلَّا طبيبٌ حاذقٌ معافى، فأمَّا لَديغُ الهوى، فهوَ إلى شربِ الدِّرياقِ أحوجُ مِن أن يَسْقِيَهُ لغيرِهِ.

في بعضِ الكتبِ السَّالِفةِ: إذا أرَدْتَ أنْ تَعِظَ النَّاسَ، فعِظْ نفسَكَ، فإنِ اتَّعَظَتْ، وَإلَّا، فاسْتَحْيِ مِنِّي.

وَغَـيْـرُ تَـقِـيٍّ يَـأْمُـرُ الـنَّـاسَ بـالـتُّـقَـى طَـبيبٌ يُـدَاوِي الـنَّـاسَ وَهـوَ سَـقيمُ
يَـا أيُّـهـا الـرَّجُـلُ الـمُـقَـوِّمُ غَـيْـرَهُ هَـلَّا لِـنَـفْـسِـكَ كـانَ ذا الـتَّـقْـوِيـمُ
فَـابْـدَأْ بِـنَـفْـسِـكَ فَـانْـهَـهـا عَـنْ غَـيِّـهـا فَـإنِ انْـتَـهَـتْ عَـنْـهُ فَـأَنْـتَ حَـكـيـمُ
فَـهُـنـاكَ يُـقْـبَـلُ ما تَـقـولُ وَيُـقْـتَـدى بِـالـقَـوْلِ مِـنْـكَ وَيَـنْـفَـعُ الـتَّـعْـلـيـمُ
لا تَـنْـهَ عَـنْ خُـلُـقٍ وَتـأْتِـيَ مِـثْـلَـهُ عـارٌ عَـلَـيْـكَ إذا فَـعَـلْـتَ عَـظـيـمُ

وَمعَ هذا كلِّهِ فلا بُدَّ للنَّاسِ مِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنكرِ والوعظِ والتَّذْكيرِ، ولو لمْ يَعِظِ النَّاسَ إلَّا معصومٌ مِنَ الزَّلَلِ، لمْ يَعِظْ بعدَ رسولِ الله ﷺ أحدٌ؛ لأنَّهُ لا عِصمَةَ لأحدٍ بعدَهُ.

لَئِنْ لَمْ يَعِظِ العاصِينَ مَنْ هُوَ مُذْنِبٌ فَمَنْ يَعِظُ العاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّدِ

وَقِيلَ للحَسَن: إنَّ فلانًا لا يَعِظُ ويَقولُ: أخافُ أنْ أقولَ ما لا أفْعَلُ.

فقالَ الحَسَنُ: وأيُّنا يَفْعَلُ مَا يَقولُ؟! وَدَّ الشَّيْطانُ أَنَّهُ قدْ ظَفِرَ بِهذا فلمْ يأمُرْ أحدٌ بمعروفٍ ولمْ يَنْهَ عَنْ مُنكرٍ.

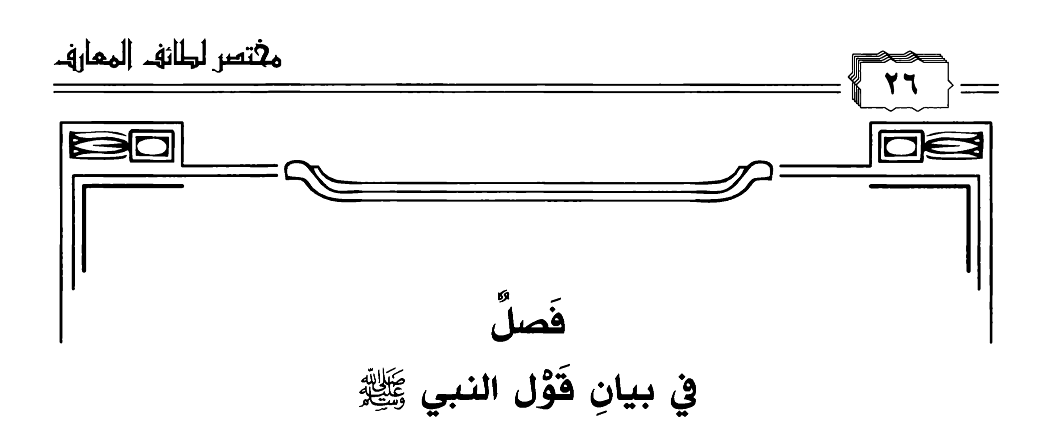
وقالَ مالِكٌ: عنْ ربيعَةَ، قالَ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: لو كانَ المرءُ لا يَأْمُرُ بالمعروفِ ولا يَنْهَى عنِ المنكرِ حتَّى لا يَكونَ فيهِ شيءٌ، ما أَمَرَ أحدٌ بمعروفٍ ولا نَهَى عنْ مُنكرٍ. قالَ مالِكٌ: وصَدَقَ، ومَن ذا الذي ليسَ فيهِ شيءٌ؟!

مَنْ ذا الَّذِي ما ساءَ قَطْ ... وَمَنْ لَهُ الحُسْنى فَقَطْ

إلهي! أنتَ أكرمُ الأكرمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ، فلا تُخَيِّبْ مَنْ عَلَّقَ أملَهُ ورجاءَهُ بكَ وانْتَسَبَ إليكَ ودَعَا عبادَكَ إلى بابِكَ، وإنْ كانَ متطفِّلًا على كرمِكَ ولمْ يَكُنْ أهلًا للسَّمسرةِ بينَكَ وبينَ عبادِكَ، لكنَّهُ طَمِعَ فِي سِعَةِ جودِكَ وكرمِكَ، فأنتَ أهلُ الجودِ والكرمِ، وربَّمَا اسْتَحْيا الكريمُ مِنْ رَدِّ مَنْ تَطَفَّلَ على سِماطِ كرمِهِ.

إِنْ كُنْتُ لا أَصْلُحُ لِلْقُرْبِ ... فَشَأْنُكُمْ صَفْحٌ عَنِ الذنْبِ





فَصلٌ

في بيانِ قَوْل النبي ﷺ

«مَنْ يَدْخُل الجنة يَنْعَمُ لا يَبْأسُ وَيَخْلُدُ لا يَمُوتُ، لا تَبْلى ثيابُهُم ولا يَفْنَى شبَابُهُم»: إشارةٌ إلى بَقَاءِ الجنَّةِ وبقاءِ جميعِ ما فيها مِنَ النَّعِيمِ، وأنَّ صفاتِ أهلِها الكاملَة مِن الشَّبابِ لا تَتَغَيَّرُ أبدًا، وملابسهم التي عليهِم مِن الثِّيابِ لا تَبْلى أبدًا.

وقد دَلَّ القرآنُ على مثلِ هذا في مواضعَ كثيرةٍ: كقولِهِ تَعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]. وقولِهِ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقولِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ في مواضعَ كثيرةٍ.

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ، قالَ: **«مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأسُ، لا تَبْلى ثيابُهُ، ولا يَفْنى شبابُهُ»**[١].

وفيهِ أيضًا: عنِ النَّبِيِّ ﷺ: قالَ: **«إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، نادَى منادٍ: إنَّ لكُمْ أنْ تَنْعَموا فلا تَبْأسوا أبدًا، وإنَّ لكُم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكُمْ أنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ٤٣][٢].

وفيما ذَكَرَهُ ﷺ في صفةِ مَن يَدْخُلُ الجنَّةَ تعريضٌ بذمِّ الدُّنيا الفانيةِ، فإنَّهُ مَنْ يَدْخُلُها وإنْ نُعِّمَ فيها فإنَّهُ يَبْأسُ، ومَنْ أَقامَ فيها فإنَّهُ يَموتُ ولا يُخَلَّدُ، ويَفْنَى شبابُهُمْ وتَبْلى ثيابُهُمْ، بل تَبْلى أجسامُهُمْ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

وفي القرآنِ نظيرُ هذا، وهوَ التَّعريضُ بذمِّ الدُّنيا وفنائِها مع مدحِ الآخرةِ وذكرِ كمالِها وبقائِها:

كما قالَ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ الآيةَ، ثمَّ قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦].

وقالَ تعالَى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقالَ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقالَ تعالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ [الحديد: ٢٠، ٢١].

وقالَ تعالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقالَ تعالَى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقالَ تعالَى عن مؤمنِ آلِ فِرْعَوْنَ إنَّهُ قالَ لقومِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، والمتاعُ: هو ما يَتَمَتَّعُ بِهِ صاحبُهُ برهةً ثُمَّ يَنْقَطِعُ ويَفْنَى.

فَمَا عِيبَتِ الدُّنيا بأبلغَ مِن ذكرِ فنائِها وتقلُّبِ أحوالِها، وهوَ أدلُّ دليلٍ على انقضائِها وزوالِها. فتَتَبَدَّلُ: صحَّتها بالسَّقمِ، ووجودُها بالعَدَمِ، وشبيبتُها بالهرمِ، ونعيمُها بالبؤسِ، وحياتُها بالموتِ وعمارتُها بالخرابِ، واجتماعُها بفرقةِ الأحبابِ، وكلُّ ما فوقَ التُّرابِ ترابٌ.

قالَ الحَسَنُ: إنَّ الموتَ قد فَضَحَ الدُّنيا فلمْ يَدَعْ لذي لبٍّ بها فرحًا.

وقالَ مُطَرِّفٌ: إنَّ هذا الموتَ قد أَفْسَدَ على أهلِ النَّعيمِ نعيمَهُم، فالتَمِسوا نعيمًا لا موتَ فيهِ.

وقالَ بعضُهُم: ذَهَبَ ذكرُ الموتِ بلذَّةِ كلِّ عيشٍ وسرورٍ. ثمَّ بَكَى وقالَ: واهًا لدارٍ لا موتَ فيها!

وقالَ يونُسُ بنُ عُبَيْدٍ: ما تَرَكَ ذكرُ الموتِ لنا قُرَّةَ عينٍ في أهلٍ ولا مالٍ.

وقالَ يَزيدُ الرَّقاشِيُّ: أمِنَ أهلُ الجنَّةِ الموتَ فطابَ لهُمُ العيشُ، وأمِنوا مِنَ الأسقامِ فهنيئًا لهُم في جوارِ اللهِ طولُ المقامِ.

عبادَ اللهِ! هَلُمُّوا إلى دارٍ لا يُموتُ سكَّانُها، ولا يَخْرَبُ بُنيانُها، ولا يَهْرَمُ شبَّانُها، ولا يَتَغَيَّرُ حسنُها وإحسانُها، هواؤُها النَّسيمُ وماؤُها التَّسنيمُ، يَتَقَلَّبُ أهلُها في رحمةِ أرحمِ الرَّاحمينَ، ويَتَمَتَّعُونَ بالنَّظرِ إلى وجْهِهِ الكريمِ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

وظائف شهر اللّٰه المحرم

المجلس الأول

في فضائل شهر الله المحرّم وعشره الأول

خَرَّجَ مُسْلِمٌ مِنْ حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ ﵁، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**أفضلُ الصِّيامِ بعد شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ الذي تَدْعونَهُ المُحَرَّمَ، وأفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الفريضةِ قيامُ الليلِ**»[١].

الكلامُ على هذا الحديثِ في فصلينِ: في أفضلِ التَّطوُّعِ بالصِّيامِ، وأفضلِ التَّطوُّعِ بالقيامِ.

الفصل الأوَّل

في فضل التطوُّع بالصِّيام

وهذا الحديثُ صريحٌ في أنَّ أفضلَ ما تُطُوِّعَ بهِ مِن الصِّيامِ بعدَ رمضانَ صومُ شهرِ اللهِ المحرَّمِ.

وقد يُحْتَمَلُ أنْ يُرادَ أنَّه أفضلُ شهرٍ تُطُوِّعَ بصِيامِهِ كاملًا بعدَ رمضانَ. فأمَّا بعضُ التَّطوُّعِ ببعضِ شهرٍ، فقد يَكونُ أفضلَ مِنْ بعضِ أيَّامِهِ: كصيامِ يومِ عرفةَ، أو عشرِ ذي الحِجَّةِ، أو سِتَّةِ أيَّامٍ مِن شوَّالٍ... ونحوِ ذلك.

فَأمَّا التَّطوُّعُ المطلقُ، فأفضلُهُ صيامُ الأشهرِ الحرمِ، وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ أمَرَ رجلًا أنْ يَصومَ الأشهرَ الحرمَ، وسنَذْكُرُهُ في موضعٍ آخرَ إنْ شاءَ اللهُ تَعالَى.

وقدِ اخْتَلَفَ العلماءُ في أيِّ الأشهرِ الحرمِ أفضلُ:

---

(١) رواه مسلم (١١٦٣).

فقالَ الحَسَنُ وغيرُهُ: أفضلُها شهرُ اللهِ المحرَّمُ. ورَجَّحَهُ طائفةٌ مِنَ المتأخِّرينَ.

ورَوى: وَهْبُ بنُ جَريرٍ، عن قُرَّةَ بنِ خالِدٍ، عنِ الحَسَنِ، قال: إنَّ اللهَ افتَتَحَ السَّنَةَ بشهرٍ حرامٍ وخَتَمَها بشهرٍ حرامٍ، فليسَ شهرٌ في السَّنةِ بعدَ شهرِ رمضانَ أعظَمَ عندَ اللهِ مِنَ المحرَّمِ، وكانَ يُسَمّى شهرَ اللهِ الأصمَّ من شِدَّةِ تحريمِهِ.

وقد سَمَّى النَّبيُّ ﷺ المُحَرَّمَ شهرَ اللهِ، وإضافتُهُ إلى اللهِ تَدُلُّ على شرفِهِ وفضلِهِ، فإنَّه تَعالى لا يُضيفُ إليهِ إلَّا خواصَّ مخلوقاتِهِ، كما نَسَبَ مُحَمَّدًا وإبْراهيمَ وإسْحاقَ ويعْقوبَ وغيرَهُم مِن الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم إلى عبوديَّتِهِ ونَسَبَ إليهِ بيتَهُ وناقتَهُ.

شَهْرُ الحَرامِ مُبارَكٌ مَيْمونُ ... وَالصَّوْمُ فيهِ مُضاعَفٌ مَسْنونُ
وَثَوابُ صائِمِهِ لِوَجْهِ إلهِهِ ... في الخُلْدِ عِنْدَ مَليكِهِ مَخْزونُ

الصِّيامُ سرٌّ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ، ولهذا يَقولُ اللهُ ﷻ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ لهُ، إلَّا الصَّوْمَ، فإنَّهُ لِي، وأنا أَجْزي بِهِ، إنَّه تَرَكَ شهوتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي. وفي الجنَّةِ بابٌ يُقالُ لهُ الرَّيَّانُ، لا يَدْخُلُ مِنهُ إلَّا الصَّائِمونَ، فإذا دَخَلوا، أُغْلِقَ فلَمْ يَدْخُلْ مِنهُ غيرُهُم**»(١).

وفيهِ: أنَّ أبا أُمامَةَ قالَ للنبيِّ ﷺ: أوْصِنِي! قالَ: «**عليكَ بالصَّومِ، فإنَّه لا عِدْلَ لَهُ**»(٢). فكانَ أبو أُمامَةَ وأهلُهُ يَصومونَ، فإذا رُئِيَ في بيتِهِم دُخانٌ بالنَّهارِ، عُلِمَ أنَّهُ قد نَزَلَ بِهِم ضيفٌ.

للصَّائمِ فرحَتانِ: فرحةٌ عندَ فطرِهِ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ إذا وَجَدَ ثوابَ صيامِهِ مدخورًا.

---

(١) سيأتي تخريجه، وألفاظه في الصحيحين.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٤٩)، والنسائي (٣٤٢٦)، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان، وقال ابن حجر في فتح الباري (٤/ ١٠٤): سنده صحيح.

قـــالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقالَ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، قالَ مُجاهِدٌ وغيرُهُ: نَزَلَتْ في الصُّوَّامِ.

مَنْ تَرَكَ للهِ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوَتهُ، عَوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِن ذلكَ، طعامًا وشرابًا لا يَنْفَدُ، وأزواجًا لا تَموتُ.

لَمَّا كانَ الصِّيامُ سرًّا بينَ العبدِ وربِّهِ، اجتَهَدَ المخلصونَ في إخفائِهِ بكلِّ طريقٍ حتَّى لا يَطَّلِعَ عليهِم أحدٌ.

قالَ بعضُ الصَّالحينَ: بَلَغَنا عن عيسى بنِ مَرْيَمَ عليه السلام أَنَّهُ قالَ: إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم، فَلْيَدْهُنْ لحيتَهُ ويَمْسَحْ شفتيهِ مِن دُهنِهِ حتَّى يَنْظُرَ إليهِ النَّاظِرُ فَيَظُنَّ أَنَّهُ ليسَ بصائمٍ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ، قالَ: إذا أصبحَ أحدُكُم صائمًا، فلْيَترجَّل (يَعْني: يُسَرِّحْ شعرَهُ ويَدْهَنهُ)، وإذا تَصَدَّقَ بصدقةٍ عن يمينِهِ فلْيُخْفِها عن شِمالِهِ، وإذا صَلَّى تطوُّعًا، فلْيُصَلِّ في دَاخِلِ بيتِهِ.

وقالَ أبو التَّيَّاحِ: أدْرَكْتُ أبي ومشيخةَ الحيِّ، إذا صَامَ أحدُهُمُ، ادَّهَنَ ولَبِسَ صالحَ ثيابِهِ.

صامَ بعضُ السَّلَفِ أربعينَ سنةً لا يعْلَمُ بِهِ أحدٌ، كانَ لهُ دُكَّانٌ، فكاَنَ كلَّ يوم يَأْخُذُ مِن بيتِهِ رغيفينِ ويَخْرُجُ إلى دكَّانِهِ فيتصَدَّقُ بهِما في طريقِهِ، فيَظُن أهلُهُ أنَّهُ يأْكُلُهُما في السُّوقِ، ويَظُنُّ أهلُ السُّوقِ أنَّهُ قد أكَلَ في بيتِهِ قبلَ أنْ يَجيءَ.

الفصل الثاني

في فضل قيام الليل

وقدْ دَلَّ حديثُ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ على أنَّ قيام الليل أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ المكتوبةِ.

وهل هوَ أفضلُ مِن السُّنَنِ الرَّاتِبَةِ؟ فيهِ خلافٌ.

وَإِنَّما فُضِّلَت صلاةُ الليلِ على صلاةِ النَّهارِ:

• لأنَّها أبلغُ في الإسرارِ وأقربُ إلى الإخلاصِ.

كانَ السَّلَفُ يَجْتَهِدُونَ على إخفاءِ تهجُّدِهِم، قالَ الحَسَنُ: كانَ الرَّجُل يَكونُ عندَهُ زوَّارٌ، فيَقومُ مِنَ الليلِ يُصلِّي ولا يَعْلَمُ بهِ زوَّارُهُ. وكانوا يَجْتَهِدونَ في الدُّعاءِ ولا يُسْمَعُ لهُم صوتٌ.

وكانَ محمَّدُ بنُ واسِعٍ يُصَلِّي في طريقِ مكَّةَ طولَ ليلِهِ في محملِهِ، ويَأمُرُ حاديَهُ أنْ يَرْفَعَ صوتَهُ لِيَشْغَلَ النَّاسَ عنْهُ.

وكانَ بعضُهُم يَقومُ في وسطِ الليلِ ولا يُدْرَى بهِ، فإذا كانَ قربَ طلوعِ الفجرِ، رَفَعَ صوتَهُ بالقرآنِ، يُوهِمُ أنَّه قامَ تلكَ السَّاعةَ.

• ولأنَّ صلاةَ الليلِ أشقُّ على النُّفوسِ، فإنَّ الليلَ محلُّ النَّومِ والرَّاحةِ مِنَ التَّعبِ بالنَّهارِ، فتركُ النَّومِ معَ ميلِ النَّفسِ إليهِ مجاهدةٌ عظيمةٌ. قال بعضُهُم: أفضلُ الأعمالِ ما أُكْرِهَتِ النُّفوسُ عليهِ.

• ولأنَّ القراءةَ في صلاةِ الليلِ أقربُ إلى التَّدبُّرِ، فإنَّهُ تَنْقَطِعُ الشَّواغلُ بالليلِ، ويَحْضُرُ القلبُ، ويتَواطأُ هوَ واللسانُ على الفهمِ، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزَّمل: ٦].

ولهذا المعنى أُمِرَ بترتيلِ القرآنِ في قيامِ الليلِ ترتيلًا.

• ولأنَّ وقتَ التَّهجُّدِ مِنَ الليلِ أفضلُ أوقاتِ التَّطوُّعِ بالصَّلاةِ وأقربُ ما

يَكون العبدُ مِن ربِّهِ، وهوَ وقتُ فتحِ أبوابِ السَّماءِ واستجابةِ الدُّعاءِ واستعراضِ حوائجِ السَّائلينَ.

وقد مَدَحَ اللهُ المستيقظينَ بالليلِ لذكرِهِ ودعائِهِ واستغفارِهِ ومناجاتِهِ: فقالَ اللهُ تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]. وقالَ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. وقالَ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]. وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٤]. وقالَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزُّمَر: ٩]. وقالَ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وقال لنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩] وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦]. وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزَّمل: ١ ـ ٤].

قالَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها الرجلِ: لا تَدَعْ قيامَ الليلِ، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَدَعُهُ، وكانَ إذا مَرِضَ (أو قالَتْ: كَسِلَ) صَلَّى قاعِدًا[1].

وَفي روايةٍ أُخرى عنها، قالَتْ: بَلَغَني عن قوم يَقولونَ: إنْ أدَّيْنا الفرائضَ لمْ نُبالِ ألَّا نَزْدادَ! ولَعَمْري، لا يَسْأَلُهُمُ الله إلَّا عمَّا افترَضَ عليهِم، ولكنَّهُمْ قومٌ يُخْطِئونَ بالليلِ والنَّهارِ، وما أنتُم إلَّا مِن نبيِّكُم، وما نبيكُم إلا منكُمْ، واللهِ ما تَرَكَ رسولُ الله ﷺ قيامَ الليلِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦١١٤)، وأبو داود (١٣٠٧)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

فأشارَتْ عائِشَةُ ﵂ إلى أنَّ قيامَ الليلِ فيه فائدتانِ عظيمتانِ:

• الاقتداءُ بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ والتَّأسِّي بهِ، وقد قال تَعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

• وتكفيرُ الذُّنوبِ والخطايا، فإنَّ بني آدَمَ يُخْطِئونَ بالليلِ والنَّهارِ، فَيَحْتاجونَ إلى الاستكثارِ مِنْ مكفِّراتِ الخطايا، وقيامُ الليلِ مِنْ أعظم المكفِّراتِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ لمُعاذِ بنِ جَبَلٍ: «**قيامُ العبدِ في جوفِ الليلِ يُكَفِّرُ الخطيئةَ**». ثمَّ تَلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾..) الآية [السجدة: ١٦]. خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ وغيرُهُ[١].

وقد رُوِيَ أنَّ المتهجِّدينَ يَدْخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: قيامُ الليلِ يُهَوِّنُ طولَ القيامِ يومَ القيامةِ.

وفي حديثِ أبي أُمامَةَ وبلالٍ المرفوعِ: «**عليكُم بقيامِ الليلِ، فإنَّهُ دأْبُ الصَّالحينَ قبلَكُم، وإنَّ قيامَ الليلِ قربةٌ إلى اللهِ وتكفيرٌ للسَّيِّئاتِ ومنهاةٌ عنِ الإثمِ ومطردةٌ للدَّاءِ عنِ الجسدِ**». خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ[٢].

وَكَمَا أنَّ قيامَ الليلِ يُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ فهوَ يَرْفَعُ الدَّرَجاتِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ أهلَهُ مِنَ السَّابقين إلى الجنَّةِ بغيرِ حسابٍ.

وفي حديثِ المنامِ المشهورِ الذي خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والتِّرمِذِيُّ: أنَّ الملأَ الأعلى يَخْتَصِمُونَ في الدَّرَجاتِ والكَفَّاراتِ، وفيهِ أنَّ الدَّرجاتِ: إطعامُ الطَّعامِ، وإفشاءُ السلامِ، والصَّلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٢/١٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، وابن خزيمة (١١٣٥)، والحاكم (١/٤٥١)، ورواية أبي أمامة أصح، وليس فيها «ومطردة للداء عن الجسد».

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٨٤)، والترمذي (٣٢٣٣)، قال الترمذي: سألت محمَّد بن إسماعيل =

وفي حديثِ عبْدِ الله بنِ سَلامٍ المشهورِ المخرَّجِ في «السُّننِ»: أنَّهُ سَمِعَ النَّبي ﷺ يَقولُ عندَ قدومِهِ المدينةَ: «**يا أيُّها النَّاسُ! أَطْعِموا الطَّعامَ، وأَفْشُوا السَّلامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسلامٍ**»[1].

ومِن فضائلِ التَّهَجُّدِ أنَّ اللهَ ﷻ: يُحِبُّ أهلَهُ، ويُباهي بهمُ الملائكةَ، ويَسْتَجيبُ دعاءَهُم.

وفي «المسند»: عنِ ابنِ مَسْعُودٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**عَجِبَ ربُّنَا مِن رجلٍ ثارَ عن وطائِهِ ولحافِهِ مِن بينِ أهلِهِ وحبِّهِ إلى صلاتِهِ، فَيقولُ ربُّنا تَبارَكَ وتَعالى: يا ملائكتي! انْظُروا إلى عبدي، ثارَ مِن فراشِهِ ووطائِهِ مِن بينِ أهلِهِ وحبِّهِ إلى الصَّلاةِ، رغبةً فيما عنْدي وشفقةً ممَّا عندي...**» وذَكَرَ بقيَّةَ الحديثِ[2].

وقولُهُ: «ثارَ» فيهِ إشارةٌ إلى قيامِهِ بنشاطٍ وعزمٍ.

وفي الصَّحيحينِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**نِعْمَ الرَّجلُ عبدُ الله (يَعْني: ابنَ عُمَرَ) لو كانَ يُصَلِّي مِنَ الليلِ**»[3]. فكانَ عبدُ اللهِ لا يَنامُ بعدَ ذلكَ مِنَ الليلِ إلَّا قليلًا.

كانَ أبو ذَرٍّ ؓ يَقُولُ للنَّاسِ: أرَأيْتُم لوْ أن أحَدَكُمْ أرادَ سفرًا، أليسَ يَتَّخِذُ مِن الزَّادِ ما يُصْلِحُهُ ويُبَلِّغُهُ؟ قالوا: بلى. قالَ: فسفرُ طريقِ القيامةِ أبعدُ، فخُذوا لهُ ما يُصْلِحُكُم، حُجُوا حَجَّةً لعظائمِ الأُمور، صوموا يومًا شديدًا حرُّهُ لحرِّ يومِ النُّشورِ، صَلُّوا ركعتينِ في ظلمةِ الليلِ لظلمةِ القبورِ، تَصَدَّقوا صدقةً لشرِّ يوم عسير.

أينَ رجالُ الليل؟! أينَ الحَسَنُ وسُفْيانُ وفُضَيْل؟!

= البخاري عنه فقال: هذا حديث حسن صحيح، وللمؤلف ؒ شرح مستقل لهذا الحديث اسمه: اختيار الأولى في شرح اختصام الملأ الأعلى.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٤٩)، والحاكم (٢/١٢٣)، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

يَــا رِجــالَ الــلَّــيْــلِ جِــدُّوا ... رُبَّ داعٍ لا يُـــــــــــرَدُّ
مَــا يَــقُــومُ الــلَّــيْــلَ إلَّا ... مَــنْ لَــهُ عَــزْمٌ وَجِــدُ
لَـيْـسَ شَـيْءٌ كَـصَـلاةِ الْـ ... ـلَـيْـلِ لِـلْـقَـبْـرِ يُـعَـدُّ

قيلَ لابنِ مَسْعُودٍ: ما نَسْتَطيعُ قيامَ الليلِ. قالَ: أبْعَدَتْكُمْ ذُنُوبُكُمْ.

وقيلَ للحَسَنِ: قدْ أعْجَزَنَا قيامُ الليلِ. قالَ: قَيَّدَتْكُمْ خطايَاكُم.

وقالَ الفُضَيْلُ: إذا لَمْ تَقْدِرْ على قيامِ الليلِ وصيامِ النَّهارِ؛ فاعْلَمْ أنَّكَ محرومٌ مُكَبَّلٌ كَبَّلَتْكَ خطيئَتُكَ.

قالَ الحَسَنُ: إنَّ العبدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فيُحْرَمُ بِهِ قيامَ الليلِ.

قالَ بعضُ السَّلَفِ: أذْنَبْتُ ذنبًا فحُرِمْتُ بهِ قيامَ الليلِ ستَّةَ أشهرٍ.

الليلُ منهلٌ يَرِدُهُ أهلُ الإرادةِ كُلُّهُمْ، ويَخْتَلِفونَ فيما يَرِدونَ ويُريدونَ، قد عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مشربَهُم: فالمُحبُّ يَتَنَعَّمُ بمناجاةِ محبوبِهِ، والخائِفُ يَتَضرَّعُ لطلبِ العفوِ ويَبْكِي على ذنوبِهِ، والرَّاجي يُلِحُّ في سؤالِ مطلوبِهِ، والغافِلُ المسكينُ أحْسَنَ اللهُ عزاءَهُ في حرمانِهِ وفواتِ نصيبِهِ.

قالَ النَّبيُّ ﷺ لعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو ﭫ: **«لا تَكُنْ مثْلَ فلانٍ! كانَ يَقومُ الليلَ فترَكَ قيامَ الليلِ»**[(١)].

كانَ النَّبيُّ ﷺ يَطْرُقُ بابَ فاطِمَةَ وعَلِيٍّ ويَقولُ: **«ألا تُصَلِّيانِ؟»**[(٢)].

وفي الحديثِ: **«إذا اسْتَيْقَظَ الرجُلُ وَأيْقَظَ أهْلَهُ فَصَلَّيا ركعتينِ، كُتِبا مِنَ الذَّاكرينَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتِ»**[(٣)].

كَانَتِ امرأةُ حَبيبٍ العَجَمِيِّ توقِظُهُ بالليلِ وتَقولُ: ذَهَبَ الليلُ، وبينَ أيدينا

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).
(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٩)، وابن ماجه (١٣٣٥)، قال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح.

طريقٌ بعيدٌ، وزادُنا قليلٌ، وقوافلُ الصَّالحينَ قد سارَتْ قدَّامَنا ونحنُ قد بَقِينا.

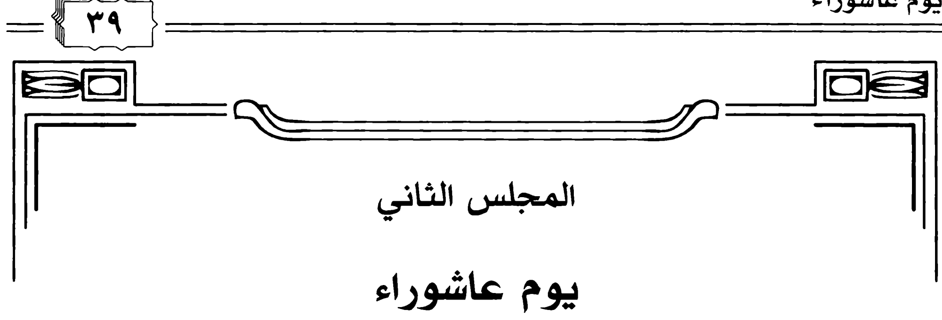
يـا راقِـدَ الـلَّـيْـلِ فَـكَـمْ تَـرْقُـدُ ... قُـمْ يـا حَـبيبي قَـدْ دَنـا الـمَـوْعِـدُ

وَخُـذْ مِـنَ الـلَّـيْـلِ وَأَوْقـاتِـهِ ... وِرِدًا إذا مَـا هَـجَـعَ الـرُّقَّـدُ

مَـنْ نـامَ حَـتَّـى يَـنْـقَـضي لَـيْـلُـهُ ... لَـمْ يَـبْـلُـغِ الـمَـنْـزِلَ أَوْ يَـجْـهَـدُ

قُـلْ لأُولـي الألْـبَـابِ أَهْـلِ الـتُّـقَـى ... قَـنْـطَـرَةُ الـعَـرْضِ لَـكُـمْ مَـوْعِـدُ





المجلس الثاني

يوم عاشوراء

في الصَّحيحَيْنِ: عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، أنَّهُ سُئِلَ عن صومِ يومِ عاشوراءَ، فقالَ: ما رَأيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ صامَ يومًا يَتَحرَّى فضلَهُ على الأيَّامِ إلَّا هذا اليومَ (يَعْني: يومَ عاشوراءَ) وهذا الشَّهرَ (يَعْني: رمضانَ)[1].

يومُ عاشوراءَ لهُ فضيلةٌ وحرمةٌ قديمةٌ، وصومُهُ لفضلِهِ كانَ معروفًا بينَ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ.

وكَانَ للنَّبيِّ ﷺ في صيامِهِ أربعةُ أحوالٍ:

الحالةُ الأُولى: أنَّهُ كانَ يَصومُهُ بِمَكَّةَ ولا يَأْمُرُ النَّاسَ بالصَّومِ.

ففي الصَّحِيحيْنِ: عن عائِشَةَ، قالَتْ: كانَ عاشوراءُ يومًا تَصومُهُ قريشٌ في الجاهليَّةِ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يَصومُهُ، فلمَّا قَدِمَ المدينةَ، صامَهُ وأمَرَ بصيامِهِ، فلمَّا نَزَلَتْ فريضةُ شهرِ رَمَضانَ، كانَ رَمَضانُ هوَ الذي يَصومُهُ، فتَرَكَ يومَ عاشوراءَ، فمَن شاءَ صامَهُ، ومَن شاءَ أفْطَرَهُ[2].

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَن شاءَ فَلْيَصُمْهُ، ومَن شاءَ أفْطَرَهُ»**.

الحالةُ الثَّانيةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا قَدِمَ المدينةَ ورَأى صيامَ أهلِ الكتابِ لهُ وتعظيمَهُم لهُ ـ وكانَ يُحِبُّ موافقتَهُم فيما لم يُؤْمَرْ بهِ ـ، صامَهُ، وأَمَرَ النَّاسَ بصيامِهِ، وأكَّدَ الأمرَ بصيامِهِ والحثَّ عليهِ حتَّى كانوا يُصَوِّمُونَهُ أطْفالَهُم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٦)، ومسلم (١١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥).

ففي الصَّحيحيْنِ: عنِ ابنِ عبَّاسٍ، قالَ: قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ، فوَجَدَ اليهودَ صيامًا يومَ عاشورَاءَ، فقالَ لهُم رسولُ اللهِ ﷺ: **«ما هذا اليومُ الذي تَصُومونَهُ؟»**. قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، أنْجَى اللهُ فيهِ موسى وقومَهُ، وأَغْرَقَ فِرعَوْنَ وقومَهُ، فصَامَهُ موسى شكرًا، فنحنُ نَصومُهُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«فنحنُ أحقُّ وأولى بموسى منْكُم»**. فصامَهُ رسول اللهِ ﷺ وأمَرَ بصيامِهِ[1].

وفي الصَّحيحيْنِ: عن سَلَمَةَ بنِ الأكْوَعِ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ رجلًا مِن أسْلَمَ أنْ أذِّنْ في النَّاسِ: **«مَنْ أكَلَ فَلْيَصُمْ بقيَّةَ يومِهِ، ومَن لمْ يَكُنْ أكَلَ فَلْيَصُمْ، فإنَّ اليومَ يومُ عاشوراءَ»**[2].

وفي البابِ أحاديثُ كثيرةٌ جدًّا.

الحالةُ الثَّالثَةُ: أنَّهُ لمَّا فُرِضَ صِيامُ شهرِ رَمَضانَ، تَرَكَ النَّبيُّ ﷺ أمْرَ أصحابِهِ بصيامِ يومِ عاشوراءَ وتأكيدَهُ فيهِ.

وقَدْ سَبَقَ حديثُ عائشَةَ في ذلكَ.

وفي الصَّحيحيْنِ: عنِ ابنِ عُمَرَ، قالَ: صامَ النَّبيُّ ﷺ عاشوراءَ وأمَرَ بصيامِهِ، فلمَّا كانَ فرضُ رمَضانَ، تَرَكَ ذلكَ[3].

الحالةُ الرَّابعةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ عَزَمَ في آخرِ عمرِهِ على ألَّا يَصومَهُ مفردًا، بل يَضُمُّ إليه يومًا آخرَ مخالفةً لأهلِ الكتابِ في صيامِهِ.

ففي «صحيح مسلمٍ»: عنِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه قالَ: حينَ صامَ رسولُ اللهِ ﷺ عاشوراءَ وأمَرَ بصيامِهِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ! إنَّهُ يومٌ تُعَظِّمُهُ اليهودُ والنَّصارى. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«فإذا كانَ العامُ المقبلُ إنْ شاءَ اللهُ صُمْنا اليومَ التَّاسعَ»**.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٢٤)، ومسلم (١١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٢)، ومسلم (١١٢٦).

قالَ: فلمْ يأتِ العامُ المقبلُ حتَّى تُوُفي رسولُ اللهِ ﷺ[١].

وكَانَ طائفةٌ مِنَ السَّلفِ يَصومونَ عاشوراءَ في السَّفرِ، منهُمُ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو إسْحاقَ السَّبيعيُّ، والزُّهْرِيُّ، وقالَ: رمضانُ لهُ عدَّةٌ مِن أيَّامٍ أُخَرَ وعاشوراءُ يَفوتُ. ونَصَّ أحْمَدُ على أنَّهُ يُصامُ عاشوراءُ في السَّفرِ.

* * *

وكلُّ ما رُوِيَ في فضلِ الاكتحالِ في يومِ عاشوراءَ والاختصابِ والاغتسالِ فيهِ فموضوعٌ لا يَصِحُّ[٢].

وأمَّا التَّوسعةُ فيهِ على العيالِ:

فقالَ حَرْبٌ: سَألْتُ أحْمدَ عنِ الحديثِ الذي جاءَ: «**مَن وَسَّعَ على أهلِهِ يومَ عاشوراءَ**»، فلم يَرَهُ شيئًا.

وقولُ حَرْبٍ «إنَّ أحْمَدَ لمْ يَرَهُ شيئًا» إنَّما أرادَ بهِ الحديثَ الذي يُروَى مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ، فإنَّهُ لا يَصِحُّ إسنادُهُ.

وأمَّا اتِّخاذُهُ مَأتَمًا كَما تَفْعَلُهُ الرَّافِضَةُ لأجلِ قتلِ الحُسَيْنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما فيهِ، فهوُ مِن عملِ مَن ضَلَّ سعيُهُ في الحياةِ الدُّنيا وهوَ يَحْسَبُ أنَّهُ يُحْسِنُ صنْعًا، ولمْ يأمُرِ اللهُ ولا رسولُهُ باتِّخاذِ أيَّامِ مصائبِ الأنبياءِ وموتِهِم مأتمًا، فكيفَ بِمَن دونَهُم؟!

ومِن فضائلِ يومِ عاشوراءَ أنَّه يومٌ تابَ اللهُ فيهِ على قومٍ.

وفي حديثِ عليٍّ الذي خَرَّجَهُ التِّرمِذِيُّ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لرجلٍ: «**إنْ كُنْتَ صائمًا شهرًا بعدَ رمضانَ، فصُمِ المُحَرَّمَ، فإنَّ فيهِ يومًا تابَ اللهُ فيهِ على**

---

(١) أخرجه مسلم (١١٣٤).

(٢) ورد في فضل الاكتحال يوم عاشوراء حديث (من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد أبدًا) وكذلك وردت أحاديث في فضل الاختضاب وهو صبغ الشيب، وفي الاغتسال يوم عاشوراء، وكلها أحاديث منكرة موضوعة.

قومٍ ويَتوبُ فيهِ على آخرينَ»[١].

وقولُهُ ﷺ في حديثِ عَليٍّ: «**وَيَتوبُ فيهِ على آخرينَ**»: حثٌّ للنَّاسِ على تجديدِ التَّوبةِ النَّصوحِ في يومِ عاشوراء، وترجيةٌ لقبولِ التَّوبةِ ممَّن تابَ فيهِ إلى اللهِ ﷻ مِن ذنوبِهِ كما تابَ فيهِ على مَنْ قبلَهُم.

وقَدْ قالَ تَعالى عن آدَمَ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: ٣٧]. وأَخْبَرَ عنهُ وعَن زوجِهِ أنَّهُما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكَتَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ إلى الأمصارِ كتابًا وقالَ فيهِ: قولوا كما قالَ أبوكُم آدم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقولوا كما قالَ نوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وقولوا كما قالَ موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وقولوا كما قالَ ذو النُّونِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

اعترافُ المذنبِ بذنبِه معَ النَّدمِ عليهِ توبةٌ مقبولةٌ.

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ العبدَ إذا اعْتَرَفَ بذنبِهِ ثمَّ تابَ، تابَ اللهُ عليهِ**»[٢].

وفي دعاءِ الاستفتاحِ الذي كانَ النَّبيُّ ﷺ يَسْتَفْتِحُ بِهِ: «**اللَّهُمَّ! أنت ربِّي، لا إلهَ إلَّا أنتَ، ظَلَمْتُ نفسي واعترَفْتُ بذنبي فاغْفِرْ لي، إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٨٧) وقال: حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٣) أخرجه مسلم (٧٧١).

وفي الدُّعاءِ الذي عَلَّمَهُ ﷺ للصِّدِّيقِ أنْ يَقولَهُ في صلاتِهِ: «**اللَّهُمَّ! إنِّي ظَلَمْتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، فاغْفِرْ لي مغفرةً مِن عندِكَ وارْحَمني، إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرَّحيمُ**»(١).

وفي حديثِ شَدَّادِ بنِ أوسٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**سيِّدُ الاستغفارِ أن يقولَ العبدُ اللَّهُمَّ! أنتَ ربِّي، لا إلَهَ إلَّا أنتَ، خَلَقْتَني، وأنا عبْدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطَعْتُ، أعوذُ بكَ مِن شرِّ ما صَنَعْتُ، أبوءُ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي، فاغْفِرْ لي، إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ**»(٢).

الاعترافُ يَمْحو الاقترافَ، كما قيلَ:

وإنَّ اعتِرافَ المَرْءِ يَمْحُو اقْتِرافَهُ ... كَمَا أنَّ إنْكارَ الذُّنوبِ ذُنوبُ

لمَّا أُهْبِطَ آدمُ عليه السلام مِنَ الجنَّةِ بَكى ثلاثَ مئةِ عامٍ، وحُقَّ لهُ ذلكَ، كانَ في دارٍ لا يَجُوعُ فيها ولا يَعْرَى ولا يَظْمَأُ فيها ولا يَضْحى، فلمَّا نَزَلَ إلى الأرضِ، أصابَهُ ذلكَ كلُّهُ، فكانَ إذا رأى جبريلَ يتذَكَّرُ برؤيتِهِ تلكَ المعاهدَ، فيَشْتَدُّ بكاؤُهُ حتَّى يَبْكي جبريلُ لبكائِهِ ويَقولَ لهُ: ما هذا البكاءُ يا آدَمُ؟ فيَقولُ: وكيفَ لا أبكي وقد أُخْرِجْت مِن دارِ النِّعْمَةِ إلى دارِ البؤسِ؟

فَحَيَّ عَلى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإنَّها ... مَنازِلُكَ الأُولى وَفيها المُخَيَّمُ
ولَكِنَّنا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تُرى ... نَعُودُ إلى أوْطانِنا وَنُسَلِّمُ(٣)

احْذَروا هذا العدوَّ الذي أخْرَجَ أباكُمْ مِنَ الجنَّةِ، فإنَّهُ ساعٍ في مَنْعِكُم مِنَ العودِ إليها بِكلِّ سبيلٍ، والعداوةُ بينكُمْ وبينَهُ قديمةٌ، فإنَّه ما أُخْرِجَ مِنَ الجنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) هذان البيتان جزء من قصيدة مشهورة للإمام ابن القيم رحمه الله، وأولها:

إذا طلعتْ شمس النهار فإنها ... علامة تسليمي عليكم فسلِّموا

والإمام ابن القيم هو أحد شيوخ المؤلف الإمام ابن رجب رحمهما الله.

وطُرِدَ عنِ الخِدمةِ إلَّا بسببِ تكبُّرِهِ على أبيكُم وامتناعِهِ مِنَ السُّجودِ لهَ لمَّا أُمِرَ بِهِ. وقدْ أبْلَسَ مِنَ الرَّحْمةِ وأيِسَ مِنَ العودِ إلى الجنَّةِ وتَحقَّقَ خلودَهُ في النَّارِ، فهوَ يَجْتَهِدُ على أنْ يُخلِّدَ معَهُ في النَّارِ بني آدَمَ، بتحسينِ الشِّركِ، فإنْ عَجزَ، قَنعَ بِما دونَهُ مِنَ الفسوقِ والعصيانِ. وقد حذَّرَكُمْ مولاكُم منهُ، وقد أعْذَرَ مَنْ أنْذَرَ، فخُذوا حذْرَكُم، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

العَجَبُ ممَّن عَرَفَ ربَّهُ ثمَّ عَصاهُ، وعَرَفَ الشَّيْطانَ ثمَّ أطاعَهُ! ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

المؤمنونَ في دارِ الدُّنيا في سفرِ جهادٍ، يُجاهدونَ فيهِ النُّفوسَ والهوى، فإذا انقَضَى سفرُ الجهادِ، عادوا إلى وطنِهِمُ الأوَّلِ الذي كانوا فيهِ في صلبِ أبيهِمْ. وَصلَتْ إليكُم معشرَ الأُمَّةِ رسالةٌ مِنْ أبيكُمْ إبْراهيمَ معَ نبيِّكُمْ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِما وسَلَّمَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**رَأيْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي إبْراهيمَ، فقالَ: يا مُحَمَّدُ! أقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ، وأخْبِرْهُمْ أنَّ الجنَّةَ عذبةُ الماءِ طيِّبَةُ التُّربةِ، وأنَّها قيعانٌ، وأنَّ غراسَها: سُبْحانَ اللهِ، والحمْدُ للهِ، ولا إلٰهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ**»[1].

وَخَرَّجَ النَّسائِيُّ والتِّرْمِذِيُّ: عن جابرٍ: عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ قالَ: سبحانَ اللهِ العظِيمِ وبحمدِهِ، غُرِسَتْ لهُ نخلَةٌ في الجنَّةِ**»[2].

أرضُ الجنَّةِ اليومَ قيعان، والأعمالُ الصَّالحةُ لها عمران، بِها تُبْنى

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وحسّنه النووي والألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٦٣)، والحاكم (١/ ٦٨٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

القصورُ وتُغْرَسُ أرضُ الجنان، فإذا تَكَامَلَ الغراسُ والبُنيانُ، انتَقَلَ إليهِ السُّكَّان.

قُلوبُ العارفينَ تَسْتَنْشِقُ أحيانًا نسيمَ الجنَّةِ.

قالَ أَنَسُ بنُ النَّضْرِ يومَ أُحُدٍ: واهًا لريحِ الجنَّةِ، واللهِ، إنِّي لأجِدُ ريحَ الجنَّةِ مِن قِبَلِ أُحُدٍ، ثمَّ تَقَدَّمَ فقاتلَ حتَّى قُتِلَ.

كمْ للهِ مِن لطفٍ وحكمةٍ في إهباطِ آدَمَ إلى الأرضِ، لولا نُزولُهُ، لما ظَهَرَ جهادُ المجاهدينَ واجتهادُ المجتهدين، ولا صَعِدَتْ زَفراتُ أنفاسِ التَّائبين، ولا نَزَلَتْ قطراتُ دموعِ المذنبينَ.





المجلس الثالث

في قدوم الحاج

في الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**مَنْ حَجَّ هذا البيتَ فلمْ يَرْفُثْ ولمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِن ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(١).

مباني الإسلامِ الخمسُ، كلٌّ واحدٍ منها يُكَفِّرُ الذُّنوبَ والخطايا ويَهْدِمُها:

• فلا إلٰهَ إلَّا اللهُ لا تُبقي ذَنبًا ولا يَسْبِقُها عملٌ. **والصَّلواتُ** الخمسُ **والجمعةُ** إلى الجمعةِ **ورمضانُ** إلى رمضانَ مكفِّراتٌ لِما بينَهُنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكبائرُ. **والصَّدَقةُ** تُطْفِئ الخطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ. **والحجُّ** الذي لا رفثَ فيهِ ولا فسوقَ يَرْجِعُ صاحبُهُ مِن ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

وفي الصَّحيحينِ: عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**الحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلَّا الجنَّةُ**»(٢).

وفي «صحيح مسلم»: عنهُ ﷺ، قالَ: «**الحجُّ يَهْدِمُ ما قبلَهُ**»(٣).

فالحجُّ المبرورُ يُكَفِّرُ السَّيِّئاتِ ويوجِبُ دخولَ الجنَّاتِ.

فما دَعا الحاجُّ لنفسِهِ ولا دَعَا لهُ غيرُهُ بأحسنَ مِنَ الدُّعاءِ بأنْ يَكونَ حجُّهُ مبرورًا.

ولهذا يُشْرَعُ للحاجِّ إذا فَرَغَ مِن أعمالِ حجِّهِ وشَرَعَ في التَّحَلُّلِ مِنْ إحْرامِهِ برميِ جمرةِ العقبةِ يومَ النَّحْرِ أنْ يَقولَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حجًّا مبرورًا، وسعيًا

---

(١) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).
(٢) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).
(٣) رواه مسلم (١٢١).

مشكورًا، وذنبًا مغفورًا. رُوِيَ ذلكَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ وابنِ عُمَرَ مِن قولِهِما، ورُوِيَ عنهُما مرفوعًا.

* * *

وللحجِّ المبرورِ علاماتٌ لا تَخْفى:

قيلَ للحَسَنِ: الحجُّ المبرورُ جزاؤُهُ الجنَّةُ. قالَ: آيةُ ذلكَ أنْ يَرْجِعَ زاهدًا في الدُّنيا راغبًا في الآخرةِ.

وقيلَ لهُ: جزاءُ الحجِّ المبرورِ المغفرةُ. قالَ: آيةُ ذلكَ أنْ يَدَعَ سيِّئَ ما كانَ عليهِ مِنَ العملِ.

علامةُ قبولِ الطَّاعةِ أنْ توصَلَ بطاعةٍ بعدَها، وعلامةُ ردِّها أنْ توصَلَ بمعصيةٍ.

ما أحسنَ الحسنةَ بعدَ الحسنةِ وأقبحَ السّيِّئةَ بعدَ الحسنةِ.

ذنبٌ بعدَ التَّوبةِ أقبحُ مِن سبعينَ قبلَها.

النَّكسةُ أصعبُ مِنَ المرضِ الأوَّلِ.

ما أوْحَشَ ذلَّ المعصيةِ بعدَ عزِّ الطَّاعةِ.

سَلوا اللهَ الثَّباتَ إلى المماتِ، وتَعَوَّذوا مِنَ الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ.

كانَ الإمامُ أحْمَدُ يَدْعو ويَقولُ: اللَّهُمَّ! أعِزَّني بطاعتِكَ ولا تُذِلَّني بمعصيتكَ.

وكانَ عامَّةُ دعاءِ إبراهيمَ بنِ أدْهَمَ: اللَّهُمَّ! انْقُلْني مِن ذلِّ المعصيةِ إلى عزِّ الطَّاعةِ.

ألا إنَّما التَّقوى هِيَ العِزُّ وَالكَرَمْ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمْ

وَلَيْسَ عَلى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقيصَةٌ ... إذا حَقَّقَ التَّقْوى وَإنْ حاكَ أوْ حَجَمْ

فإذَا رَجَعَ مِنَ الحجِّ المبرورِ، رَجَعَ وذنبُهُ مغفورٌ ودعاؤُهُ مستجابٌ. فلذلكَ يُسْتَحَبُّ تلقِّيهِ والسَّلامُ عليهِ وطلبُ الاستغفارِ منهُ.

وتلقِّي الحاجِّ مسنونٌ.

وفي «صحيح مسلم»: عن عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ، قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، تُلُقِّيَ بصبيان أهلِ بيتِهِ، وإنَّهُ ﷺ قَدِمَ مِن سفرٍ، فسُبِقَ بي إليهِ، فحَمَلَني بينَ يديهِ، ثمَّ جيءَ بأحدِ ابنَيْ فاطِمةَ، فأرْدَفَهُ خلفَهُ، فأُدْخِلْنا المدينةَ ثلاثةً على دابَّةٍ[1].

وكذلكَ السَّلامُ على الحاجِّ إذا قَدِمَ ومصافحتُهُ وطلبُ الدُّعاءِ منه.

وفي «المسند» بإسنادٍ فيه ضعفٌ: عنِ ابنِ عُمَرَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: **«إذا لَقِيتَ الحاجَّ، فسَلِّمْ عليهِ وصافِحْهُ ومُرْهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لكَ قبلَ أنْ يَدْخلَ بيتَهُ، فإنَّهُ مغفورٌ لهُ»**[2].

قدومُ الحاجِّ يُذَكِّرُ بالقدومِ على اللهِ ﷻ.

قَدِمَ مسافرٌ فيما مَضى على أهلِهِ، فسُرُّوا بهِ، وهناكَ امرأةٌ مِنَ الصَّالحاتِ، فبَكَتْ وقالَتْ: أذْكَرَني هذا بقدومِهِ القدومَ على اللهِ ﷻ، فمِن مسرورٍ ومثبورٍ.

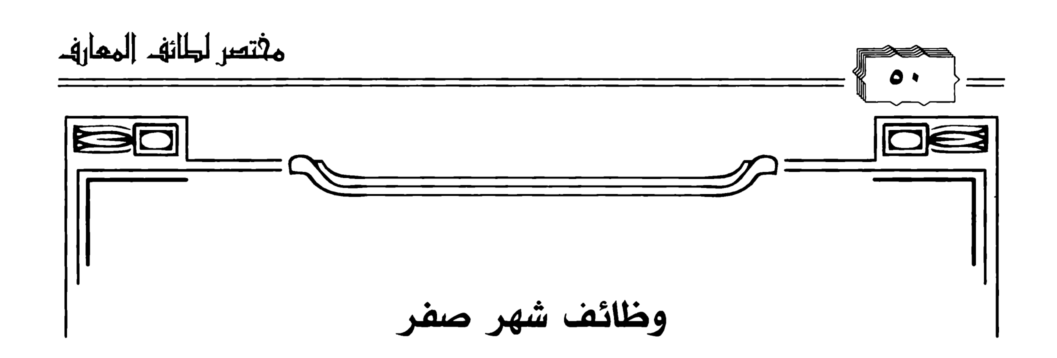
كم بينَ الذينَ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وبينَ الذينَ ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].



(١) رواه مسلم (٢٤٢٨).

(٢) رواه أحمد (٥٣٧٢).

وظائف شهر صفر



وظائف شهر صفر

في الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا عدوى ولا هامةَ ولا صَفَرَ**». فقال أعرابيٌّ: يا رسولَ اللهِ! فما بالُ الإبلِ تكونُ في الرَّملِ كأنَّها الظِّباء فيُخالِطُها البعيرُ الأجربُ فيُجْرِبُها؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فمَنْ أعْدى الأوَّلَ؟**»(١).

أمَّا العدوى، فمعناها أنَّ المرضَ يَتَعَدَّى مِن صاحِبِهِ إلى مَنْ يُقارِبُهُ مِنَ الأصحَّاءِ فيَمْرَضُ بذلكَ. وكانَتِ العربُ تعتَقِدُ ذلكَ في أمراضٍ كثيرةٍ منها الجربُ، ولذلكَ سألَ الأعرابيُّ عنِ الإبلِ الصَّحيحةِ يُخالِطُها البعيرُ الأجربُ فتَجْرَبُ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**فمَنْ أعْدى الأوَّلَ؟**»، ومرادُهُ أنَّ الأوَّلَ لمْ يَجْرَبْ بالعدوى بل بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ فكذلك الثَّاني وما بعدَهُ.

وقد ورَدَتْ أحاديثُ أشْكَلَ على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ فهمُها حتَّى ظَنَّ بعضُهُم أنَّها ناسخةٌ لقولِهِ: «**لا عدوى**».

مثلُ ما في الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا يُورِدُ ممرِضٌ على مصحٍ!**»(٢). والممرِضُ: صاحبُ الإبلِ المريضةِ، والمُصِحُّ: صاحبُ الإبلِ الصَّحيحةِ. والمرادُ النَّهْيُ عن إيرادِ الإبلِ المريضةِ على الصَّحيحةِ.

ومثلُ قولِهِ ﷺ: «**فِرَّ مِنَ المَجذومِ فرارَكَ مِنَ الأسدِ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠).
(٢) رواه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).
(٣) أخرجه البخاري معلقًا (٥٧٠٧).

وقولِهِ ﷺ في الطَّاعُونِ: «**إذا سَمِعْتُمْ بِهِ بأرضٍ، فلا تَدْخُلوها**»(١).

ودخولُ النَّسخِ في هذا كما تَخَيَّلَهُ بعضُهُم لا معنى لهُ، فإنَّ قولَهُ: «**لا عدوى**» خبرٌ محضٌ لا يُمْكِنُ نسخُهُ، إلَّا أنْ يُقالَ: هوَ نهيٌ عنِ اعتقادِ العدوى لا نفيٌ لها. ولكنْ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ ناسخًا للنَّهيِ في هذهِ الأحاديثِ الثَّلاثَةِ وما في معناها.

والصَّحيحُ الذي عليهِ جمهورُ العلماءِ أنَّهُ لا نسخَ في ذلكَ، ولكنِ اختَلَفوا في معنى قولِهِ: «**لا عدوى**»، وأظْهَرُ ما قيلَ في ذلكَ أنَّهُ نفيٌ لِما كانَ يَعْتَقِدُهُ أهلُ الجاهِليَّةِ مِنْ أنَّ هذهِ الأمراضَ تُعْدي بطبعِها مِن غيرِ اعتقادِ تقديرِ اللهِ ﷻ لذلكَ، ويَدُلُّ على هذا قولُهُ: «**فمَن أعْدى الأوَّلَ**»، يُشيرُ إلى أنَّ الأوَّلَ إنَّما جَرِبَ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ فكذلك الثَّاني وما بعدَهُ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨).

(٢) علّق محقّق كتاب لطائف المعارف: الشيخ عامر علي ياسين، بهذا التعليق الجيد حول حديث (لا عدوى) فقال:

مسألة العدوى بين السُّنَّة النبويّة والطبّ الحديث باب واسعٌ جدًا، لا تصلح حواشي هذا الكتاب للتفصيل فيه، ولكنّي لن أخليها من فكرة مختصرة عنها:

أولًا: يرى الأطباء المعاصرون:

[١] أنَّ العدوى أمرٌ صحيحٌ ثابتٌ في بعض الأمراضِ لا فيها جميعًا.

[٢] أنَّ انتقال العامل الممرض من زيد إلى عمرو لا يعني أنَّ عمرًا سيصاب بالمرض يقينًا، بل هاهنا عوامل عدَّة داخليّة وخارجيّة تساعد على ظهور المرض أو تقاومه، وحصول المرض يعتمد على محصّلة هذه العوامل.

[٣] أنَّ إصابة زيد بالمرض ثمَّ إصابة عمرو به بعد ملابسة زيد لا يعني بالضرورة أنَّ زيدًا أعدى عمرًا، بل من الممكن جدًا أن يكون العكس صحيحًا. فهذه قضايا صحيحة وثابتة لا يختلف فيها طبيبان.

ثانيًا: أرسى النبيُّ ﷺ مسألة العدوى الطبيَّة والحجر الصحِّي في قوله: «**لا يورد ممرض على مصحّ**»، وقوله: «**فرّ من المجذوم فرارك من الأسد**»، وقوله: «**إذا وقع الطاعون بأرض فلا تفرّوا...**». فهذه نصوص ثلاثة غاية في الوضوح لا ينبغي أن نتغافل عن مدلولاتها إطلاقًا.

ثالثًا: وكذلك فقد صحّ عنه ﷺ من أوجه قوله: «**لا عدوى**»، جاء هذا بأصحّ الأسانيد عن جماعة من الصحابة يحيل العقل تخطئتهم فيما نقلوه. =

وأمَّا قولُهُ ﷺ: «**لا هامةَ**»، فهوَ نفيٌ لِمَا كانَتِ الجاهليَّةُ تَعْتَقِدُهُ: أنَّ الميِّتَ إذا ماتَ صارَتْ روحُهُ أو عظامُهُ هامةً، وهوَ طائرٌ يَطيرُ. وهو شبيهٌ باعتقادِ أهلِ التَّناسُخِ أنَّ أرواحَ الموتى تَنْتَقِلُ إلى أجسادِ حيواناتٍ مِن غيرِ بعثٍ ولا نشورٍ، وكلُّ هذه اعتقاداتٌ باطلةٌ جاءَ الإسلامُ بإبطالِها وتكذيبِها.

ولكنِ الذي جاءَتْ بهِ الشَّريعةُ «أنَّ أرواحَ الشُّهداءِ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ تَأْكُلُ مِن ثمارِ الجنَّةِ وتَرِدُ مِن الجنَّةِ إلى أنْ يَرُدَّها اللهُ تعالى إلى أجسادِها يومَ القيامةِ»(١).

وأمَّا قولُهُ ﷺ: «**ولا صَفَرَ**»، فاخْتُلِفَ في تفْسيرِهِ:

فقالَ كثيرٌ مِنَ المتقدِّمينَ: الصَّفرُ داءٌ في البطنِ، يُقالُ: إنَّهُ دودٌ كبارٌ، وكانوا يَعْتَقِدونَ أنَّهُ يُعدِي فنَفَى ذلكَ النبيُّ ﷺ.

وقالَتْ طائفةٌ: بلِ المرادُ بـ«**صَفَرَ**» شهرُ صفرَ، ثمَّ اختَلَفوا في تفسيرِهِ على قولينِ:

= **رابعًا:** لأهل العلم أقوال كثيرة في التوفيق بين هذه النصوص التي ظاهرها التناقض، ولا يخلو أغلبها من نظر يحول دون الأخذ به، وأولاها بالصواب فيما أرى:
[١] ما اختاره ابن القيّم في «مفتاح دار السعادة» من حمل إثباته ﷺ للعدوى على أنّها جزء سبب وحمل نفيه لها على أنّها سبب تامّ، فهذا أكثر الأقوال تطابقًا مع معطيات الطبّ المعاصر.
[٢] أن يكون محلّ نفي العدوى القلب ومحلّ إثباتها البدن، ففي ذلك نهي للمريض عن اعتقاد أنَّ فلانًا هو الذي نقل إليه العدوى، وهذا أيضًا يتطابق مع معطيات الطبّ المعاصر؛ لأنَّ جزم المريض بأنَّ فلانًا بالذات هو الذي أعداه غير مقبول علميًا في كثير من الأحوال.
[٣] أن يكون محلّ نفي العدوى في العلاقات بين المسلمين، فلا ينبغي لأحد أن يتَّهم فلانًا من الناس بأنه سبب مرضه وأصل عدواه؛ لأنَّه اتِّهامٌ لا يستند إلى أصلٍ علميٍّ.
[٤] أن يكون محلُّ نفي العدوى أن يطالب فلانًا من الناس بتعويض ما أصابه أو أصاب دوابّه من المرض للسبب السابق نفسه. [٥] ولا يبعد أن تكون هذه الأمور جميعًا صحيحة ومقصودة بنفي العدوى. والله أعلى وأعلم.

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

أحدُهُما: أنَّ المرادَ نفيُ ما كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَفْعَلونَهُ في النَّسيءِ، فكانوا يُحِلُّونَ المُحَرَّمَ ويُحَرِّمونَ صَفَرَ مكانَهُ، وهذا قولُ مالكٍ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يَسْتَشْئِمونَ بصفرَ ويقولونَ: إنَّهُ شهرٌ مشؤومٌ، فأبْطَلَ النَّبيُّ ﷺ ذلكَ. وهذا حكاهُ أبو داودَ عن محمَّدِ بنِ راشدٍ المكْحوليِّ عمَّن سَمِعَهُ يقولُ ذلكَ.

ولعلَّ هذا القولَ أشبهُ الأقوالِ[١]، وكثيرٌ مِنَ الجهَّالِ يتَشاءَمُ بصَفَرَ، وربَّما يَنْهى عنِ السَّفرِ فيهِ. والتَّشاؤمُ بصَفَرَ هوَ مِن جنسِ الطِّيرَةِ المنهيِّ عنها. وكذلكَ التَّشاؤمُ بيومٍ مِنَ الأيَّامِ كيومِ الأربعاءِ.

وكذلكَ تشاؤمُ أهلِ الجاهليَّةِ بشوَّالٍ في النِّكاحِ فيهِ خاصَّةً. وقد قيلَ: إنَّ أصلَهُ أنّ طاعونًا وَقَعَ في شوَّالٍ في سنةٍ مِن السِّنينَ، فماتَ فيهِ كثيرٌ مِن العرائِسِ، فتشاءَمَ بذلِكَ أهلُ الجَّاهليَّةِ. وقد ورَدَ الشَّرْعُ بإبْطالِهِ.

قالَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها: تَزَوَّجَنِي رسولُ اللهِ ﷺ في شوَّالٍ، وبَنى بي في شوَّالٍ، فأيُّ نسائهِ كانَ أحظى عندَهُ مِنِّي؟! وكانَتْ عائِشَةُ تَسْتَحِبُّ أنْ تُدْخِلَ نساءَها في شوَّالٍ.

وفي الجملةِ، فلا شؤمَ إلَّا المعاصي والذُّنوبُ، فإنَّها تُسْخِطُ اللهَ، فإذا سَخِطَ اللهُ على عبدِهِ، شَقِيَ في الدُّنيا والآخرةِ، كما أنَّهُ إذا رَضِيَ عن عبدِهِ سَعِدَ في الدُّنيا والآخرةِ.

قالَ بعضُ الصَّالحينَ، وقد شُكِيَ إليهِ بلاءٌ وَقَعَ في النَّاسِ، فقالَ: ما أرَى ما أنتُم فيهِ إلَّا بشؤمِ الذُّنوبِ.

وقالَ أبو حازمٍ: كلُّ ما شَغَلَكَ عنِ اللهِ مِن أهلٍ أو ولدٍ أو مالٍ فهوَ عليكَ شؤمٌ.

---

(١) أشبه الأقوال: أي أقربها للصواب، وهي عبارة مستعملة في كتب الفقه، ولعل معناها في الأصل: أشبه الأقوال بالسُنة أو بنص الإمام أو بأصول المذهب.

وقد قيلَ:

فَلا كانَ ما يُلْهِي عَنِ اللهِ إنَّهُ يَضُرُّ وَيُؤْذِي إنَّهُ لَمَشُومُ

فالشُّؤمُ في الحقيقة هوَ المعصيةُ، واليمنُ هوَ طاعةُ اللهِ وتقواهُ، كما قيلَ:

إنَّ رأيًا دَعا إلى طاعةِ اللـ ـهِ لَرَأْيٌ مباركٌ مَيْمونُ

والعدوى التي تُهْلِكُ مَنْ قارَبَها هيَ المعاصي، فمَنْ قارَبَها وخالَطَها وأصَرَّ عليها، هَلَكَ، وكذلكَ مخالطةُ أهلِ المعاصي ومَنْ يُحَسِّنُ المعاصي ويُزَيِّنُها ويَدْعو إليها مِن شياطينِ الإنسِ، وهُمْ أضرُّ مِن شياطينِ الجنِّ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: شيطانُ الجنِّ تَسْتَعيذُ بِاللهِ منهُ فيَنْصَرِفُ، وشيطانُ الإنسِ لا يَبْرَحُ حتَّى يوقِعَكَ في المعصيةِ.

وفي الحديثِ: «يُحْشَرُ المرءُ على دينِ خليلِهِ، فلينظُرْ أحدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ»[1].

وفي حديثٍ آخرَ: «لا تَصْحَبْ إلَّا مؤمنًا ولا يَأْكُلْ طَعامَكَ إلَّا تقيٌّ»[2].

ومِمَّا يُرْوى لعَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه:

فَلَا تَصْحَبْ أخا الجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أرْدَى حَكيمًا حينَ آخاهُ

يُقاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ إذا ما المَرْءُ ماشاهُ

وَلِلشَّيءِ على الشَّيْءِ مقاييسٌ وأشْباهُ

ولِلْقَلْبِ عَلى القَلْبِ دَليلٌ حينَ يَلْقاهُ

فالعاصي مشؤومٌ على نفسهِ وعلى غيرِهِ، فإنَّهُ لا يُؤْمَنُ أنْ يَنْزِلَ عليهِ عذابٌ فيَعُمَّ النَّاسَ، خصوصًا مَنْ لَمْ يُنْكِرْ عليهِ عملَهُ، فالبعدُ عنهُ متعيِّنٌ، فإذا كَثُرَ الخَبَثُ هَلَكَ النَّاسُ عمومًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥). وإسناده حسن

وكذلكَ أماكنُ المعاصِي وعقوباتُها يَتَعَيَّنُ البعدُ عنها والهربُ منها خشيةَ نزولِ العذابِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ لأصحابِهِ لمَّا مَرَّ على ديارِ ثمودَ بالحِجْرِ: **«لا تَدْخُلوا على هؤلاءِ المُعذَّبينَ، إلَّا أنْ تكونوا باكينَ، خشيةَ أنْ يُصيبَكُمْ ما أصابَهُم»**[١].

ولمَّا تابَ الذي قَتَلَ مئةَ نفسٍ مِن بَني إسرائيلَ وسَألَ العالِمَ هلْ لهُ مِنْ توبة، قالَ لهُ: نعم، فأمَرَهُ أنْ يَنْتَقِلَ مِن قريةِ السُّوءِ إلى القريةِ الصَّالحةِ، فأدْرَكَهُ الموتُ بينَهُما، فاخْتَصَمَ فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذابِ، فأوْحى اللهُ إليهِم: أنْ قيسوا بينَهُما، فإلى أيِّهما كانَ أقرَبَ فألْحِقوهُ بها، فوجَدوهُ إلى القريةِ الصَّالحةِ أقربَ برميةِ حجرٍ، فغُفِرَ لهُ[٢].

هجرانُ أماكنِ المعصيةِ مِن جملةِ الهجرةِ المأمورِ بها، فإنَّ المهاجرَ مَن هَجَرَ ما نَهى اللهُ عنهُ.

قالَ إبراهيمُ بنُ أدْهَمَ: مَنْ أرادَ التَّوبَةَ، فلْيَخْرُجْ مِن المظالِمِ، ولْيَدَعْ مخالطَة مَن كانَ يُخالِطُهُ، وإلَّا، لمْ يَنَلْ ما يُريدُ.

احْذَروا الذُّنوبَ، فإنَّها مشؤومَة، عواقبُها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوبُ المحبَّةُ لها سقيمة، والنُّفوسُ المائلةُ إليها غيرُ مستقيمة، والسَّلامةُ منها غنيمة، والعافيةُ منها ليس لها قيمة[٣]، والبليَّةُ بها ـ لا سيَّما بعدَ نزولِ الشَّيبِ ـ داهيةٌ عظيمة.

طاعَةُ اللّهِ خَيْرُ ما اكْتَسَبَ العَبْـ ـدُ فكُنْ طائِعًا للَّهِ لا تَعْصِيَنْهُ
ما هَلاكُ النُّفوسِ إلَّا المعاصِي فَاجْتَنِبْ ما نَهاكَ لا تَقْرَبَنْهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر.
(٢) هذا جزء من حديث مشهور أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) معنى قول المؤلف «والعافية منها ليس لها قيمة: أنَّ العافية من الذنوب أمر عظيم لا يُقدَّر بثمن.

إنَّ شَـيْـئًـا هَـلاكُ نَـفْـسِـكَ فـيـهِ   يَـنْـبَـغـي أنْ تَـصـونَ نَـفْـسَـكَ عَـنْـهُ

يا مَن ضاعَ قلبُهُ! انْشُدْهُ في مجلسِ الذِّكرِ، عَسى أنْ تَجِدَهُ. يا مَن مَرِضَ قلبُهُ! احْمِلْهُ إلى مجلسِ الذِّكرِ، لَعَلَّهُ أنْ يُعافى.

مجالسُ الذِّكرِ مارَسْتاناتُ[1] الذُّنوبِ، تُداوى فيها أمراضُ القلوبِ كما تُداوى أمراضُ الأبدانِ في مارستاناتِ الدُّنيا، ونزهٌ لقلوبِ المؤمنينَ تتَنَزَّهُ فيها بسماعِ كلامِ الحكمةِ كما تَتَنَزَّهُ أبصارُ أهلِ الدُّنيا في رياضِها وبساتينِها.

❁ ❁ ❁

---

(١) المارستانات: جمع مارستان، وهو المستشفى.



وظائف شهر ربيع الأول

المجلس الأول

في ذكر مولد النبي ﷺ

خَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ مِن حديثِ: العِرْباضِ بنِ ساريَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنِّي عندَ اللهِ في أُمِّ الكتابِ لخاتمُ النَّبيِّينَ وإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينتِهِ، وسوفَ أُنَبِّئُكُمْ بتأْويلِ ذلكَ: دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عيسى قومَهُ، ورؤيا أُمِّي التي رَأَتْ أنَّهُ خَرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لهُ قُصورُ الشَّامِ، وكذلك أُمَّهاتُ النَّبيينَ يَرَيْنَ**».

وَخَرَّجَهُ الحاكِمُ وقالَ: صحيحُ الإسنادِ. وقد رُوِيَ معناهُ مِن حديثِ أبي أُمامَةَ الباهِلِيِّ ومِن وجوهٍ أُخَرَ مرسَلَةٍ[1].

المقصودُ مِن هذا الحديثِ أنَّ نبوءَةَ النَّبيِّ ﷺ كانَتْ مذكورةً معروفةً مِن قبلِ أنْ يَخْلُقَهُ اللهُ ويُخْرِجَهُ إلى دارِ الدُّنيا حيًا، وأنَّ ذلكَ كانَ مكتوبًا في أُمِّ الكتابِ مِن قبلِ نفخِ الرُّوحِ في آدَمَ عليه السلام.

وَقَد اسْتَدَلَّ الإمامُ أحْمَدُ بحديثِ العِرْباضِ هذا على أنَّ النبيَّ ﷺ لمْ يَزَلْ على التَّوحيدِ منذُ نشَأ ورَدَّ بذلكَ على مَنْ زَعَمَ غيرَ ذلكَ.

بل قد يُستَدَلُّ بهذا الحديثِ على أنَّهُ ﷺ وُلِدَ نبيًّا، فإنَّ نبوَّتَهُ وَجَبَتْ لهُ مِن حين أُخِذَ الميثاقُ منهُ، حيثُ استُخْرِجَ مِن صلبِ آدَمَ، فكانَ نبيًا مِن حينئذٍ، لكنْ كانَتْ مدَّةُ خروجِهِ إلى الدُّنيا متأخِّرةً عن ذلكَ، وذلكَ لا يَمْنَعُ كونَهُ نبيًّا مِن حينئذٍ، كَمَنْ يُوَلَّى ولايةً ويُؤْمَرُ بالتَّصَرُّفِ فيها في زمنٍ مستقبلٍ، فحكمُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٠)، والحاكم (٢/٦٥٦) وصحّحه الحاكم كما ترى، وصحّحه الشيخ الألباني رحمه الله.

الولايةِ ثابتٌ لهُ مِن حينِ ولايتِهِ وإنْ كانَ تصرُّفُهُ يَتأخَّرُ إلى حينِ مجيءِ الوقتِ.

قالَ حَنْبَلٌ: قُلْتُ لأبي عَبْدِ اللهِ (يَعْني: أحْمَدَ): مَن زَعَمَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ على دينِ قومِهِ قبلَ أنْ يُبْعَثَ. قالَ: هذا قولُ سوءٍ، يَنْبَغي لصاحبِ هذه المقالةِ أن يُحْذَرَ كلامُهُ ولا يُجالَسَ. قُلْتُ لهُ: إنَّ جارَنا النَّاقدَ أبا العبَّاسِ يقولُ هذهِ المقالةَ. قالَ: قاتَلَهُ اللهُ! وأيُّ شيءٍ أبْقى إذا زَعَمَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ على دينِ قومِهِ وهُم يَعْبُدُونَ الأصنامَ؟! قالَ اللهُ تعالَى حاكيًا عن عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. قُلتُ لهُ: وَزَعَمَ أنَّ خديجةَ كانَتْ على ذلكَ حينَ تزَوَّجَها النَّبيُّ ﷺ في الجاهليَّةِ. قالَ: أمَّا خديجةُ، فلا أقولُ شيئًا، قد كانَتْ أوَّلَ مَن آمَنَ بِهِ مِن النِّساءِ. ثُمَّ قالَ: ماذا يُحْدِثُ النَّاسُ مِنَ الكلامِ! هؤلاءِ أصحابُ الكلامِ! مَنْ أحبَّ الكلامَ لَمْ يُفْلِحْ! سبحانَ اللهِ لهذا القولِ! واحْتَجَّ في ذلكَ بكلامٍ لَمْ أحْفَظْهُ. وذَكَرَ أنَّ أُمَّهُ حينَ وَلَدَتْ رأَتْ نورًا أضاءَ لهُ قصورُ الشَّامِ، أوَليسَت عندَما وَلَدَتْ رَأَتْ هذا؟! وقبلَ أنْ يُبْعثَ كانَ طاهرًا مطهَّرًا مِنَ الأوثانِ، أوَليسَ كانَ لا يَأكُلُ ما ذُبِحَ على النُّصبِ؟! ثمَّ قالَ: احْذَروا الكلامَ، فإنَّ أصحابَ الكلامِ لا يؤولُ أمرُهُم إلى خيرٍ. خَرَّجَهُ أبو بَكْرٍ عَبْدُ العزيزِ بنُ جَعْفَرٍ في كتابِ «السُّنَّة».

ثُمَّ اسْتَدَلَّ النبيّ ﷺ على سبقِ ذكرِهِ والتَّنويهِ باسمِهِ ونبوَّتِهِ وشرفِ قدرِهِ لخروجِهِ إلى الدُّنيا بثلاثِ دلائِلَ، وهوَ مرادُهُ بقولِهِ: «**وسَأُنَبِّئُكُم بتأْويلِ ذلكَ**».

الدَّليلُ الأوَّلُ: دعوةُ أبيهِ إبْراهيمَ عليه السلام. وأشارَ بذلكَ إلى ما قَصَّ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ عن إبْراهيمَ وإسْماعيلَ أنَّهُما قالا عندَ بناءِ البيتِ الذي بمَكَّةَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩]. فاسْتَجابَ اللهُ

دعاءَهُما وبَعَثَ في أهلِ مَكَّةَ منهُم رسولًا بهذِهِ الصِّفةِ مِن ولدِ إسْماعيلَ الذي دَعا معَ أبيهِ إبْراهيمَ عليهِما السَّلامُ بهذا الدُّعاءِ.

وقدِ امْتَنَّ اللهُ تعالَى على المؤمنينَ ببعثِ هذا النَّبيِّ منهُم على هذهِ الصِّفةِ التي دَعا بها إبْراهيمُ وَإسْماعيلُ:

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقالَ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

ومعلومٌ أنَّهُ لمْ يُبْعَثْ في مَكَّةَ رسولٌ منهُم بهذهِ الصِّفةِ غيرُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهوَ مِن ولدِ إسْماعيلَ، كما أنَّ أنبياءَ بني إسرائيلَ مِن ولدِ إسْحاقَ.

وذَكَرَ تَعالى أنَّهُ مَنَّ على المؤمنينَ بهذهِ الرِّسالةِ، فليسَ للهِ نعمةٌ أعظمَ مِن إرسالِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَهْدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيمٍ.

وقولُهُ: ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ ـ والمرادُ بهِمُ العربُ ـ تنبيهٌ لهُم على قدرِ هذهِ النِّعمةِ وعظمِها، حيثُ كانوا أُمِّيِّينَ لا كتابَ لهُم، وليسَ عندَهُم شيءٌ مِن آثارِ النُّبوَّاتِ، كما كانَ عندَ أهلِ الكتابِ، فمَنَّ اللهُ عليهِم بهذا الرَّسولِ وبهذا الكتابِ، حتَّى صاروا أفضلَ الأُممِ وأعلمَهُم، وعَرَفوا ضلالَةَ مَنْ ضَلَّ مِنَ الأُممِ مِن قبلِهِم.

وفي كونِهِ ﷺ منهُم فائدتانِ:

إحداهُما: أنَّ هذا الرَّسولَ كانَ أيضًا أُمِّيًا كأُمَّتِهِ المبعوثِ إليهِ: لمْ يَقرأْ كتابًا قطُّ ولمْ يَخُطَّهُ بيمينِهِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ...﴾ الآياتِ [العنكبوت: ٤٨]. ولا خرَجَ عن ديارِ قومِهِ فأقامَ عندَ غيرِهِم حتَّى تَعَلَّمَ منهُم شيئًا، بلْ لمْ يَزَلْ أُمِّيًا بينَ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لا يَكْتُبُ

ولا يَقْرأُ حتَّى كَمَّلَ الأربعينَ مِن عُمُرِهِ، ثمَّ جاءَ بعدَ ذلكَ بهذا الكتابِ المبينِ وهذه الشَّريعةِ الباهرةِ وهذا الدّينِ القيِّمِ الذي اعْتَرَفَ حُذَّاقُ أهلِ الأرضِ ونظَّارُهم أنَّهُ لمْ يَقْرَعِ العالَمِ ناموسٌ أعظمُ منهُ. وفي هذا برهانٌ ظاهرٌ على صدقِهِ.

والفائدةُ الثَّانيةُ: التَّنبيهُ على أنَّ المبعوثَ منهُم ـ وهُمُ الأُمِّيُّونَ خصوصًا أهلَ مَكَّةَ ـ يَعْرِفونَ نسبَهُ وشرفَهُ وصِدقَهُ وأمانتَهُ وعفَّتَهُ، وأنَّهُ نشَأ بينَهُم معروفًا بذلكَ كلِّهِ، وأنَّهُ لمْ يَكْذِبْ قطُّ، فكيفَ كانَ يَدَعُ الكذبَ على النَّاسِ ثمَّ يَفْتَري الكذبَ على اللهِ، هذا هوَ الباطلُ، ولذلكَ سألَ هِرَقْلُ عن هذهِ الأوصافِ، واستَدَلَّ بها على صدقِهِ فيما ادَّعاهُ مِنَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ.

وقولُهُ تعالَى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ يَعْني: يَتْلو عليهِمْ ما أنزَلَ اللهُ عليهِ مِن آياتِهِ المتلوَّةِ، وهو القرآنُ، وهوَ أعظمُ الكتبِ السَّماويَّةِ، وقد تَضمَّنَ مِنَ العلومِ والحكمِ والمواعظِ والقصصِ والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ وذكرِ أخبارِ مَن سَبَقَ وأخبارِ ما يَأتي مِن البعثِ والنُّشورِ والجنَّةِ والنَّارِ ما لمْ يَشْتَمِلْ عليهِ كتابٌ غيرُهُ، حتَّى قالَ بعضُ العلماءِ: لوْ أنَّ هذا الكتابَ وُجِدَ مكتوبًا في مصحفٍ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ ولمْ يُعْلَمْ مَنْ وَضَعَهُ هناكَ، لَشَهِدَتِ العقولُ السَّليمةُ أنَّهُ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ وأنَّ البشرَ لا قدرةَ لهُم على تأليفِ ذلكَ، فكيفَ إذا جاء على يدي أصدقِ الخلقِ وأبرِّهِم وأتقاهُم، وقالَ: إنَّهُ كلامُ اللهِ، وتَحَدَّى الخلقَ كلَّهُم أنْ يَأتُوا بسورةٍ مِن مثلِهِ فعجَزوا؟! فكيفَ يَبقى معَ هذا شكٌّ فيهِ؟!

ولهذا قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة: ٢]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فلو لمْ يَكُنْ لمُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ المعْجزاتِ الدَّالَّةِ على صدقِهِ غير هذا الكتابِ، لَكَفاهُ، فكيفَ ولهُ مِنَ المعجزاتِ الأرضيَّةِ والسَّماويَّةِ ما لا يُحْصى؟!

وقولُهُ تعالَى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ يَعْني: أنَّهُ يُزَكِّي قلوبَهُم ويُطَهِّرُها مِن أدناسِ

الشِّرْكِ والفجورِ والضَّلالِ، فإنَّ النُّفوسَ تَزْكو إذا طَهُرَتْ مِن ذلكَ كلِّهِ، ومَن زَكَتْ نفسُهُ، فقد أفْلَحَ، كما قالَ تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]، وقالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤].

وقولُهُ تَعالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ يعني: بالكتابِ: القرآنَ، والمرادُ تعليمُهُم تلاوةَ ألفاظِهِ. ويَعْني بالحكمةِ: فهمَ معاني القرآنِ والعملَ بما فيهِ. فالحكمةُ هيَ فهمُ القرآنِ والعملُ بهِ، فلا يُكْتَفى بتلاوةِ ألفاظِ الكتابِ حتَّى يُعْلَمَ معناهُ ويُعْمَلَ بمقتضاهُ، فمَن جُمِعَ له ذلك كلُّهُ، فقد أُوتِيَ الحكمةَ. قالَ تَعالَى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قالَ الفُضَيْلُ: العلماءُ كثيرٌ، والحكماءُ قليلٌ.

فالحكمةُ هيَ العلمُ النَّافعُ الذي يَتْبَعُهُ العملُ الصَّالحُ، وهيَ نورٌ يُقْذَفُ في القلبِ يُفْهَمُ بهِ معنى العلمِ المنزَّلِ مِنَ السَّماء، ويَحُضُّ على اتِّباعِهِ والعملِ بهِ.

ومَن قالَ: الحكمةُ السُّنَّةُ، فقولُهُ حقٌّ؛ لأنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ القرآنَ وتُبَيِّنُ معانيَهُ، وتَحُضُّ على اتِّباعِهِ والعملِ بهِ، فالحكيمُ هوَ العالمُ المستنبطُ لدقائقِ العلمِ المنتفعُ بعلمِهِ بالعملِ بهِ.

ولأبي العَتَاهيَةِ:

وَكَيْفَ تُحِبُّ أنْ تُدْعى حَكيمًا ... وَأَنْتَ لِكُلِّ ما تَهْوى رَكُوبُ
وَتَضْحَكُ دائِبًا ظَهْرًا لِبَطْنٍ ... وَتَذْكُرُ ما عَمِلْتَ فلا تَتُوبُ

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. إشارة إلى ما كانَ النَّاسُ عليهِ قبلَ إنزالِ هذا الكتابِ مِنَ الضَّلالِ، فإنَّ اللهَ نَظَرَ حينئذٍ إلى أهلِ الأرضِ فمَقَتَهُم، عربَهُم وعجمَهُم، إلَّا بقايا مِن أهلِ الكتابِ تَمَسَّكوا بدينِهِمُ الذي لمْ يُبَدَّلْ ولمْ يُغَيَّرْ وكانوا قليلًا جدًا. فأمَّا عامَّةُ أهلِ الكتابِ، فكانوا قد بَدَّلوا كتبَهُم وغَيَّروها وحَرَّفوها وأدْخَلوا في دينِهِم ما ليسَ منه فضَلُّوا

وأضَلُّوا. وأمَّا غيرُ أهلِ الكتابِ، فكانوا على ضلالٍ بيِّنٍ: فالأُمِّيُّونَ أهلُ شركٍ يَعْبُدونَ الأوثانَ، والمجوسُ يَعْبُدونَ النِّيرانَ ويَقولونَ بإلهينِ اثْنَيْنِ، وكذلك غيرُهُم مِن أهلِ الأرضِ منُهم مَن كانَ يعْبُدُ النُّجومَ، ومنهُم مَن كانَ يَعبُدُ الشَّمسَ أوِ القمَرَ.

فَهدى اللهُ المؤمنينَ بإرسالِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلى ما جاءَ بهِ مِنَ الهدى ودينِ الحقِّ، وأظهَرَ اللهُ دينَهُ حتَّى بَلَغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فظَهَرَتْ فيها كلمةُ التَّوحيدِ والعمل بالعدلِ بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ كُلُّها ممتلئةً مِن ظلمةِ الشِّركِ والظُّلمِ.

فالأُمِّيُّونَ همُ العربُ، والآخرونَ الذينَ لمْ يَلْحَقوا بهِم هُم أهلُ فارسَ والرُّومُ. فكانَتْ أهل فارسَ مجوسًا والرُّومُ نصارى، فهَدى اللهُ جميعَ هؤلاءِ برسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلى التَّوحيدِ.

وقد رُئِيَ الإمامُ أحْمَدُ بعدَ موتِهِ في المنامِ، فسُئِلَ عن حالِهِ، فقالَ: لولا هذا النَّبيُّ، لَكُنَّا مجوسًا. وهوَ كما قالَ؛ فإنَّ أهلَ العراقِ لولا رسالةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَكانوا مجوسًا، وأهلَ الشَّامِ ومِصْرَ والرُّومَ لولا مُحَمَّدٌ ﷺ لَكانوا نصارى، وأهلَ جزيرةِ العربِ لولا رسالةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لكانوا مشركينَ عُبَّادَ أوثانٍ. ولكنْ رَحِمَ اللهُ عبادَهُ بإرسالِ مُحَمَّدٍ ﷺ فأنْقَذَهُم مِنَ الضَّلالِ، كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ولهذا قالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ [الجمعة: ٤]. فمَنْ حَصَلَ لهُ نصيبٌ مِن دينِ الإسلامِ، فقد حَصَلَ لهُ الفضلُ العظيمُ، وقد عَظُمَتْ عليهِ نعمةُ اللهِ، فما أحْوَجَهُ إلى القيامِ بشكرِ هذهِ النِّعْمةِ وسؤالِهِ دوامَها والثَّباتَ عليها إلى المماتِ والموتَ عليها، فبذلكَ تَتِمُّ النِّعمةُ.

فإبراهيمُ عليه السلام هوَ إمامُ الحنفاءِ المأمورُ مُحَمَّدٌ ﷺ ومَنْ قبلَهُ مِنَ الأنبياءِ بالاقتداءِ بهِ، وهوَ الذي جَعَلَهُ اللهُ للنَّاسِ إمامًا. وقد دَعا هوَ وابنُهُ إسْماعيلُ

بأنْ يَبْعَثَ اللهُ في أهلِ مَكَّةَ رسولًا منهُم موصوفًا بهذهِ الأوصافِ، فاسْتَجَابَ اللهُ لهُما وجَعَلَ هذا النَّبيَّ المبعوثَ فيهِم مِن ولدِ إسْماعيلَ بنِ إبْراهيمَ كما دَعَيا بذلكَ، وهوَ النَّبيُّ الذي أظْهَرَ دينَ إبْراهيمَ الحنيفَ بعدَ اضمحلالِهِ وخفائِهِ على أهلِ الأرضِ. فلهذا كانَ أولى النَّاسِ بإبْراهيمَ: كما قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقالَ ﷺ: «**إنَّ لكلِّ نبيٍّ وليًا مِنَ النَّبيِّينَ وإنَّ وليي إبْراهيمُ (ثمَّ تَلا هذهِ الآيةَ)**»[١]. وكانَ ﷺ أشبهَ ولدِ إبْراهيمَ بهِ صورةً ومعنًى، حتَّى إنَّهُ أشبَهَهُ في خُلَّةِ اللهِ تَعالى، فقالَ: «**إنَّ الله اتَّخَذَني خليلًا كما اتَّخَذَ إبْراهيمَ خليلًا**»[٢].

الدليل الثاني من دلائل شرف قدر النبي وسبق ذِكره والتنويه باسمه قبل خروجه: بشارةُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهِ، وعيسى آخرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وقد قالَ تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

الدليل الثَّالثُ: رؤيا أُمِّهِ التي رَأتْ أنَّه خَرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لهُ قصورُ الشَّامِ، وذَكَرَ أنَّ أُمَّهاتِ النبيِّينَ كذلكَ يَرَيْنَ.

وقدْ رُوِيَ أنَّ آمِنَةَ بنتَ وَهْبٍ رأتْ في أوَّلِ حملِها بالنَّبيِّ ﷺ أنَّها بُشِّرَتْ بأنَّه يَخْرُجُ مِنها عندَ ولادتِها نورٌ تُضيء لهُ قصورُ الشَّامِ.

وخروجُ هذا النُّورِ عندَ وضعِهِ إشارةٌ إلى ما يَجيءُ بهِ مِن النُّورِ الذي اهْتَدى بهِ أهلُ الأرضِ وزالَ بهِ ظلمةُ الشِّركِ منها: كما قالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَهْلَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٠٠)، والترمذي (٢٩٩٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٠)، وقال الحاكم: حديث صحيح.
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).

ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقالَ تعالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي هذا المعنى يَقولُ العَبَّاسُ في أبياتِهِ المشهورةِ السَّائرةِ:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْـ ... أَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ

فَنَحْنُ في ذٰلِكَ الضِّياءِ وَفي الْـ ... نُّورِ وَسُبْلِ الرَّشادِ نَخْتَرِقُ

وأمّا إضاءَةُ قصورِ بُصْرى بالنُّورِ الذي خَرَجَ معَهُ، فهوَ إشارةٌ إلى ما خَصَّ الشَّامَ مِن نورِ نبوَّتِهِ، فإنَّها دارُ ملكِهِ ـ كما ذَكَرَ كَعْبٌ أنَّ في الكتبِ السَّابقةِ: مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ، مولدُهُ بمكَّةَ، ومهاجَرُهُ يَثْرِبُ، وملكُهُ بالشَّامِ ـ، فمِن مكَّةَ بُدِئَتْ نبوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وإلى الشَّامِ يَنْتَهِي ملكُهُ. ولهذا أُسْرِيَ بهِ ﷺ إلى الشَّامِ إلى بيتِ المقدِسِ كما هاجَرَ إبراهيمُ مِن قبلِهِ إلى الشَّامِ.

وفي آخرِ الزَّمانِ يَسْتَقِرُّ العلمُ والإيمانُ بالشَّامِ، فيَكونُ نورُ النُّبوَّةِ فيها أظهرَ منهُ في سائرِ بلادِ الإسلامِ.

وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ مِن حديثِ عَمْرو بنِ العاصِ وأبي الدَّرْداءِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**رَأَيْتُ عمودَ الكتابِ انْتُزِعَ مِن تحتِ وسادتي، فأتْبَعْتُهُ بصري، فإذا هوَ عمودٌ ساطعٌ عُمِدَ بهِ إلى الشَّامِ. ألا وإنَّ الإيمانَ إذا وَقَعَتِ الفتنُ بالشَّامِ**»[1].

وبالشَّامِ يَنْزِلُ عيسى بنُ مَرْيَمَ عليه السلام في آخرِ الزَّمانِ، وهوَ المبشِّرُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٧٥)، قال المنذري: رواته رواة الصحيح. وبُصرى: بلدة بالشام.

بمُحَمَّدٍ ﷺ، فيُقَرِّرُ عندَ نزولِهِ دينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ويَحْكُمُ بهِ، ولا يَقْبَلُ مِن أحدٍ دينًا غيرَ دينِهِ، فيَكْسِرُ الصَّليبَ، ويَقْتُلُ الخنزيرَ، ويَضَعُ الجزيةَ، ويُصَلِّي خلفَ إمامِ المسلمينَ، ويَقولُ: إنَّ هذهِ الأُمَّةَ أئمَّةٌ بعضُهُم لبعضٍ، إشارةً إلى أنَّه متَّبعٌ لدينِهِم غيرُ ناسخٍ لهُ.

والشَّامُ هيَ في آخرِ الزَّمانِ أرضُ المحشرِ والمنشرِ، فيُحْشَرُ النَّاسُ إليها قبلَ القيامةِ مِن أقطارِ الأرضِ، فيُهاجِرُ خيارُ أهلِ الأرضِ إلى مهاجَرِ إبراهيمَ - وهيَ أرضُ الشَّامِ - طوعًا، كما تَقَدَّمَ أنَّ خيارَ أهلِ الأرضِ ألزمُهُم مهاجَرَ إبْراهيمَ.

وقد ثَبَتَ في الصَّحيحينِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّهُ قالَ: «**لا تَقومُ السَّاعةُ حتَّى تَخْرُجَ نارٌ مِن أرضِ الحجازِ فتُضيءَ لها أعناقُ الإبلِ ببُصْرى**»[1]. وقد خَرَجَتْ هذهِ النَّارُ بالحجازِ بقربِ المدينةِ، ورُئِيَتْ أعناقُ الإبلِ مِنْ ضوئِها بِبُصْرى في سنة أربعٍ وخمسينَ وستِّ مئةٍ، وعَقِيبَهُما جَرَتْ واقعةٌ ببَغْدادَ وقُتِلَ بها الخليفةُ وعامَّةُ مَن كان بِبغدادَ، وتكاملَ خرابُ أرضِ العراقِ على أيدي التَّتارِ، وهاجَرَ خيارُ أهلِها إلى الشَّامِ من حينئذٍ.

فأمَّا شرارُ النَّاسِ، فتَخْرُجُ نارٌ في آخرِ الزَّمانِ تَسوقُهُمْ إلى الشَّامِ قهرًا حتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ كلُّهُم بالشَّامِ قبلَ قيامِ السَّاعةِ.

إخواني! مَن كانَ مِن هذهِ الأُمَّةِ، فهوَ مِن خيرِ الأُمَمِ عندَ اللهِ. قال تعالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أنتُم تُوفُونَ سبعينَ أُمَّةً، أنتُم خيرُها وأكرمُها على اللهِ تعالَى**»[2].

لمَّا كانَ هذا الرَّسولُ النَّبيُّ الأُمِّيّ خيرَ الخلقِ وأفضلَهُم عندَ اللهِ سبحانَهُ، كانتْ أُمَّتُهُ خيرَ أُمَّةٍ وأفضلَها، فما يَحْسُنُ بمَن كانَ مِن خيرِ الأُممِ وانْتَسَبَ إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠١١)، والترمذي (٣٠٠١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

متابعةِ خيرِ الخلقِ وأفضلِهم ـ وخصوصًا مَن كانَ يَسْكُنُ خيرَ منازلِ المسلمينَ في آخرِ الزَّمانِ ـ إلَّا أن يَكونَ متَّصفًا بصفاتِ الخير مجتنبًا لصفاتِ الشَّرِّ، وقبيحٌ بهِ أنْ يَرْضى لنفسِهِ أنْ يَكونَ مِن شرارِ النَّاس معَ انتسابِهِ إلى خيرِ الأُمَمِ ومتابعةِ خيرِ الرُّسلِ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البيِّنة: ٧]. فخيرُ النَّاسِ مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا.

وقالَ تَعالَى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**النَّاسُ معادنُ، فخيارُهُم في الجاهليَّةِ خيارُهُم في الإسلامِ إذا فَقُهوا**»(١).

وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**خيرُ النَّاسِ مَن طالَ عمرُهُ وحَسُنَ عملُهُ، وشرُّ النَّاسِ مَن طالَ عمرُهُ وساءَ عملُهُ**»(٢).

وقالَ: «**خيرُكُمْ مَن يُرْجى خيرُهُ ويُؤْمَنُ شرُّهُ، وشرُّكُمْ مَن لا يُرجَى خيرُهُ ولا يُؤمَنُ شرُّهُ**»(٣).

وقالَ: «**شرُّ النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ مَن تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقاء فحشِهِ**»(٤).

وقالَ: «**إنَّ مِن شرِّ النَّاسِ يومَ القيامةِ منزلةً عندَ اللهِ ذا الوجهينِ، الذي يَأْتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ**»(٥).

لمَّا وَقَفَ ﷺ عامَ حجَّةِ الوداعِ، قالَ: «**إنِّي فَرَطُكُم على الحوضِ، وإنِّي**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٢)، ومسلم (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٠٤)، والترمذي (٢٣٣٠)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٣) أخرجه أحمد (٨٨١٢)، والترمذي (٢٢٦٣)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).
(٥) أخرجه البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦).

مُكاثرٌ بكُمُ الأُمَمَ، فلا تُسَوِّدوا وجهي». يُشيرُ إلى أنَّه ﷺ يَسْتَحْيي مِن سيِّئاتِ أُمَّتِهِ إذا عُرِضَتْ عليهِ(١).

خيرُ هذهِ الأُمَّةِ أوَّلُها قرنًا: كما قالَ ﷺ: **«خيرُ القرونِ قرني، ثمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثمَّ الذينَ يَلونَهُم»**(٢).

كم قدْ جاءَ مدحُ أصحابِهِ في كتابِهِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]. وخَصَّ الصِّدِّيقَ مِن بينِهِم بالصُّحبةِ بقولِهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

لمَّا جَلى الرَّسولُ ﷺ عروسَ الإسلامِ وأبرزَها للبصائرِ مِن خدرِها، أخْرَجَ أبو بَكْرٍ مالَهُ كلَّهُ نثارًا لهذِهِ العروسِ، فأخْرَجَ عُمَرُ النِّصْفَ موافقةً لهُ، فقامَ عُثْمانُ بوليمةِ العرسِ فجهَّزَ جيشَ العسرةِ، فَعَلِمَ عليٌّ رضي الله عنه أنَّ الدُّنيا ضرَّةُ هذهِ العروسِ وأنَّهُما لا يَجْتَمِعانِ فبَتَّ طلاقَها ثلاثًا.

فالحمدُ للهِ الذي خَصَّنا بهذِهِ الرَّحمةِ، وأسْبَغَ علينا هذهِ النِّعمة، وأعْطانا هذهِ الفضائلَ الجمَّة، فقالَ لنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أينَ في الأُممِ مثلُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق، أو عُمَرَ الذي ما سَلَكَ طريقًا إلَّا هَرَبَ الشَّيطانُ مِن ذلكَ الطَّريق، أو عُثْمانَ الصَّابرِ على مُرِّ الضِّيق، أو عَلِيٍّ بحرِ العلمِ العميق، أو حَمْزَةَ والعَبَّاس؟! ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أفيهِم مثلُ طلحةَ والزُّبَيْرِ القرينين، أو مثلُ سَعْدٍ وسَعيدٍ؟! هيهاتَ! مِن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٩٧)، وابن ماجه (٣٠٥٧)، قال البوصيري: إسناده صحيح. وصححه الشيخ الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

أين؟ أو مثلُ ابنِ عَوْفٍ وأبي عُبَيْدَةَ؟ ومَن مثلُ الاثنين؟ إن شَبَّهْتُم بهِم، فقد أبْعَدْتُمُ القياس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

مِن أينَ في زُهَّادِ الأُممِ مثلُ أُوَيْس، أو في عبَّادِهِم مثلُ عامِرِ بنِ عَبْدِ قَيْس، أو في خائِفيهِمْ مثلُ عُمَرَ بن عَبْدِ العَزيزِ؟! هيهاتَ! ليسَ ضوءُ الشَّمسِ كالمقباس! ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أفي علمائِهِم مثلُ أبي حَنيفَةَ ومالِك، والشَّافِعِيِّ السَّديدِ المسالِك، كيفَ تَمْدَحُهُ وهوَ أجلُّ مِن ذلك؟ ما أحْسَنَ بنيانَهُ والأساس! ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أفيهِم أعلى مِن الحَسَنِ البَصْرِيِّ وأنبل، أو ابنِ سِيرينَ الذي بالورَعِ تَقَبَّل، أو سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ الذي بالخوفِ والعلمِ تَسَرْبَل، أو مثلُ أحْمَدَ الذي بَذَلَ نفسَهُ للهِ وسَبَّل، تاللهِ ما في الأُممِ مثلُ ابنِ حَنْبَل، ارْفَعْ صوتَكَ بهذا ولا باس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لاحَ شَيْبُ الرَّأْسِ مِنِّي وَنَصَحْ ... بَعْدَ لَهْوٍ وَشَبابٍ وَمَرَحْ
إخْوَتي توبوا إلى اللَّهِ بِنا ... قدْ لَهَوْنَا وَجَهِلْنا ما صَلَحْ
نَحْنُ في دارٍ نَرى المَوْتَ بِها ... لَمْ يَدَعْ فيها لِذي اللُّبِّ فَرَحْ
يا بَني آدَمَ صونوا دينَكُمْ ... يَنْبَغي لِلدِّينِ ألَّا يُطَّرَحْ
وَاحْمَدوا اللَّهَ الَّذي أكْرَمَكُمْ ... بِنَبِيٍّ قامَ فيكُمْ وَنَصَحْ
بِنَبِيٍّ فَتَحَ اللَّهُ بِهِ ... كُلَّ خَيْرٍ نِلْتُموهُ ومَنَحْ
مُرْسَلٌ لَوْ يوزَنُ النَّاسُ بِهِ ... فِي التُّقَى وَالبِرِّ خَفُّوا وَرَجَحْ
فَرَسولُ اللَّهِ أوْلى بِالعُلى ... وَرَسولُ اللَّهِ أوْلى بِالمِدَحْ

❁ ❁ ❁



المجلس الثاني

في ذكر المولد أيضًا

خَرَّجَ مُسْلِمٌ مِن حديثِ أبي قَتَادَةَ الأنصارِيِّ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عن صيامِ يومِ الاثنينِ، فقالَ: «**ذلكَ يومٌ وُلِدْتُ فيهِ، وأُنْزِلَتْ عليَّ فيهِ النُّبُوَّةُ**»(١).

أمَّا ولادةُ النَّبيِّ ﷺ يومَ الاثنينِ، فكالمُجمَعِ عليهِ بينَ العلماءِ، وقد قالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ وغيرُهُ. وقد حُكِيَ عن بعضِهِم أنَّه ﷺ وُلِدَ يومَ الجمعةِ، وهوَ قولٌ ساقِطٌ مردودٌ.

وأمَّا شهرُ ولادَتِهِ، فقدِ اختُلِفَ فيهِ:

فقيلَ: في شهرِ رمضانَ. رُوِيَ ذلك عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو بإسنادٍ لا يَصِحُّ.

وقيلَ: في رجبٍ. ولا يَصِحُّ.

وقيلَ: في ربيعٍ الأوَّلِ. وهوَ المشهورُ بينَ النَّاسِ، حتَّى نَقَلَ ابنُ الجَوْزِيِّ وغيرُهُ عليهِ الاتِّفاقَ، ولكنَّهُ قولُ جمهورِ العلماءِ.

ثمَّ اختَلَفوا في أيِّ يومٍ كانَ مِنَ الشَّهرِ: فمنهُم مَن قالَ: هوَ غيرُ معيَّنٍ، وإنَّما وُلِدَ في يومِ الاثنينِ مِن ربيعٍ الأوَّلِ مِن غيرِ تعيينٍ لعدَدِ ذلكَ اليومِ مِنَ الشَّهرِ. والجمهورُ على أنَّهُ يومٌ معيَّنٌ منهُ. ثمَّ اخْتَلَفوا: فقيلَ: لليلتينِ خَلَتا منهُ، وقيلَ: لثمانٍ خَلَتْ منهُ، وقيلَ: لعشرٍ، وقيلَ: لاثنتي عشرةَ، وقيلَ: لسبعَ عشرةَ، وقيلَ: لثماني عشرةَ، وقيلَ: لثمانٍ بقينَ منه، والمشهورُ الذي عليهِ الجمهورُ أنَّهُ وُلِدَ يومَ الاثنينِ ثاني عشرَ ربيعٍ الأوَّلِ، وهوَ قولُ ابنِ إسْحاقَ وغيرِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢).

وأمَّا عامُ ولادتِهِ ﷺ، فالأكثرونَ على أنَّهُ عامُ الفيلِ.

والمشهورُ أنَّهُ ﷺ وُلِدَ بعدَ الفيلِ بخمسينَ يومًا. وقيلَ: بعدَهُ بخمسٍ وخمسينَ يومًا. وقيلَ: بشهرٍ. وقيلَ: بأربعينَ يومًا.

قالَ إبراهيمُ بنُ المُنْذِرِ الحِزامِيُّ: الذي لا يَشُكُّ فيهِ أحدٌ مِن علمائِنا أنَّهُ عليه السلام وُلِدَ عامَ الفيلِ.

وقالَ خليفَةُ بنُ خَيَّاطٍ: هذا هوَ المجمَعُ عليهِ.

وكانَتْ قصَّةُ الفيلِ توطئةً لنبوَّتِهِ وتقدمةً لظهورِهِ وبعثتِهِ ﷺ. وقد قَصَّ اللهُ تعالى ذلكَ في كتابِهِ فقالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ ـ ٥]: فقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ استفهامُ تقريرٍ لمَن سَمِعَ هذا الخطابَ، وهذا يَدُلُّ على اشتهار ذلكَ بينَهُم ومعرفتِهِم بهِ وأنَّهُ ممَّا لا يَخْفى علمُهُ عنِ العربِ خصوصًا قُرَيْشٌ وأهلُ مَكَّةَ. وهذا أمرٌ اشْتَهَرَ بينَهُم وتَعارَفوهُ وقالوا فيهِ الأشعارَ السَّائرةَ. وقدْ قالَتْ عائِشَةُ: رأيْتُ قائدَ الفيلِ وسائسَهُ بمَكَّةَ أعْمَيَيْنِ يَسْتَطْعِمانِ.

وفي هذهِ القصّةِ ما يَدُلُّ على تعظيمِ مَكَّةَ واحترامِها واحترامِ بيتِ اللهِ الذي فيها.

وولادةُ النَّبيِّ ﷺ عَقيبَ ذلكَ تَدُلُّ على نبوَّتِهِ ورسالتِهِ، فإنَّهُ ﷺ بُعِثَ بتعظيمِ هذا البيتِ وحجِّهِ والصَّلاةِ إليهِ، وكانَ هذا البلدُ هوَ موطنَهُ ومولدَهُ، فاضْطَرَّهُ قومُهُ عندَ دعوتِهِم إلى اللهِ إلى الخروجِ منهُ كرهًا بما نالوهُ منهُ مِنَ الأذى، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالَى ظَفَّرَهُ بهِم وأدْخَلَهُ عليهِم قهرًا، فمَلَكَ البلدَ عنوةً ومَلَكَ رقابَ أهلِهِ، ثمَّ مَنَّ عليهِم وأطْلَقَهُم وعَفا عنهُم، فكانَ في تسليطِ نبيِّهِ ﷺ على هذا البلدِ وتمليكِهِ إيَّاهُ ولأُمَّتِهِ مِن بعدِهِ ما دَلَّ على صحَّةِ نبوَّتِهِ، فإنَّ اللهَ حَبَسَ عنهُ مَن يُريدُهُ بالأذى وأهْلَكَهُ، ثمَّ سَلَّطَ عليهِ رسولَهُ وأُمَّتَه، كما قالَ ﷺ:

«إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مَكَّةَ الفيلَ وسَلَّطَ عليها رسولَهُ والمؤمنينَ»[١]. فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وأُمَّتَهُ إنَّما قصدُهُم تعظيمُ البيتِ وتكريمُهُ واحترامُهُ. ولهذا أنْكَرَ النَّبيُّ ﷺ يومَ الفَتْحِ على مَن قالَ: اليومَ تُسْتَحَلُّ الكعبةُ، وقالَ: «**اليومَ تُعَظَّمُ الكعبةُ**»[٢].

وقدْ كانَ أهلُ الجاهليَّةِ غَيَّروا دينَ إبْراهيمَ وإسماعيلَ بما ابْتَدَعوهُ مِنَ الشِّركِ وتغييرِ بعضِ مناسِكِ الحجِّ، فسَلَّطَ اللهُ رسولَهُ وأُمَّتَهُ على مَكَّةَ فطَهَّروها مِن ذلكَ كلِّهِ ورَدُّوا الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، وهوَ الذي دَعا لهُم معَ ابنِهِ إسماعيلَ عندَ بناءِ البيتِ أن يَبْعَثَ اللهُ فيهِم رسولًا منهُم يتْلُو عليهِم آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ، فبَعَثَ اللهُ فيهِم مُحَمَّدًا ﷺ مِن ولدِ إسماعيلَ بهذِهِ الصِّفَةِ، فَطَهَّرَ البيتَ وما حَوْلَهُ مِنَ الشِّركِ، ورَدَّ الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ والتَّوحيدِ الذي لأجلِهِ بُنِيَ البيتُ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

وأمَّا تسليطُ القَرامِطَةِ على البيتِ بعدَ ذلكَ؛ فإنَّما كانَ عقوبةً بسببِ ذنوبِ النَّاسِ، ولَمْ يَصِلوا إلى هدمِهِ ونقضِهِ ومنعِ النَّاسِ مِن حَجِّهِ وزيارتِهِ كما كان يَفْعَلُ أصحابُ الفيلِ لوْ قدَروا على هدمِهِ وصرفِ النَّاسِ عن حجِّهِ. والقَرامِطَةُ أخَذوا الحجرَ والبابَ[٣] وقَتَلوا الحاجَّ وسَلَبوهُم أموالَهُم، ولَمْ يَتَمَكَّنوا مِن منعِ النَّاسِ مِن حجِّهِ بالكلِّيَّةِ ولا قَدَروا على هدمِهِ بالكلِّيَّةِ كما كانَ أصحابُ الفيلِ يقْصِدونَهُ، ثمَّ أذَلَّهُمُ اللهُ بعدَ ذلكَ وخَذَلَهُم وهَتَكَ أستارَهُم وكَشَفَ أسرارَهُم، والبيتُ المعظَّمُ باقٍ على حالِهِ مِن التَّعظيمِ والزِّيارةِ والحجِّ والاعتمارِ والصَّلاةِ

(١) أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨٠) عن عروة بن الزبير.
(٣) كان ذلك عام ٣١٧هـ، ومكث الحجر الأسود عند القرامطة ٢٢ سنة ثم أُعيد بحمد الله.

إليهِ، لَمْ يَبْطُلْ شيءٌ مِن ذلكَ عنهُ بحمدِ اللهِ ومنِّهِ، وغايةُ أمرِهِم أنَّهُم أخافوا حاجَّ العراقِ حتَّى انقَطَعوا بعضَ السِّنينَ ثمَّ عادوا.

ولَمْ يَزَلِ اللهُ تَعالى يَمْتَحِنُ عبادَهُ المؤْمنينَ بما يَشاءُ مِنَ المِحَنِ، ولكنَّ دينَهُ قائمٌ محفوظٌ لا يَزالُ تقومُ بِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَضُرَّهُم مَن خَذَلَهُم حتَّى يَأتِيَ أمرُ اللهِ وهُم على ذلكَ، كما قالَ تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقدْ أخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا البيتَ يُحَجُّ ويُعْتَمَرُ بعدَ خروجِ يَأجوجَ ومأجوجَ ولا يَزالُ كذلكَ حتَّى تُخَرِّبَهُ الحبشةُ ويُلقوا حجارتَهُ في البحرِ، وذلكَ بعدَ أنْ يَبْعَثَ اللهُ ريحًا طيِّبةً تَقْبِضُ أرواحَ المؤمنينَ كلِّهِم فلا يَبْقى في الأرضِ مؤمنٌ، ويُسْرَى بالقرآنِ مِنَ الصُّدورِ والمصاحفِ فلا يَبْقى في الأرضِ قرآنٌ ولا إيمانٌ ولا شيءٌ مِنَ الخيرِ، فبعدَ ذلكَ تقومُ السَّاعةُ، ولا تَقومُ إلَّا على شرارِ النَّاس.

وفي قولِ النَّبيِّ ﷺ لمَّا سُئِلَ عن صيامِ يوم الاثنينِ «**ذاكَ يومٌ وُلِدْتُ فيهِ وأُنْزِلَتْ عليَّ فيهِ النُّبوَّةُ**» إشارةٌ إلى استحبابِ صيامِ الأيامِ التي تَتَجَدَّدُ فيها نعمُ اللهِ تعالَى على عبادِهِ. فإنَّ أعظمَ نعمِ اللهِ على هذه الأُمَّةِ إظهارُ مُحَمَّدٍ ﷺ لهُم وبعثُهُ وإرسالُهُ إليهِم، كما قالَ تعالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فإنَّ النِّعمةَ على الأُمَّةِ بإرسالِهِ أعظمُ مِنَ النِّعمةِ عليهِم بإيجادِ السَّماءِ والأرضِ والشَّمسِ والقمرِ واللَّيلِ والنَّهارِ والرِّياحِ، وإنزالِ المطرِ وإخراجِ النَّباتِ وغيرِ ذلكَ، فإنَّ هذهِ النِّعمةَ كلَّها قدْ عَمَّتْ خلقًا مِن بني آدَمَ كَفَروا باللهِ وبرسلِهِ وبلقائِهِ فبدلوا نعمة الله كفرًا، وأما النعمة بإرسال مُحَمَّد ﷺ فقد تمَّت بها مصالح الدنيا والآخرةِ، وكَمَلَ بسببِها

دينُ اللهِ الذي رَضِيَهُ لعبادِهِ، وكانَ قبولُهُ سببَ سعادتِهِم في دنياهُم وآخرتِهِم. فصيامُ يومٍ تَجَدَّدَتْ فيهِ هذهِ النِّعمُ مِنَ اللهِ على عبادِهِ المؤمنينَ حسنٌ جميلٌ، وهوَ مِن بابِ مقابلةِ النِّعمِ في أوقاتِ تجدُّدِها بالشُّكرِ.

ونظيرُ هذا صيامُ يومِ عاشوراءَ حيثُ أنْجى اللهُ فيه نوحًا مِنَ الغرقِ ونَجَّى فيهِ موسى وقومَهُ مِنْ فِرْعَونَ وجنودِهِ وأغرَقَهُم في اليمِّ، فصامَهُ نوحٌ وموسى عليهما السلام شكرًا، وصامَهُ رسولُ اللهِ ﷺ متابعةً لأنبياءِ اللهِ، وقالَ لليهودِ: «**نحنُ أحقُّ بموسى منكُم**»[١]، فصامَهُ وأمَرَ بصيامِهِ.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعًا: «**تُفْتَحُ أبوابُ الجنَّةِ يومَ الاثنينِ والخميسِ، فيُغْفَرُ لكلِّ عبدٍ لا يُشْرِكُ باللهِ شيئًا، إلا رجلًا كانت بينَهُ وبينَ أخيهِ شحناءُ، فيُقالُ: أنظِروا هذينِ حتَّى يَصْطَلِحا**»[٢].

كانَ بعضُ السَّلفِ يَبْكي إلى امرأتِهِ يومَ الخميسِ وتَبْكي إليه ويَقولُ: اليومَ تُعْرَضُ أعمالُنا على اللهِ عز وجل.

يا مَنْ يُبَهْرِجُ بعملِه! على مَن تُبَهْرِجُ والنَّاقدُ بَصيرٌ؟! يا مَن يُسَوِّفُ بطولِ أملِه! إلى كمْ تُسَوِّفُ والعمرُ قصيرٌ؟!

صُروفُ الحَتْفِ مُتْرَعَةُ الكؤوسِ ... تُدَارُ عَلى الرَّعايا والرُّؤوسِ
فَلا تَتْبَعْ هَواكَ فَكُلُّ شَخْصٍ ... يَصِيرُ إلى بِلَى وَإلى دُروسِ
وَخَفْ مِنْ هَوْلِ يَوْمٍ قَمْطَريرٍ ... مَخوفٍ شَرُّهُ ضَنْكٍ عَبوسِ
فَما لَكَ غَيْرُ تَقْوى اللَّهِ زادًا ... وَفِعْلِكَ حينَ تُقْبَرُ مِن أنيسِ
فَحَسِّنْهُ لِيُعْرَضَ مُسْتَقيمًا ... فَفي الاثْنَيْنِ يُعْرَضُ وَالخَميسِ

المجلس الثالث في ذكر وفاةِ رسول الله ﷺ

خَرَّجا في الصَّحيحينِ مِن حديثِ أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ

---

(١) تقدَّم تخريجه. (٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

جَلَسَ على المنبرِ، فقالَ: «**إنَّ عبدًا خَيَّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يُؤتِيَهُ مِنْ زهرةِ الدُّنيا ما شاءَ وبينَ ما عندَهُ فاخْتارَ ما عندَهُ**». فبَكى أبو بَكرٍ وقالَ: يا رسولَ اللهِ! فَدَيْناكَ بآبائِنا وأُمَّهاتِنا. قال: فعَجِبْنا، وقالَ النَّاسُ: انْظُروا إلى هذا الشَّيْخِ! يُخْبِرُ رسولُ اللهِ ﷺ عن عبدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يُؤتِيَهُ مِن زهرةِ الدُّنيا ما شاءَ وبينَ ما عندَ اللهِ، وهوَ يَقولُ: فَدَيْناكَ بآبائِنا وأُمَّهاتِنا! قالَ: فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ هوَ المخيَّرَ، وكانَ أبو بَكْرٍ هوَ أعْلَمَنا بِهِ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ أمنَّ النَّاسِ عليَّ في صحبتِهِ ومالِهِ أبو بكرٍ، ولوْ كُنْتُ متَّخذًا مِن أهلِ الأرضِ خليلًا لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكنْ أُخوَّةُ الإسلامِ، لا تَبْقى في المسجدِ خَوخةٌ**[١] **إلَّا سُدَّتْ إلَّا خَوخةُ أبي بكرٍ**»[٢]، رضي الله عنه.

اعْلَمْ أنَ الموتَ مكتوبٌ على كلِّ حيٍّ مِنَ الأنبياءِ والرُّسلِ وغيرِهِم. قالَ تَعالى لنبيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزُّمَر: ٣٠]. وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥]. وقالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝١٤٥﴾ [آل عمران: ١٤٤، ١٤٥].

خَلَقَ اللهُ آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، ونَفَخَ فيهِ مِن روحِهِ، فكانَتْ روحُهُ في جسدِهِ وأرواحُ ذرِّيَّتِهِ في أجسادِهِم في هذهِ الدَّارِ عاريَّةً[٣]، وقَضى عليهِ وعلى

---

(١) الخوخة: الواحدة من الخوخ، وهي أبواب صغيرة كانت تصل بيوت بعض الصحابة بالمسجد، فأمر النَّبيّ ﷺ بسدِّ كل تلك الخوخ إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه تمييزًا له وإكرامًا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) العاريَّة هي ما تعطيه غيرك على أن يردَّه عليك.

ذرِّيَّتِهِ أنَّهُ لابدَّ أنْ يَسْتَرِدَّ أرواحَهُمْ مِن هذهِ الأجسادِ ويُعيد أجسادَهُم إلى ما خُلِقَتْ منهُ ـ وهوَ التُّرابُ ـ، ووَعَدَ أنْ يُعيدَ الأجسادَ مرَّةً ثانيةً ثمَّ يَرُدّ إليها الأرواحَ مرَّةً ثانيةً تمليكًا دائمًا لا رجعةَ فيهِ في دارِ البقاءِ. قالَ تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]. وقالَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]. وقالَ: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. وأرانا دليلًا في هذهِ الدَّارِ على إعادةِ الأجسادِ مِن التُّرابِ بإنباتِ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ وإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها بالمطرِ، ودليلًا على إعادةِ الأرواحِ إلى أجسادِها بعدَ المفارقةِ بقبضِ أرواحِ العبادِ في منامِهِم وردِّها إليهِم في يقظتِهِم، كما قالَ تعالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

اسْتَعِدِّي لِلمَوْتِ يا نَفْسُ وَاسْعَيْ ... لِنَجَاةٍ فالحازِمُ المُسْتَعِدُّ
قَدْ تَيَقَّنْتِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَيْـ ... ـيِ خُلودٌ وَلا مِنَ المَوْتِ بُدُّ
إنَّما أنْتِ مُسْتَعيرَةٌ ما سَوْ ... فَ تَرُدِّينَ وَالعَواري تُرَدُّ

غيرُهُ:

فَما أهْلُ الحَياةِ لَنا بِأهْلٍ ... وَلا دارُ الحَياةِ لَنا بِدارِ
وَمَا أمْوالُنا وَالأهْلُ فيها ... وَلا أوْلادُنا إلَّا عَوارِي
وَأنْفُسُنا إلى أجَلٍ قريبٍ ... سَيَأخُذُها المُعيرُ مِنَ المُعارِ

مفارقةُ الجسدِ للرُّوحِ لا تَقَعُ إلَّا بعدَ ألمٍ عظيمٍ تَذوقُهُ الرُّوحُ والجسدُ جميعًا.

فإنَّ الرُّوحَ قدْ تَعَلَّقَتْ بهذا الجسَدِ وألِفَتْهُ واشْتَدَّتْ أُلفَتُها لهُ وامتزاجُها بِهِ ودخولُها فيهِ حتَّى صارا كالشَّيءِ الواحدِ فلا يَتَفارقانِ إلَّا بجهدٍ شديدٍ وألمٍ

عظيمٍ لَمْ يَذُقِ ابنُ آدَمَ في حياتِهِ ألمًا مثلَهُ. وإلى ذلكَ الإشارةُ بقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. قالَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ: أكْثِروا مِنْ ذكرِ هذا الموتِ، فإنَّكُم لَمْ تَذوقوا قبلَهُ مثلَهُ.

ويَتَزايَدُ الألمُ بمعرفةِ المحتضرِ بأنَّ جسدَهُ إذا فارَقَتْهُ الرُّوحُ لا تَدْري أينَ مُستقرُّها، هلْ هوَ الجنَّةُ أوِ النَّارُ؟ فإنْ كانَ عاصيًا مصرًا على المعصيةِ إلى الموتِ، فربَّما غَلَبَ على ظنِّهِ أنَّ روحَهُ تَصيرُ إلى النَّارِ، فتَتَضاعَفُ بذلكَ حسرتُهُ وألمُهُ، وربَّما كُشِفَ لهُ معَ ذلكَ عن مقعدِهِ مِن النَّارِ فيَراهُ أو يُبَشَّرُ بذلكَ، فيَجْتَمِعُ لهُ معَ كربِ الموتِ وألمِهِ العظيمِ معرفتُهُ بسوءِ مصيرِهِ، وهذا هوَ المرادُ بقولِهِ ﷻ ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: ٢٩] على ما فسَّرَه بهِ كثيرٌ مِنَ السَّلفِ، فيجْتَمِعُ عليهِ سكرةُ الموتِ معَ حسرةِ الفوتِ، فلا تَسْأَلْ عن سوءِ حالِهِ.

وقدْ سَمَّى اللهُ تَعالَى ذلكَ سكرةً؛ لأنَّ ألَمَ الموتِ معَ ما يَنْضَم إليه يُسْكِرُ صاحبَهُ فيَغيبُ عقلُهُ غالبًا، قالَ تَعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

ألا لِلْمَوْتِ كَأسٌ أيُّ كَاسِ وَأنْتَ لِكَأسِهِ لا بُدَّ حاسِي

إلى كَمْ وَالمَماتُ إلى قَريبٍ تُذَكَّرُ بِالمَعادِ وَأنْتَ ناسِي

وقدْ أمَرَ النَّبيُّ ﷺ بكثرةِ ذكرِ الموتِ:

فقالَ: «**أكْثِروا ذكرَ هاذِمِ اللذَّاتِ، الموتِ**»[1].

وَفِي الإكْثارِ مِن ذكرِ الموتِ فوائدُ منها: أنَّهُ يَحُثُّ على الاستعدادِ لهُ قَبلَ نزولِهِ، ويُقَصِّرُ الأملَ، ويُرَضي بالقليلِ مِنَ الرِّزقِ، ويُزَهِّدُ في الدُّنيا، ويُرَغِّبُ في الآخرةِ، ويُهَوِّنُ مصائبَ الدُّنيا، ويَمْنَعُ مِنَ الأشرِ والبطرِ والتَّوسُّعِ في لذَّاتِ الدُّنيا.

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (١٨٢٤).

قالَ الحَسَنُ: إنَّ هذا الموتَ قد أفسَدَ على أهلِ النَّعِيمِ نعيمَهُم، فالتَمِسوا عيشًا لا موتَ فيهِ[١].

وقالَ: فَضَحَ الموتُ الدُّنيا فلمْ يَدَعْ لذي لبٍّ بها فرحًا.

وقالَ غيرُهُ: ذهَبَ ذكرُ الموتِ بلذاذةِ كلِّ عيشٍ، وبسرورِ كلِّ نعيمٍ. ثمَّ بَكى وقالَ: واهًا لدارٍ لا موتَ فيها.

اذْكُرِ المَوْتَ هادِمَ اللَّذَّاتِ ... وَتَهَيَّأْ لِمَصْرَعٍ سَوْفَ ياتِي
يا غافِلَ القَلْبِ عَنْ ذِكْرِ المَنِيَّاتِ ... عَمَّا قَليلٍ سَتُلْقى بَيْنَ أمْواتِ
فَاذْكُرْ مَحَلَّكَ مِنْ قَبْلِ الحُلولِ بِهِ ... وَتُبْ إلى اللَّهِ مِنْ لَهْوٍ وَلَذَّاتِ
إنَّ الحِمامَ[٢] لهُ وَقْتٌ إلى أجَلٍ ... فَاذْكُرْ مَصائِبَ أيَّام وساعاتِ
لا تَطْمَئِنَّ إلى الدُّنْيا وَزينَتِها ... قَدْ آنَ لِلْمَوْتِ يا ذا اللُّبِّ أنْ ياتِي

قالَ بعضُ السَّلفِ: شيئانِ قطعا عنِّي لذاذَةَ الدُّنيا: ذكرُ الموتِ، والوقوفُ بينَ يديِ اللهِ ﷻ.

وَكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَنْ كانَ موقِنًا ... بِأنَّ المَنايا بَغْتَةً سَتُعاجِلُهْ
وَكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَن كانَ موقِنًا ... بِأنَّ إلهَ العَرْشِ لا بُدَّ سائِلُهْ

قالَ أبو الدَّرْداءِ: كَفى بالموتِ واعظًا، وكَفى بالدَّهرِ مفرِّقًا، اليومَ في الدُّورِ وغدًا في القبورِ.

اذْكُرِ المَوْتَ وَلازِمْ ذِكْرَهُ ... إنَّ في المَوْتِ لِذِي اللُّبِّ عِبَرْ
وَكَفى بالمَوْتِ فَاعْلَمْ واعِظًا ... لِمَن المَوْتُ عَلَيْهِ قَدْ قُدِرْ

غفلةُ الإنسانِ عنِ الموتِ معَ أنَّهُ لا بدَّ لهُ منهُ مِن العجبِ، والموجبُ لها طولُ الأملِ:

كلُّنا في غَفْلَةٍ وَالمَوْتُ يَغْدو وَيَروحُ

---

(١) ذكر المؤلف في أول الكتاب أنَّ هذا الكلام من قول مطرِّف بن عبد الله.
(٢) الحِمام: الموت.

لبَني الدُّنيا مِنَ المَوْتِ غَبوقٌ وَصَبوحُ
سيَصيرُ المَرْءُ يومًا جَسَدًا ما فيهِ رُوحُ
بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ عَلَمُ المَوْتِ يَلُوحُ
نُحْ عَلى نَفْسِكَ يا مِسكينُ إنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لَتَموتَنَّ وَلَوْ عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نوحُ

لمَّا كانَ الموتُ مكروهًا بالطَّبعِ لِما فيهِ مِنَ الشِّدَّةِ والمشَقَّةِ العظيمةِ، لم يَمُتْ نبيٌّ مِن الأنبياءِ حتَّى يُخَيَّرَ، ولذلكَ وَقَعَ التَّرَدُّدُ فيهِ في حقِّ المؤمِنِ، كما في حديثِ أبي هُرَيْرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**يقولُ اللهُ عَجَّلَ: وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعلُهُ تردُّدي في قبضِ نفسِ عبدي المؤمنِ، يَكْرَهُ الموتَ وأكْرَهُ مساءتَهُ، ولا بدَّ لهُ منهُ**»(١).

كيفَ يُطْمَعُ في البقاءِ وما مِن الأنبياءِ إلَّا مَن ماتَ؟! أم كيفَ يُؤمَنُ هجومُ المنايا ولَم يَسْلَمِ الأصفياءُ والأحبَّاءُ؟! هيهاتَ هيهاتَ!

قَدْ ماتَ كُلُّ نَبِيٍّ ... وَماتَ كُلُّ نَبيهِ
وَماتَ كُلُّ شَريفٍ ... وَعاقِلٍ وَسَفيهِ
لا يُوحِشَنْكَ طَريقٌ ... كُلُّ الخَلائِقِ فيهِ

أوَّلُ ما أُعلِمَ النَّبيُّ ﷺ مِنِ انقضاءِ عُمُرِهِ باقترابِ أجَلِهِ بنزولِ سورةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فإنَّ المرادَ مِن هذهِ السُّورةِ أنَّكَ يا مُحَمَّدُ إذا فَتَحَ اللهُ عليكَ البلادَ ودَخَلَ النَّاسَ في دينِكَ الذي دَعَوْتَهُم إليهِ أفواجًا، فقدِ اقْتَرَبَ أجَلُكَ، فتَهَيَّأْ لِلقائِنا بالتَّحميدِ والاستغفارِ، فإنَّهُ قد حَصَلَ منكَ مقصودُ ما أُمِرْتَ بهِ مِن أداءِ الرِّسالةِ والتَّبليغِ، وما عندَنا خيرٌ لكَ مِن الدُّنيا، فاسْتَعِدَّ للنُّقلةِ إلينا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٠٢).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: لمَّا نَزَلَتْ هذهِ السُّورَةُ، نُعِيَتْ لرسولِ الله ﷺ نفسُهُ، فأخذَ في أشدِّ ما كانَ اجتهادًا في أمرِ الآخرةِ.

وكانَ يَعْرِضُ القرآنَ كلَّ عامٍ على جبريلَ مرَّةً، فعَرَضَهُ ذلكَ العامَ مَرَّتَينِ.

وكانَ يعْتَكِفُ العشرَ الأواخرَ مِن رمضانَ كلَّ عامٍ، فاعتَكَفَ في ذلكَ العامِ عشرينَ، وأكْثَرَ مِن الذِّكرِ والاستغفارِ.

وقالَتْ عائِشَةُ ﵂: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِر أنْ يَقولَ قبلَ موتِهِ: «**سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ**». فقُلْتُ لهُ: إنَّكَ تَدْعو بدعاءٍ لَمْ تَكُنْ تَدْعو بِهِ قبلَ اليومِ. قالَ: «**إنَّ ربِّي أخْبَرَني أنِّي سَأرى عَلَمًا في أُمَّتِي، وأنِّي إذا رَأَيْتُهُ أنْ أُسَبِّحَ بحمدِهِ وأَسْتَغْفِرَهُ، وقد رَأَيْتُهُ**». ثمَّ تَلا هذهِ السُّورةَ[1].

إذا كانَ سيِّدُ المحسنينَ يُؤْمَرُ بأنْ يَخْتِمَ أعمالَهُ بالحسنى، فكيفَ يكونُ حالُ المذنبِ المسيءِ المتلوِّثِ بالذُّنوبِ المحتاجِ إلى التَّطهيرِ؟!

مَن لمْ يُنْذِرْهُ باقترابِ أجلِهِ وحيٌ، أنْذَرَهُ الشَّيْبُ وأنذره سلبُ الموت لأقرانِه.

كَفَى مُؤْذِنًا بِاقْتِرابِ الأجَلْ ... شَبابٌ تَوَلَّى وَشَيْبٌ نَزَلْ
وَمَوْتُ اللِداتِ وهَلْ بَعْدَهُ ... بَقاءٌ يُؤَمِّلُهُ مَنْ عَقَلْ

وفي «صحيح البخاري»: عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**أعْذَرَ اللهُ إلى مَنْ بَلَّغَهُ ستِّينَ مِن عمرِهِ**»[2].

قالَ سُفْيانُ الثَّورِيُّ: مَن بَلَغَ سنَّ رسولِ اللهِ ﷺ، فَلْيَتَّخِذْ لنفسِهِ كفنًا.

وإنَّ امْرَأً قَدْ سارَ سِتِّينَ حِجَّةً ... إلى مَنْهَلٍ مِن وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

قالَ الفُضَيْلُ لرجلٍ: كم أتى عليكَ؟ قالَ: ستُّون سنةً. قالَ لهُ: أنتَ منذُ ستِّينَ سنةً تَسيرُ إلى ربِّكَ، يوشِكُ أنْ تَبْلُغَ. فقالَ الرَّجلُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٨٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

راجعونَ. فقالَ الفُضَيْلُ: مَن عَلِمَ أَنَّهُ للهِ عبدٌ وأنَّهُ إليهِ راجعٌ، فلْيَعْلَمْ أنَّهُ موقوفٌ وأنَّهُ مسؤولٌ، فلْيُعِدَّ للمسألةِ جوابًا. فقالَ لهُ الرَّجلُ: فما الحيلةُ؟ قالَ: يسيرةٌ. قالَ: فما هيَ؟ قالَ: تُحْسِنُ فيما بَقِيَ فيُغْفَرُ لكَ ما مَضى، فإنَّكَ إنْ أسأْتَ فيما بَقِيَ، أُخِذْتَ بِما مَضى وبِما بَقِيَ.

خُذْ في جِدٍّ فَقَدْ تَوَلَّى العُمُرُ ... كَمْ ذا التَّفْريطُ قَدْ تَدانى الأمْرُ
أَقْبِلْ فَعَسى يُقْبَلُ مِنْكَ العُذْرُ ... كَمْ تَبْني كَمْ تَنْقُضُ كَمْ ذا الغَدْرُ

ومَا زَالَ النَّبيُّ ﷺ يُعَرِّضُ باقترابِ أجلِهِ في آخرِ عمرِهِ:

فإنَّهُ لمَّا خَطَبَ في حجَّةِ الوداعِ، قالَ للنَّاسِ: «**خُذوا عَنِّي مناسكَكُم، فلعلِّي لا أَلْقاكُم بعدَ عاميَ هذا**»(١). وطَفِقَ يُوَدِّعُ النَّاسَ، فقالوا: هذهِ حجَّةُ الوداعِ.

فلمَّا رَجَعَ مِن حجَّتِهِ إلى المدينةِ، جَمَعَ النَّاسَ بماءٍ يُدْعى «غدير خُم» في طريقِهِ بينَ مَكَّةَ والمدينةِ، فخَطَبَهُم وقالَ: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما أنا بشرٌ، يُوشِكُ أنْ يَأتِيَني رسولُ ربِّي فأُجيبَ»(٢). ثمَّ حَضَّ على التَّمسُّكِ بكتابِ اللهِ، ووَصَّى بأهلِ بيتِهِ.

ثمَّ إنَّهُ ﷺ لمَّا بَدَأَ بهِ مرضُ الموتِ، خُيِّرَ بينَ لقاءِ اللهِ وبينَ زهرةِ الدُّنيا والبقاءِ فيها ما شاءَ اللهُ فاخْتارَ لقاءَ اللهِ وخَطَبَ النَّاسَ وأشارَ إليهِم بذلكَ إشارةً مِن غيرِ تصريحٍ.

وكانَ ابتداءُ مرضِهِ ﷺ في أواخرِ شهرِ صَفَرَ.

وكانَتْ مدَّةُ مرضِهِ ثلاثَةَ عشرَ يومًا في المشهورِ. وقيلَ أربعةَ عشرَ يومًا.

وفي «المسند» و«صحيح ابن حِبَّان»: عن أبي سَعيدٍ، قالَ: خَرَجَ إلينا

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٨). ومعناه أنَّ النَّبيّ ﷺ جمع أصحابه في أحد أسفاره عند غديرِ ماءٍ اسمه «خُمْ» فخطبهم وقال لهم هذا الكلام.

رسولُ اللهِ ﷺ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ وهوَ معصوبُ الرَّأْسِ، فقامَ على المنبرِ، فقالَ: «**إنَّ عبدًا عُرِضَتْ عليهِ الدُّنيا وزينتُها، فاختارَ الآخرةَ**». قالَ: فلمْ يَفْطَنْ لها أحدٌ مِن القومِ إلَّا أبو بَكْرٍ، فقالَ: بأبي وأُمِّي، بل نَفْديكَ بأموالِنا وأولادِنا وأنفسِنا. قالَ: ثمَّ هَبَطَ عنِ المنبرِ فما رُئِيَ عليهِ حتَّى السَّاعةِ(١).

وفي «المسند»: عن أبي مُوَيْهِبَةَ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ ليلةً إلى البقيعِ، فاسْتَغْفَرَ لأهلِ البقيعِ، وقالَ: «**لِيَهْنِكُم ما أصْبَحْتُمْ فيهِ ممَّا أصْبَحَ فيهِ النَّاسُ. أقْبَلَتِ الفتنُ كقطعِ الليلِ المظلمِ، يَتْبَعُ بعضُها بعضًا، يَتْبَعُ آخرُها أوَّلَها، الآخرةُ شرٌّ مِن الأُولى**». ثمَّ قالَ: «**يا أبا مُوَيْهِبَةَ! قد أُعْطِيتُ خزائنَ الدُّنيا والخلدَ ثمَّ الجنَّةَ، فخُيِّرتُ بينَ ذلكَ وبينَ لقاءِ ربِّي والجنَّةِ، فاخْتَرْتُ لقاءَ ربِّي والجنَّةَ**». ثمَّ انْصَرَفَ. فابتَدأهُ وجعُهُ الذي قَبَضَهُ اللهُ فيهِ(٢).

• لمَّا قَوِيَتْ معرفةُ الرَّسولِ ﷺ بربِّهِ ازدادَ حبُّهُ وشوقُهُ إلى لقائِهِ، فلمَّا خُيِّرَ بينَ البقاءِ في الدُّنيا وبينَ لقاءِ ربِّهِ، اختارَ لقاءَهُ على خزائنِ الدُّنيا والبقاءِ فيها.

• لمَّا عَرَّضَ الرَّسولُ ﷺ على المنبرِ باختيارِهِ اللقاءَ على البقاءِ ولمْ يُصَرِّحْ، خَفِيَ المعنى على كثيرٍ ممَّن سَمِعَ، ولمْ يَفْهَمِ المقصودَ غيرُ صاحِبِهِ الخصيصِ بهِ ثاني اثْنَيْنِ إذْ هُما في الغارِ، وكانَ ﵁ أعلمَ الأُمَّةِ بمقاصدِ النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا فَهِمَ المقصودَ مِن هذِهِ الإشارةِ، بَكَى وقالَ: بل نَفْدِيكَ بأموالِنا وأنفسِنا وأولادِنا، فسَكَّنَ الرَّسولُ ﷺ جزعَهُ، وأخذَ في مدحِهِ والثَّناءِ عليهِ على المنبرِ، ليعْلَمَ النَّاسُ كلُّهُم فضلَهُ، فلا يَقَع عليهِ اختلافٌ في خلافتِهِ.

فقالَ: «**إنَّ مِن أمنِّ النَّاسِ عليَّ في صحبتِهِ ومالِهِ أبا بَكْرٍ**».

وفي روايةٍ أُخرى أنَّهُ قالَ: «**ما لأحدٍ عندَنا يدٌ إلَّا وقدْ كافَيْناهُ، ما خَلا أبا**

(١) أخرجه أحمد (١١٨٦٢)، وابن حبان (٦٥٩٣)، وأصله في الصحيحين كما تقدَّم.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٩٩٦)، قال ابن عبدالبر في التمهيد (٢٠/ ١١١): هو حديث حسن.

بَكْرٍ، فإنَّ لهُ عندنا يدًا يُكافِئُهُ اللهُ يومَ القيامةِ بها، وما نَفَعَنِي مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بَكْرٍ». خَرَّجَهُ التِّرمِذِيّ.

ثمَّ قالَ ﷺ: **«لو كنْتُ مُتَّخذًا مِن أهلِ الأرضِ خليلًا، لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خليلًا، ولكنْ أُخوَّةُ الإسلامِ»**(١).

لمَّا كانَ الرَّسولُ ﷺ خليلَ اللهِ، لمْ يَصْلُحْ لهُ أنْ يُخالِلَ مخلوقًا، فإنَّ الخليلَ مَن جَرَتْ محبَّة خليلِهِ منهُ مجرى الرُّوحِ، ولا يَصْلُحُ هذا لبشرٍ، كما قيلَ:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذا سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا

ولهذا المعنى قيلَ: إنَّ إبْراهيمَ الخليلَ ﵇ أُمِرَ بذبحِ ولدِهِ، ولمْ يَكُنِ المقصودُ إراقةَ دمِ الولدِ، بل تفريغُ محلِّ الخلَّةِ لمَن لا يَصْلُحُ أنْ يُزاحِمَهُ فيها أحدٌ.

ثمَّ قالَ ﷺ: **«لا يَبْقَيَنَّ خوخةٌ في المسجدِ إلَّا سُدَّتْ إلَّا خَوخَةَ أبي بَكْرٍ»**. وفي روايةٍ: **«سُدُّوا هذهِ الأبوابَ الشَّارعَةَ في المَسْجدِ، إلَّا بابَ أبي بَكْرٍ»**. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ أبا بَكْرٍ ﵁ هوَ الإمامُ بعدَهُ، فإنَّ الإمامَ يَحْتاجُ إلى سكنى المسجدِ والاستطراقِ فيهِ بخلافِ غيرِهِ، وذلكَ مِن مصالحِ المسلمينَ المصلِّينَ في المسجدِ.

ثمَّ أكَّدَ هذا المعنى بأمرِهِ صريحًا أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ أبو بَكْرٍ، فرُوجِعَ في ذلكَ، فغَضِبَ، وقالَ: «مُروا أبا بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ»(٢). فوَلَّاه إمامةَ الصَّلاةِ دونَ غيرِهِ، وأبْقى استطراقَهُ مِن دارِهِ إلى مكانِ الصَّلاةِ، وسَدَّ استطراقَ غيرِهِ. وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى استخلافِهِ على الأُمَّةِ دونَ غيرِهِ.

ولهذا قالَتِ الصَّحابَةُ ﵃ عندَ بيعةِ أبي بَكْرٍ: رَضِيَهُ رسولُ اللهِ ﷺ

---

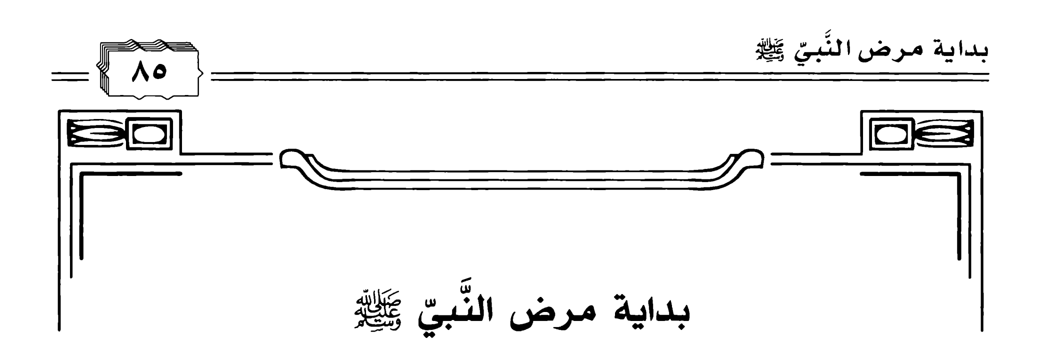
(١) تقدم تخريج هذه الروايات.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

لدينِنا، أفلا نَرْضاهُ لدُنيانا؟ ولمَّا قالَ أبو بَكْرٍ: قد أَقَلْتُكُمْ بيعتي. قالَ عَلِيٌّ: لا نقيلُكَ ولا نَسْتَقِيلُكَ، قَدَّمَكَ رسولُ اللهِ ﷺ، فمَن ذا يُؤَخِّرُكَ؟!

لمَّا انْطَوى بساطُ النُّبُوَّةِ مِن الأرضِ بوفاةِ الرَّسولِ ﷺ، لمْ يَبْقَ على وجهِ الأرض أكملُ مِن درجةِ الصِّديقيَّةِ، وأبو بَكْرٍ رأْسُ الصِّدِّيقينَ، فلهذا اسْتَحَقَّ خلافةَ الرَّسولِ ﷺ والقيامَ مقامَهُ.

وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ قد عَزَمَ على أنْ يَكْتُبَ لأبي بَكْرٍ كتابًا لئلَّا يُخْتَلَفَ عليهِ، ثمَّ أعْرَضَ عن ذلكَ، لعلمِهِ أنَّه لا يَقَعَ غيرُهُ، وقالَ: «يَأْبى اللهُ والمؤمنون إلَّا أبا بَكْرٍ». وربَّما كانَ تَرَكَ ذلكَ لئلَّا يَتَوَهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ نَصَّهُ على خلافتِهِ كانَتْ مكافأةً ليدِهِ التي كانَتْ لهُ. والولاياتُ كلُّها لا يُقْصَدُ بها مصلحةُ المُوَلَّى، بل مصلحةُ المسلمينَ عامَّةً.





بداية مرض النَّبيّ ﷺ

كانَ أَوَّلَ ما ابْتُدِئَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ مِن مرضِهِ وجعُ رأسِهِ. ولهذا خَطَبَ وقدْ عَصَبَ رأْسَهُ بعصابةٍ دسماءَ[١]. وكانَ صداعُ الرَّأْسِ والشَّقيقةُ يَعْتَريهِ كثيرًا في حياتِهِ ويتأَلَّمُ منهُ أيَّامًا.

وصداعُ الرَّأْسِ مِن علاماتِ أهلِ الإيمانِ وأهلِ الجنَّةِ.

وفي «المسند» عن عائشةَ، قالَتْ: دَخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ في اليومِ الذي بُدِئَ فيهِ. فقُلْتُ: وا رأْساهُ! فقالَ: **«وَدِدْتُ أنَّ ذلكَ كانَ وأنا حيٌّ، فهَيَّأْتُكِ ودَفَنْتُكِ»**. فقُلْتُ: كأنِّي بكَ في ذلكَ اليومِ عروسًا ببعضِ نسائكَ! فقالَ: **«أنا وا رأْساهُ! ادْعوا لي أباكِ وأخاكِ حتَّى أكْتُبَ لأبي بَكْرٍ كتابًا، فإنِّي أخافُ أنْ يَقولَ قائلٌ ويَتَمَنَّى متمنٍّ، ويَأْبى اللهُ والمؤمنونَ إلَّا أبا بَكْرٍ»**[٢].

وخَرَّجَهُ البُخاريُّ بمعناهُ، ولفظُهُ: إنَّ عائِشَةَ قالَتْ: وا رأْساهُ! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ذاكِ لو كانَ وأنا حيٌّ، فأَسْتَغْفِرَ لكِ وأَدْعُوَ لكِ»**. قالَتْ عائِشَةُ: وا ثُكْلاهُ! واللهِ، إنِّي لأَظُنُّكَ تُحِبُّ موتي، ولو كانَ ذلكَ، لظَلَلْتَ آخرَ يومِكَ معرِّسًا ببعضِ أزواجِكَ. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«بل أنا وا رأْساهُ!»**. وذَكَرَ بقيَّةَ الحديثِ.

وفي «المسند» أيضًا عنها، قالَتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذَا مَرَّ ببابي، يُلْقي الكلمةَ يَنْفَعُ اللهُ بها. فمَرَّ ذاتَ يومٍ فلمْ يَقُلْ شيئًا مرَّتَيْنِ أو ثلاثًا. فقُلْتُ: يا

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٨). والعصابة الدسماء: هي العمامة السوداء.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥١١٣)، وأصله في البخاري كما ذكر ذلك المؤلف.

جاريةُ! ضَعي لي وسادةً على البابِ، وعَصَبْتُ رأْسِي، فمَرَّ بي، فقالَ: «**يا عائِشَةُ! ما شأْنُكِ؟**». فقُلْتُ: أشْتَكِي رأْسي. فقالَ: «**أنا وا رأْساه!**». فذهبَ فلمْ يَلْبَثْ إلَّا يسيرًا حتَّى جيءَ بهِ محمولًا في كساءٍ، فدَخَلَ عليَّ، فبَعَثَ إلى النِّساءِ، فقالَ: «**إنِّي اشْتَكَيْتُ**»، وقالَ: «**إنِّي لا أسْتَطِيعُ أنْ أدورَ بينَكُنَّ، فائذَنَّ لي فَلأكُنْ عندَ عائِشَةَ**»(١).

فقد تبيَّن أنَّ أوَّل مرضِهِ كانَ صداعَ الرَّأْسِ.

والظَّاهِرُ أنَّه كانَ معَ حمَّى، فإنَّ الحمَّى اشْتَدَّتْ بهِ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ، فكانَ يَجْلِسُ في مِخْضَبٍ، ويُصَبُّ عليهِ الماءُ مِن سبعِ قِرَبٍ لمْ تُحْلَلْ أوْكِيَتُهُنَّ، يَتَبَرَّدُ بذلكَ. وكانَ عليهِ قطيفةٌ، وكانَتْ حرارةُ الحمَّى تُصيبُ مَن وَضَعَ يدَهُ عليهِ مِن فوقِها، فقيلَ لهُ في ذلكَ، فقالَ: «إنَّا كذلكَ يُشَدَّدُ علينا البلاءُ ويُضاعَفُ لنا الأجرُ»(٢). وقالَ: «إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلانِ منكُم»(٣).

ومِن شدَّةِ وجعِهِ كانَ يُغْمى عليهِ في مرضِهِ ثمَّ يفيقُ، وحصَلَ له ذلكَ غيرَ مرَّةٍ.

قالَتْ عائشَةُ: ما رَأَيْتُ أحدًا كانَ أشدَّ عليهِ الوجعُ مِن رسولِ الله ﷺ(٤).

وكانَ عندَهُ في مرضِهِ سبعةُ دنانيرَ، فكانَ يَأمُرُهُم بالصَّدقةِ بها ثمَّ يُغمى عليهِ فيَشْتغِلونَ بوجعِهِ، فدَعا بها فوَضَعها في كفِّهِ، وقالَ: «**ما ظَنُّ مُحَمَّدٍ بربِّهِ لو لَقِيَ اللهَ وعندَهُ هذهِ؟**». ثمَّ تَصَدَّق بها كلِّها(٥).

فكيفَ يكونُ حالُ مَن لقِيَ اللهَ وعندَهُ دماءُ المسلمينَ وأموالُهُمُ المحرَّمةُ وما ظنُّهُ بربِّهِ؟!

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٤١). قال الهيثمي في المجمع (٩/٣٣): رجال أحمد ثقات.
(٢) أخرجه أحمد (١١٨٩٣)، والحاكم (١/٩٩) وقال: صحيح على شرط مسلم.
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).
(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).
(٥) أخرجه أحمد (٢٤٢٢٢). وصحّحه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

ولم يَكُنْ عندَهُم في مرضِهِ دهنٌ للمصباحِ يوقَدُ فيهِ، فلمَّا اشْتَدَّ وجعُهُ ليلةَ الاثنينِ، أرْسَلَتْ عائشَةُ بالمصباحِ إلى امرأةٍ مِن النِّساءِ، فقالَتْ: قَطِّري لنا في مصباحِنا مِن عُكَّةِ السَّمنِ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ أمسى في جديدِ الموتِ[١].

ودَخَلَتْ عليهِ فاطمَةُ ﵂ في مرضِهِ، فسارَّها بشيءٍ فبَكَتْ ثمَّ سارَّها فضَحِكَتْ، فسُئِلَت عن ذلكَ، فقالَتْ: لا أُفشي سرَّ رسولِ الله ﷺ. فلمَّا تُوُفِّيَ، سُئِلَتْ فقالَتْ: أخْبَرَني أنَّهُ يموتُ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ فبَكيتُ، ثمَّ أخبرَني أنِّي أوَّلُ أهلِهِ لحوقًا بهِ وأنِّي سيِّدةُ نساءِ العالمينَ فضَحِكْتُ[٢].

فلمَّا احتُضِرَ رسولُ الله ﷺ، اشتَدَّ بِهِ الأمرُ.

فقالَتْ عائِشَةُ: ما أَغْبِطُ أحدًا يُهَوَّنُ عليهِ الموتُ بعدَ الذي رَأَيْتُ مِن شِدَّةِ موتِ رسولِ اللهِ ﷺ.

قالَتْ: وكانَ عندَهُ قدحٌ مِن ماءٍ، فكانَ يُدْخِلُ يدَهُ في القدحِ، ثمَّ يَمْسَحُ وجهَهُ بالماءِ ويَقولُ: «**اللَّهُمَّ! أعِنِّي على سكراتِ الموتِ**».

قالَتْ وجَعَلَ يقولُ: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للموتِ لسكراتٍ**»[٣].

ولمَّا ثَقُلَ النَّبيُّ ﷺ، جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الكربُ، فقالَتْ فاطِمَةُ: وا كربَ أبتاهُ! فقالَ لها: «**لا كربَ على أبيكِ بعدَ اليومِ**»[٤].

ولَمْ يُقْبَضْ ﷺ حتَّى خُيِّرَ مرَّةً أُخرى بينَ الدُّنيا والآخرةِ.

قالَتْ عائِشَةُ: كان النَّبيُّ ﷺ يَقولُ: «**إنَّه لمْ يُقْبَضْ نبيٌّ حتَّى يرى مقعدَهُ مِن الجنَّةِ، ثمَّ يُخَيَّرُ**». فلمَّا نَزَلَ بهِ ورأسُهُ على فخذي، غُشِيَ عليه ساعَةً، ثمَّ أفاقَ فأشْخَصَ بصرَهُ إلى سقفِ البيتِ، ثمَّ قالَ: «**اللَّهُمَّ الرَّفيقَ الأعلى**».

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٩٠). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٤٩)، ومسلم (٢٤٤٣).
(٤) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

فقُلْتُ: الآنَ لا يَخْتارُنا[١].

وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ: «**اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لي وارْحَمْني وألحِقْني بالرَّفيقِ الأعلى**».

وفي روايةٍ أنَّه أصابَهُ بُحَّةٌ شديدةٌ، فسَمِعَتْهُ يقولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. قالَتْ: فظَنَنْتُ أنَّهُ خُيِّرَ[٢].

وهذِهِ الرِّواياتُ مُخرَّجَةٌ في «صحيح البُخاريِّ» وغيرِهِ.

وقد كانَتْ عائِشَةُ مَضَغَتْ لهُ ﷺ سواكًا وطَيَّبَتْهُ بريقِها ثمَّ دَفَعَتْهُ إليهِ فاسْتَنَّ بهِ[٣] أحسنَ اسْتِنانٍ، ثمَّ ذَهَبَ يَتَناوَلُهُ فضَعُفَتْ يدُهُ عنهُ فسقَطَ مِن يدِهِ الكريمةِ. فكانَتْ عائِشَةُ تقولُ: جَمَعَ اللهُ بينَ ريقِهِ وريقي في آخرِ يومٍ مِن الدُّنيا وأوَّل يومٍ مِن الآخرةِ. والحديثُ مخرَّجٌ في الصّحيحين[٤].

وكانَتْ وفاتُهُ ﷺ في يومِ الاثنينِ في شهرِ ربيعِ الأوَّلِ بغيرِ خلافٍ، وكانَ ﷺ قد كَشَفَ السِّترَ في ذلكَ اليومِ والنَّاسُ في صلاةِ الصُّبحِ خلفَ أبي بَكْرٍ، فهَمَّ المسلمونَ أنْ يُفْتَنوا مِن فرحِهِم برؤيتِهِ ﷺ حينَ نَظَروا إلى وجهِهِ كأَنَّهُ ورقةُ مصحفٍ، وظَنُّوا أنَّه يَخْرُجُ للصَّلاةِ، فأشارَ إليهِم أنْ مكانَكُمْ، ثمَّ أرْخى السِّتْرَ، وتُوُفِّيَ ﷺ مِن ذلكَ اليومِ[٥].

وظَنَّ المسلمونَ أنَّهُ ﷺ قد بَرِئَ مِن مرضِهِ لمَّا أصبَحَ يومَ الاثْنينِ مفيقًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) المعنى: أنَّ الله خيَّره بين الدنيا وبين الموت، فاختار الموت ليكون في الرفيق الأعلى.

(٣) استنَّ به: أي استاك به.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٤٩)، ومسلم (٢٤٤٣).

(٥) المعنى: أنَّ غرفة النَّبيّ ﷺ كان يفصلها عن المسجد ستارة، فلما بدأوا يصلون وكان في بيته لا يستطيع المجيء إلى المسجد كشف تلك الستارة لينظر إليهم ففرح بذلك الصحابة فرحًا شديدًا، حتى كادوا أن يُفتنوا عن صلاتهم بأن يقطعوها من شدَّة الفرح.

فخَرَجَ أبو بَكْرٍ إلى منزِلِهِ بالسُّنْحِ خارجَ المدينةِ، فلمَّا ارْتَفَعَ الضُّحى مِن ذلكَ اليومِ، تُوُفِّيَ ﷺ. وقيلَ: تُوُفِّيَ حينَ زاغَتِ الشَمسُ. والأوَّلُ أصحُّ؛ أنَّهُ تُوُفِّيَ حينَ اشْتَدَّ الضُّحى مِن يومِ الاثنينِ في مثلِ الوقتِ الذي دَخَلَ فيهِ المدينةَ حينَ هاجَرَ إليها.

واختَلَفوا في تعيينِ ذلكَ اليومِ مِن الشَّهْرِ: فقيلَ: كانَ أوَّلَهُ. وقيلَ: ثانيَهُ. وقيلَ: ثانيَ عشرِهِ. وقيلَ: ثالثَ عشرِهِ. وقيلَ: خامسَ عشرِهِ. والمشهورُ بينَ النَّاسِ أنَّهُ كانَ ثانيَ عشرَ ربيعٍ الأوَّلِ.

ولمَّا تُوُفِّيَ ﷺ اضْطَرَبَ المسلمونَ: فمنهُم مَن دُهِشَ فخولِطَ، ومنهُم مَن أُقْعِدَ فلمْ يُطِقِ القيامَ، ومنهُم مَنِ اعتُقِلَ لسانُهُ فلمْ يُطِقِ الكلامَ، ومنهُم مَن أنْكَرَ موتَهُ بالكلِّيَّةِ وقالَ: إنَّما بُعِثَ إليه كما بُعِثَ إلى موسى. وكانَ مِن هؤلاءِ عُمَرُ.

وبَلَغَ الخبرُ أبا بَكْرٍ، فأقْبَلَ مسرعًا، حتَّى دَخَلَ بيتَ عائِشَةَ، ورسولُ اللهِ ﷺ مسَجًّى، فكَشَفَ عن وجهِهِ الثَّوبَ وأكَبَّ عليهِ وقَبَّل وجهَهُ مرارًا وهو يَبْكي[1] ويَقولُ: وا نبيَّاه! وا خليلاه! وا صفيَّاه![2] ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ. ثمَّ دخَلَ المسجدَ، وعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، وهُم مجتمعونَ عليهِ، فتكَلَّمَ أبو بكرٍ رضي الله عنه وتشَهَّدَ وحَمِدَ اللهَ، فأقْبَلَ النَّاسُ إليهِ وتَرَكُوا عُمَرَ، فقالَ: مَن كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فإنَّ مُحَمَّدًا قد ماتَ، ومَن كان يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يَموتُ، وتَلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فاستَيْقَنَ النَّاسُ كلُّهُم بموتِهِ وكأنَّهُم لم يَسْمَعوا هذهِ الآيةَ مِن قبلِ أنْ يَتْلُوَها أبو بَكْرٍ، فتَلَقَّاها النَّاسُ منهُ، فما يُسْمَعُ أحدٌ إلَّا وهو يَتْلوها.

وقالَتْ فاطِمَةُ: يا أبتاه! أجابَ ربًّا دَعاه، يا أبتاه! جنَّةُ الفردوسِ مأواه، يا أبتاه! إلى جِبريلَ أنْعاه[3]. وعاشَتْ بعدَهُ ستَّةَ أشهرٍ رضي الله عنها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٨).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٤)، قال الشيخ الألباني: سنده صحيح.
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٦٨).

كُلُّ المصائبِ تَهونُ عندَ هذهِ المصيبةِ.

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصيبَةٍ وَتَجَلَّد وَاعْلَمْ بِأنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
واصْبِرْ كَمَا صَبَرَ الكِرامُ فَإنَّها نُوَبٌ تَنُوبُ اليَوْمَ تُكْشَفُ في غَدِ
وَإذا أتَتْكَ مُصيبَةٌ تَشْجى بِها فَاذْكُرْ مُصابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

كَادَتِ الجماداتُ تَتَصَدَّعُ مِن ألمِ مفارقةِ الرَّسولِ، فكيفَ بقلوبِ المؤمنينَ؟!

لمَّا فقَدَهُ الجذعُ الذي كانَ يَخْطُبُ إليهِ قبلَ اتِّخاذِ المنبرِ، حَنَّ إليهِ وصاحَ كما يصيحُ الصَّبيُّ، فنَزَلَ إليهِ فاعْتَنَقَهُ، فجَعَلَ يُهَدِّيه كما يُهَدَّى الصَّبيُّ الذي يُسَكَّنُ عندَ بكائِهِ، فقالَ: «لو لمْ أعْتَنِقْهُ، لَحَنَّ إلى يوم القيامةِ»[1]. كانَ الحَسَنُ إذا حَدَّثَ بهذا الحديثِ، بَكَى وقالَ: هذهِ خَشبةٌ تَحِنُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأنتُمْ أحَقُّ أنْ تَشْتاقوا إليهِ.

ورُوِيَ أنَّ بلالًا كانَ يُؤذِّنُ بعدَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ قبلَ دفْنِهِ، فإذا قالَ: أشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، ارْتَجَّ المسجدُ بالبكاءِ والنَّحيبِ، فلمَّا دُفِنَ، تَرَكَ بلالٌ الأذانَ.

ما أمَرَّ عيشَ مَن فارَقَ الأحبابَ! خصوصًا مَن كانَتْ رؤيَتُهُ حياةَ الألباب.

لمَّا دُفِنَ ﷺ، قالَتْ فاطِمَةُ: كيفَ طابَتْ أنفُسكُم أنْ تَحثوا على رسولِ اللهِ ﷺ التُّرابَ؟!

قالَ أنَسٌ: لمَّا كانَ اليومُ الذي دَخَلَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ، أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي دُفِنَ فيهِ، أظْلَمَ منها كلُّ شيءٍ، وما نَفَضْنا التُّرابَ عن رسولِ اللهِ حتَّى أنْكَرْنا قلوبَنا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٠)، وابن ماجه (١٤١٥)، قال البوصيري: إسناده صحيح.

لِيَبْكِ رَسولَ اللَّهِ مَنْ كانَ باكِيًا ... فَلا تَنْسَ قَبْرًا بِالمدينةِ ثاوِيا

جَزى اللَّهُ عَنَّا كُلَّ خَيْرٍ مُحَمَّدًا ... فَقَدْ كانَ مَهْدِيًّا وَقَدْ كانَ هادِيا

وكَانَ رسولُ اللَّهِ رَوْحًا وَرَحْمَةً ... وَنورًا وَبُرْهانًا مِنَ اللهِ بادِيا

وَكانَ رَسولُ اللَّهِ بِالخَيْرِ آمِرًا ... وَكانَ عَنِ الفَحْشاءِ والسُّوءِ ناهِيا

وَكانَ رَسولُ اللَّهِ بِالقِسْطِ قائِمًا ... وَكانَ لِما اسْتَرْعاهُ مَوْلاهُ راعِيا

وَكانَ رَسولُ اللَّهِ يَدْعو إلى الهُدى ... فَلَبَّى رَسولُ اللَّهِ لَبَّيْهِ داعِيا

أَيُنْسى أَبَرُّ النَّاسِ بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ ... وَأَكْرَمُهُمْ بَيْتًا وَشِعْبًا وَوادِيا

أَيُنْسى رَسولُ اللَّهِ أَكْرَمُ مَن مَشى ... وَآثارُهُ بِالمَسْجِدَيْنِ كَما هِيا

تَكَدَّرَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... عَلَيْهِ سَلامٌ كُلُّ ما كانَ صافِيا

رَكَنَّا إلى الدُّنيا الدَّنِيَّةِ بَعْدَهُ ... وَكَشَّفَتِ الأَطْماعُ مِنَّا مَساوِيا

وَكَمْ مِنْ مَنارٍ كانَ أَوْضَحَهُ لَنا ... وَمِنْ عَلَمٍ أَمْسى وَأَصْبَحَ عافِيا

إذا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيابًا مِنَ التُّقى ... تَقَلَّبَ عُرْيانًا وَلَوْ كانَ كاسِيا

وَخَيْرُ خِصالِ المَرْءِ طاعَةُ رَبِّهِ ... وَلا خَيْرَ فيمَنْ كانَ لِلَّهِ عاصِيا

❁ ❁ ❁



وظيفة شهر رجب

وظيفة شهر رجب

خَرَّجا في الصَّحيحينِ مِن حديثِ أبي بَكْرَةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَبَ في حَجَّةِ الوداعِ فقالَ في خطبتِهِ: «**إنَّ الزَّمانَ قدِ استَدارَ كهيئتِهِ يومَ خلَقَ اللهُ السَّموات والأرضَ، السَّنَة اثنا عشَرَ شهرًا، منها أربعةٌ حرمٌ: ثلاثةٌ متوالياتٌ، ذو القَعْدَةِ وذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ، ورجبُ مُضَرَ الذي بين جُمادى وشعبانَ...**» وذَكَر الحديثَ[1].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦] فأخبَرَ سبحانَهُ أنَّهُ منذُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وخَلَقَ الليلَ والنَّهارَ يَدورانِ في الفلكِ، وخَلَقَ ما في السَّماءِ مِن الشَّمس والقمرِ والنُّجومِ، وجَعَلَ الشَّمسَ والقمرَ يَسْبَحانِ في الفَلَكِ فيَنْشَأُ منهُما ظلمةُ الليلِ وبياضُ النَّهارِ، فمِن حينئذٍ جَعَلَ السَّنَةَ اثني عشرَ شهرًا بحسبِ الهلالِ.

فالسَّنَة في الشَّرعِ مقدَّرةٌ بسيرِ القمرِ وطلوعِهِ لا بسيرِ الشَّمسِ وانتقالِها كما يَفْعَلُهُ أهلُ الكتابِ.

وقولُهُ ﷺ: «**إنَّ الزَّمانَ قدِ اسْتَدارَ كهيئتِهِ يومَ خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ، السَّنَةُ اثنا عشرَ شهرًا**»، مرادُهُ بذلكَ إبطالُ ما كانتِ الجاهليَّةُ تَفْعَلُهُ مِن النَّسيءِ، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٦).

كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقدِ اخْتُلِفَ في تفسيرِ النَّسيءِ: فقالَتْ طائفةٌ: كانوا يُبْدِلونَ بعضَ الأشهرِ الحرمِ بغيرِها مِن الأشهرِ فيُحَرِّمونَها بدلَها ويُحِلُّونَ ما أرادوا تحليلَهُ مِن الأشهرِ الحرمِ إذا احتاجوا إلى ذلكَ، ولكنْ لا يَزيدونَ في عددِ الأشهرِ الهلاليَّةِ شيئًا. ثمَّ مِن أهلِ هذهِ المقالةِ مَن قالَ: كانوا يُحِلُّونَ المحرَّمَ فيَسْتَحِلُّونَ القتالَ فيهِ، لطولِ مدَّةِ التَّحريمِ عليهِم بتوالي ثلاثةِ أشهرٍ محرَّمةٍ، ثمَّ يُحَرِّمونَ صَفَرَ مكانَهُ، فكأنَّهُم يَقْتَرِضونَهُ ثمَّ يُوَفُّونَهُ. ومنهُم مَن قالَ: كانوا يُحلُّونَ المحرَّمَ معَ صَفرَ مِن عامٍ ويُسَمُّونَهُما صَفرينِ، ثمَ يُحرِّمونَهما مِن عامٍ قابلٍ ويُسَمُّونَهُما محرَّمينِ.

واخْتَلَفوا لِمَ سُمِّيَتْ هذهِ الأشهرُ الأربعةُ حُرُمًا:

فقيلَ: لعظمِ حرمتِها وحرمةِ الذَّنبِ فيها.

وقيلَ: إنَّما سُمِّيَتْ حُرُمًا لتحريمِ القتالِ فيها، وكانَ ذلك معروفًا في الجاهليَّةِ.

وقيلَ: إنَّ سببَ تحريمِ هذهِ الأشهرِ الأربعةِ بينَ العربِ لأجل التَّمَكُّنِ مِن الحجِّ والعمرةِ: فحُرِّم شهرُ ذي الحِجَّةِ لوقوعِ الحجِّ فيهِ، وحُرِّمَ معَهُ شهرُ ذي القعدةِ للسَّيرِ فيه إلى الحجِّ، وحرّم شهرُ المحرَّمِ للرُّجوعِ فيهِ مِن الحجِّ، حتَّى يَأمَنَ الحاجُّ على نفسِهِ مِن حين يَخْرُجُ مِن بيتِهِ إلى أنْ يَرْجِعَ إليهِ، وحُرِّمَ شهرُ رَجَبٍ، للاعتمارِ فيه في وسطِ السَّنةِ، فيَعْتَمِرُ فيهِ مَن كان قريبًا مِن مَكَّةَ.

وقد شَرَعَ اللهُ تعالى في أوَّلِ الإسلامِ تحريمَ القتالِ في الشَّهرِ الحرامِ: قالَ تَعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]. وقالَ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقدِ اخْتَلَفَ العلماءُ في حكمِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ، هل تحريمُهُ باقٍ أم نُسِخَ:

فالجمهورُ على أنَّهُ نُسِخَ تحريمُهُ، ونَصَّ على نسخِهِ الإمامُ أحمَدُ وغيرُهُ مِن الأئمَّةِ. وذَهَبَ طائفةٌ مِن السَّلفِ ـ منهُم عطاءٌ ـ إلى بقاءِ تحريمِهِ، ورَجَّحَهُ بعضُ المتأخِّرينَ، واسْتَدَلُّوا بآيةِ المائدةِ، والمائدةُ مِن آخرِ ما نَزَلَ مِن القرآنِ. وقد رُوِيَ: أحِلُّوا حلالَها وحَرِّموا حرامَها. وقيلَ: ليسَ فيها منسوخٌ.

واسْتَدَلَّ الجمهورُ بأنَّ الصَّحابَةَ ﷺ اشْتَغلوا بعدَ النَّبيِّ ﷺ بفتحِ البلادِ ومواصلةِ القتالِ والجهادِ ولمْ يُنْقَلْ عن أحدٍ منهُم أنَّهُ تَوَقَّفَ عنِ القتالِ في شيءٍ مِن الأشهرِ الحرمِ، وهذا يَدُلُّ على إجماعِهِم على نسخِ ذلكَ. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ ﷺ **«ورَجَبُ مُضَر»**: سُمِّيَ رجبٌ رجبًا لأنَّه كانَ يُرَجَّبُ؛ أي: يُعَظَّمُ. كذا قالَ الأصْمَعِيُّ والمُفَضَّلُ والفَرَّاءُ. وقيلَ: لأنَّ الملائكةَ تتَرَجَّبُ للتَّسبيحِ والتَّحميدِ فيهِ، وفي ذلكَ حديثٌ مرفوعٌ، إلَّا أنَّهُ موضوعٌ.

وأمَّا إضافتُهُ إلى مُضَرَ: فقيلَ: لأنَّ مُضَرَ كانَتْ تَزيدُ في تعظيمِهِ واحترامِهِ، فنُسِبَ إليهِم لذلكَ. وقيلَ: بل كانَتْ ربيعةُ تُحَرِّمُ رمضانَ وتُحَرِّمُ مُضَرُ رجبًا، فلذلكَ سَمَّاهُ رجبَ مُضَرَ.

وذَكَرَ بعضُهُم أنَّ لشهرِ رجبٍ أربعةَ عشرَ اسمًا: شهرُ اللهِ، ورجبٌ، ورجبُ مُضَرَ، ومُنْصِلُ الأسنَّةِ، والأصمُّ، والأصبُّ، ومُنَفِّسٌ، ومُطَهِّرٌ، ومُعَلِّي، ومقيمٌ، وهَرِمٌ، ومقشقِشٌ، ومُبَرِّئٌ، وفردٌ.

وذَكَرَ غيرُهُ أنَّ لهُ سبعةَ عشرَ اسمًا، فزادَ: رَجَمَ بالميم، ومُنْصِلَ الآلةِ وهي الحربةُ، ومنزِعَ الأسنَّةِ.

ويتعلَّقُ بشهرِ رجبٍ أحكامٌ كثيرةٌ:

فمنها ما كانَ في الجاهليَّة واخْتَلَفَ العلماءُ في استمرارِهِ في الإسلامِ: كالقتالِ، وقد سَبَقَ ذكرُهُ.

وكالذَّبائحِ، فإنَّهُم كانوا في الجاهليَّةِ يَذْبَحونَ ذبيحةً يُسَمُّونَها العَتِيرةَ. واخْتَلَفَ العلماءُ في حكمِها في الإسلامِ.

فالأكثرونَ على أنَّ الإسلامَ أبْطَلَها. وفي الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا فَرَعَ ولا عَتِيرَةَ**»(١).

ومِنهُم مَن قالَ: بل هيَ مستَحبَّةٌ. منهُمْ ابنُ سِيرينَ. وحَكاهُ الإمامُ أحْمَدُ عن أهلِ البَصْرَةِ.

ويُشْبِهُ الذَّبحَ في رجبٍ اتِّخاذُهُ موسمًا وعيدًا لأكلِ الحلوى ونحوِها.

وقد رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّهُ كانَ يَكْرَهُ أنْ يُتَّخَذُ رجبٌ عيدًا.

وأصلُ هذا أنَّهُ لا يُشْرَعُ أنْ يَتَّخِذَ المسلمونَ عيدًا إلَّا ما جاءَت الشَّريعَةُ باتِّخاذِهِ عيدًا، وهوَ يومُ الفطرِ ويومُ الأضحى وأيَّامُ التَّشريقِ ـ وهيَ أعيادُ العامِ ـ ويومُ الجمعةِ ـ وهو عيدُ الأسبوعِ ـ، وما عدا ذلكَ، فاتِّخاذُهُ عيدًا أو موسمًا بدعةٌ لا أصلَ لها في الشَّريعةِ.

ومِن أحكامِ رجبٍ ما وَرَدَ مِن الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ والاعتمارِ:

فأمَّا الصَّلاةُ، فلمْ يَصِحَّ في رجبٍ صلاةٌ مخصوصةٌ تَخْتَصُّ بهِ، والأحاديثُ المرويَّةُ في فضلِ صلاةِ الرَّغائبِ في أوَّلِ ليلةِ جمعةٍ مِن شهرِ رجبٍ كذبٌ وباطلٌ لا يَصِحُّ، وهذهِ الصَّلاةُ بدعةٌ عندَ جمهورِ العلماءِ. وممَّن ذَكَرَ ذلكَ مِن أعيانِ العلماءِ المتأخِّرينَ مِن الحفَّاظِ أبو إسماعيلَ الأنْصاريُّ وأبو بَكْرِ بنُ السَّمْعانِيِّ وأبو الفَضْلِ بنُ ناصِرٍ وأبو الفَرَجِ بنُ الجَوْزِيِّ وغيرُهُم. وإنَّما لم يَذْكُرْها المتقدِّمونَ لأنَّها أُحْدِثَتْ بعدَهُم. وأوَّلُ ما ظَهَرَتْ بعدَ الأربعِ مئةٍ، فلذلكَ لمْ يَعْرِفْها المتقدِّمونَ ولم يَتَكَلَّموا فيها(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٣)، ومسلم (١٩٧٦).

(٢) قال الإمام النووي في المجموع (٣/٥٣٨): «الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب ثنتا عشرة ركعة تُصلَّى بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة في رجب، وكذلك صلاة =

وأمَّا الصِّيامُ، فلمْ يَصِحَّ في فضلِ صومِ رجبٍ بخصوصِهِ شيءٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ ولا عن أصحابِهِ.

ورُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ، أنَّهُ كانَ يَضْرِبُ أكفَّ الرِّجالِ في صومِ رجبٍ حتَّى يَضَعوها في الطَّعامِ ويَقولُ: ما رجبٌ؟! إنَّ رجبًا كانَتْ تعظِّمُهُ أهلُ الجاهليَّةِ، فلمَّا كانَ الإسلامُ تُرِكَ. وفي روايةٍ: كَرِهَ أنْ يَكونَ صيامُهُ سُنَّةً.

وعن أبي بَكْرَةَ، أنَّهُ رأى أهلَهُ يَتَهَيَّؤونَ لصيامِ رجبٍ، فقالَ لهُم: أجَعَلْتُم رجبًا كرمضانَ؟! وألْقى السِّلالَ وكَسَرَ الكيزانَ.

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ، أنَّهُ كَرِهَ أن يُصامَ رجبٌ كلُّهُ.

وأمَّا الاعتمارُ في رجبٍ، فقد رَوى ابنُ عُمَرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ اعْتَمَرَ في رجبٍ، فأنْكَرَتْ ذلكَ عليهِ عائِشَةُ، وهو يَسْمَعُ، فسَكَتَ[(١)].

واسْتَحَبَّ الاعتِمارَ في رجبٍ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وغيرُهُ. وكانَتْ عائِشَةُ تَفْعَلُهُ وابنُ عُمَرَ أيضًا. ونَقَلَ ابنُ سِيرينَ عنِ السَّلفِ أنَّهُم كانوا يَفْعلونَهُ. فإنَّ أفضلَ الأنساكِ أن يُؤتَى بالحجِّ في سفرةٍ، وبالعمرةِ في سفرةٍ أُخرى في غيرِ أشهرِ الحجِّ، وذلكَ مِن جملةِ إتمامِ الحجِّ والعمرةِ المأمورِ بهِ. كذلكَ قالَهُ جمهورُ الصَّحابةِ كعُمَرَ وعُثمانَ وعَلِيٍّ وغيرِهِم ﷺ أجمعينَ.

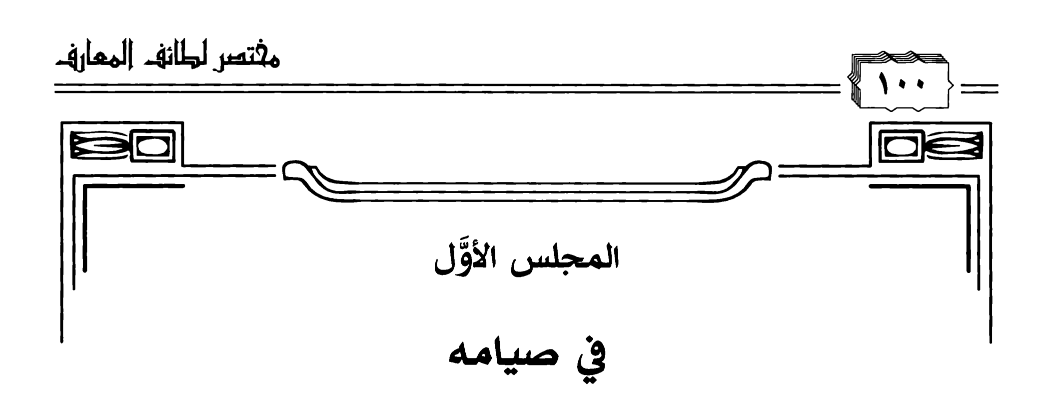


= ليلة النصف من شعبان مائة ركعة، وهاتان الصلاتان بدعتان ومنكران قبيحان». وقال أيضًا: «قاتل الله واضعها ومخترعها فإنَّها بدعة منكرة». انظر: شرح صحيح مسلم للإمام النووي (٨/ ٢٠).

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٥)، ومسلم (١٢٥٥).



وظائف شهر شعبان



المجلس الأوَّل

في صيامه

خرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ والنّسائِيُّ مِن حديثِ أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ، قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَصومُ الأيَّامَ يَسْرُد حتَّى نَقولَ لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ الأيَّامَ حتَّى لا يَكادُ يَصومُ، إلَّا يومين مِن الجمعةِ إنْ كانا في صيامِهِ، وإلَّا صامَهُما. ولمْ يَكُن يَصومُ مِن الشُّهورِ ما يَصومُ مِن شعبانَ. فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّكَ تَصومُ لا تَكادُ تُفْطِرُ، وتُفْطِرُ حتَّى لا تَكادُ تَصومُ إلَّا يومينِ إنْ دَخَلا في صيامِكَ وإلَّا صمتَهُما. قالَ: «**أيُّ يومينِ؟**». قُلتُ: يومُ الاثنينِ ويومُ الخميسِ. قالَ: «**ذانِكَ يومانِ تُعْرَضُ فيهِما الأعمالُ على ربِّ العالمينَ، وأُحِبُّ أنْ يُعْرَضَ عملي وأنا صائمٌ**». قُلتُ: ولم أرَكَ تَصومُ مِن الشُّهورِ ما تَصومُ مِن شعبانَ. قالَ: «**ذاكَ شهرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عنهُ بينَ رجبٍ ورمضانَ، وهوَ شهرٌ تُرْفَعُ فيهِ الأعمالُ إلى ربِّ العالمينَ ﷻ، وأُحِبُّ أنْ يُرْفَع عملي وأنا صائمٌ**»[1].

قد تَضَمَّنَ هذا الحديثُ ذكرَ صيامِ النَّبيِّ ﷺ مِن جميعِ السَّنةِ، وصيامَهُ مِن أيَّامِ الأسبوعِ، وصيامَهُ مِن شهورِ السَّنةِ.

فأمَّا صيامُ النبي ﷺ مِن السَّنةِ، فكانَ ﷺ يَسْرُدُ الصِّيامَ أحيانًا والفِطْرَ أحيانًا، فيَصومُ حتَّى يُقالَ لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتَّى يُقالَ لا يَصومُ.

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يُنْكِرُ على مَن يصوم الدَّهْرَ ولا يُفْطِرُ منهُ، ويُخْبِرُ عن نفسِهِ أنَّه لا يَفْعَلُ ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، وأبو داود (٢٤٣٦)، والنسائي (٢٣٥٧)، وقوّى إسناده جمع من أهل العلم كالمنذري وابن حجر والألباني.

ففي الصَّحيحينِ عن عَبْدِ اللهِ بنِ عمْرٍو، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لهُ: «**أتصومُ النَّهارَ وتَقومُ الليلَ؟**». **قالَ: نعم. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأنامُ، وأَمَسُّ النِّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سنَّتي، فليسَ منِّي»**(١).

وفيهِما عن أنَسٍ، أنَّ نفرًا مِن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ قالَ بعضُهُم: لا أتزَوَّجُ النِّساءَ، وقالَ بعضُهُم: لا آكُلُ اللَّحمَ، وقالَ بعضُهُم: لا أنامُ على فراشٍ. فبَلَغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ، فخَطَبَ وقالَ: «**ما بالُ أقوامٍ يقولونَ كذا وكذا؟ لكنِّي أُصَلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطِرُ، وأتزَوَّجُ النِّساءَ، فمَنْ رغِبَ عن سنَّتي، فليسَ منِّي**»(٢).

وفي «صحيح البخاريِّ»، أنَّ سَلْمانَ زارَ أبا الدَّرْداءِ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ قد آخى بينَهُما، فرَأى أُمَّ الدرْداءِ متبذِّلَةً، فقالَ لها: ما شأْنُكِ متبذِّلَةً؟ فقالَتْ: إنَّ أخاكَ أبا الدَّرْداءِ لا حاجةَ لهُ في الدُّنيا. فلمَّا جاء أبو الدَّرداءِ، قَرَّبَ لهُ طعامًا، فقالَ لهُ: كُلْ. قالَ: إنِّي صائمٌ. قالَ: ما أنا بآكلٍ حتَّى تأْكُلَ. فأكلَ. فلمَّا كانَ الليلُ، ذَهَبَ أبو الدَّرداءِ لِيَقومَ، فقالَ لهُ سَلْمانُ: نَمْ. ثمَّ ذَهَبَ ليَقومَ، فقالَ لهُ: نَمْ، فلمَّا كانَ مِن آخرِ الليلِ، قالَ سَلْمانُ: قُمِ الآنَ. فقاما فصَلَّيا. فقالَ سَلْمانُ: إنَّ لِنفسِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لضيفِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقًّا، فأعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ. فأتيا النَّبيَّ ﷺ، فذَكَرا ذلكَ لهُ، فقالَ: «**صدَقَ سَلْمانُ**»(٣). وفي روايةٍ في غيرِ الصَّحيحِ، قالَ: «**ثَكِلَتْ سَلْمانَ أُمُّهُ! لقد أُشْبِعَ مِن العلمِ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

(٤) أخرجها الطبراني في الأوسط (٧٦٣٧). وفي هذه الرواية مَدحٌ لسلمان وتعجبٌ من علمه وحكمته، أما كلمة (ثكلته أمه) فليس فيها بأس، فإنها تُطلق ولا يراد بها معناها، ومثلها قولهم: تربت يداك ونحوها من الكلمات.

وهكذا قالَ النَّبيُّ ﷺ لعبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ لمَّا كانَ يَصومُ الدَّهْرَ، فنَهاهُ وأَمَرَهُ أنْ يَصومَ صومَ داودَ، يَصومَ يومًا ويُفطِرَ يومًا. وقالَ لهُ: **«لا أفضلَ مِن ذلكَ»**(١).

فأفضلُ الصَّومِ ألَّا يُضْعِفَ البدنَ حتَّى يَعْجِزَ عمَّا هوَ أفضلُ منهُ، مِن القيامِ بحقوقِ اللهِ أو حقوقِ عبادِهِ اللازمةِ، فإنْ أضْعَفَ عن شيءٍ مِن ذلكَ ممَّا هوَ أفضلُ منهُ، كانَ تركُهُ أفضَلَ.

فالأوَّلُ: مثلُ أنْ يُضْعِفُ الصِّيامُ البدنَ عنِ الصَّلاةِ أو عنِ الذِّكرِ أو العلمِ، كما قيلَ في النَّهيِ عن صيامِ الجمعةِ ويومِ عرفةَ بعرفةَ: إنَّهُ يُضْعِفُ عنِ الذِّكرِ والدُّعاءِ في هذينِ اليومينِ. وكانَ ابنُ مَسْعودٍ يُقِلُّ الصِّيامَ ويَقولُ: إنَّهُ يَمْنَعُني مِن قراءةِ القرآنِ، وقراءةُ القرآن أحبُّ إليَّ.

فقراءةُ القرآنِ أفضلُ مِن الصِّيامِ. نَصَّ عليهِ سُفيانُ الثَّوريُّ وغيرُهُ مِن الأئمةِ. وكذلكَ تعلُّمُ العلمِ النَّافعِ وتعليمُهُ أفضلُ مِن الصِّيامِ.

وقد نَصَّ الأئمَّةُ الأربعةُ على أنَّ طلبَ العلمِ أفضلُ مِن صلاةِ النَّافلةِ، والصَّلاةُ أفضلُ مِن الصِّيامِ المتطوَّعِ بهِ، فيَكونُ العلمُ أفضلَ مِن الصِّيامِ بطريقِ الأَوْلى، فإنَّ العلمَ مصباحٌ يُسْتَضاءُ بهِ في ظلمةِ الجهلِ والهوى، فمَنْ سارَ في طريقٍ على غيرِ مصباحٍ، لم يأمَنْ أنْ يَقَعَ في بئرٍ بوارٍ فيَعْطَبَ. قالَ ابنُ سِيرينَ: إنَّ قومًا تَرَكوا العلمَ واتَّخذوا محاريبَ فصاموا وصَلَّوا بغيرِ علمٍ، واللهِ؛ ما عَمِلَ أحدٌ بغيرِ علمٍ إلَّا كانَ ما يُفْسِدُ أكثرَ ممَّا يُصْلِحُ.

والثَّاني: مثلُ أنْ يُضْعِف الصِّيامُ عنِ الكسبِ للعيالِ أوِ القيامِ بحقوقِ الزَّوجاتِ، فيَكون تركُهُ أفضلَ. وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ ﷺ: **«وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقًّا»**.

ومنها: ما أشارَ إليهِ ﷺ بقولِهِ: **«إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقًّا... فأعطِ كلَّ ذي**

---

(١) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين.

حقٍّ حقَّهُ»؛ يُشيرُ إلى أنَّ النَّفسَ وديعةٌ للهِ عندَ ابنِ آدَمَ، وهوَ مأمورٌ أنْ يَقومَ بحقِّها، ومِن حقِّها اللطفُ بها حتَّى توصِلَ صاحِبَها إلى المنزلِ.

قالَ الحَسَنُ: نفوسُكُم مطاياكُم إلى ربِّكُم، فأصْلِحوا مطاياكُم توصِلْكُم إلى ربِّكُم.

فمَن وَفَّى نفسَهُ حظَّها مِن المباحِ بنيَّةِ التَّقوِّي بهِ على أعمالِ الطَّاعاتِ، كانَ مأجورًا في ذلكَ، كما قالَ مُعاذٌ: إنِّي أحْتَسِبُ نومتي كما أحْتَسِبُ قومتي. ومَن قَصَّر في حقِّها حتَّى ضَعُفَتْ وتَضَرَّرَتْ، كانَ ظالمًا لها. وإلى هذا أشارَ ﷺ بقولِهِ لعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو: «**إنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلكَ نَفِهَتْ لهُ النَّفسُ وهَجَمَتْ له العينُ**»[1]. ومعنى نَفِهَتْ: كلَّتْ وأعْيَتْ. ومعنى هَجَمَتِ العينُ: غارَتْ.

فمَن عَذَّبَ نفسَهُ بأنْ حَمَّلَها ما لا تُطِيقهُ مِن الصِّيامِ ونحوِهِ، فربَّما أثَّرَ ذلكَ في ضعفِ بدنِهِ وعقلِهِ، فيَفوتُهُ مِن الطَّاعاتِ الفاضلةِ أكثرُ ممَّا يَحْصُلُ لهُ بتعذيبِهِ نفسَهُ بالصِّيامِ.

وكانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَوَسَّطُ في إعطاءِ نفسِهِ حقَّها ويَعْدِلُ فيها غايَةَ العدلِ: فيَصومُ ويُفْطِرُ، ويَقومُ ويَنامُ، ويَنْكِحُ النِّساءَ، ويأْكُلُ ممَّا يَجِدُ مِن الطَّيِّباتِ كالحلواءِ والعسلِ ولحمِ الدَّجاجِ. وتارةً يجوعُ حتَّى يَرْبِطَ على بَطنِهِ الحجرَ.

فاخْتارَ ﷺ لنفسِهِ أفضلَ الأحوالِ، لِيَجْمَعَ بينَ مقامي الشُّكرِ والصَّبرِ والرِّضى.

فمَن عَمِلَ عملًا يَقْوى عليهِ بدنُهُ في طولِ عمرِهِ في قوَّتِهِ وضعفِهِ، اسْتَقامَ سيرُهُ. ومَن حَمَلَ ما لا يُطيقُ، فإنَّهُ قد يَحدُثُ لهُ مرضٌ يمْنَعُهُ مِن العملِ بالكلِّيَّةِ

---

(١) هذا جزء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي أخرجه البخاري ومسلم، ومعناه: أنَّ الذي يصوم الدهر أو يقوم كل الليل يُتعب نفسه إتعابًا شديدًا فتملّ وتكلّ ولا تستطيع الإتيان ببقية الأعمال الصالحة.

وقد يَسْأمُ ويَضجَرُ فيَقْطَعُ العملَ فيَصيرُ كالمُنْبَتِّ لا أرضًا قطَعَ ولا ظهرًا أبْقى.

وأمَّا صيامُ النَّبيِّ ﷺ مِن الأيَّامِ، أعْني: أيَّامَ الأسبوعِ، فكانَ يَتحَرَّى صيامَ الاثنينِ والخميسِ.

وكذا رُوِيَ عن عائِشَةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَتحَرَّى صيام الاثنينِ والخميسِ. خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والنسائِيُّ وابنُ ماجَهْ والتِّرْمِذِيُّ وحَسَّنَهُ.

وخَرَّجَ ابنُ ماجَهْ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يَصومُ الاثنينِ والخميسَ. فقيلَ: يا رسولَ اللهِ! إنَّكَ تصومُ الاثنينِ والخميسَ؟ فقالَ: **«إنَّ يومَ الاثنينِ والخميسِ يَغْفِرُ اللهُ فيهِما لكلِّ مسلمٍ، إلَّا للمتهاجرينِ، فيَقولُ: دَعوهُما حتَّى يَصْطَلِحا»**[١].

وأكثرُ العلماءِ على استحبابِ صيامِ الاثنينِ والخميسِ.

وأمَّا صيامُ النَّبيِّ ﷺ مِن أشهرِ السَّنَةِ، فكانَ يَصومُ مِن شعبانَ ما لا يَصومُ مِن غيرِهِ مِن الشُّهورِ.

ففي الصَّحيحينِ عن عائشَةَ، قالَتْ: ما رَأيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صيامَ شهرٍ قطُّ إلَّا رمضانَ، وما رأيتُهُ في شهرٍ أكثرَ صيامًا منهُ في شعبانَ[٢]. زادَ البُخاريُّ في روايةٍ: كانَ يَصومُ شعبانَ كلَّهُ. ولمسلمٍ في روايةٍ: كانَ يَصومُ شعبانَ كلَّهُ، كانَ يَصومُ شعبانَ إلَّا قليلًا. وفي روايةٍ للنّسائيِّ عن عائِشَةَ، قالَتْ: كانَ أحبَّ الشُّهورِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يَصومَ شعبانُ، كانَ يَصِلُهُ برمضانَ.

وقدْ رَجَّحَ طائفةٌ مِن العلماءِ ـ منهُمُ ابنُ المبارَكِ وغيرُهُ ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمْ يَسْتَكمِلْ صيامَ شعبانَ، وإنَّما كانَ يصومُ أكثرَهُ.

وفي الصَّحيحينِ عنِ ابنِ عبَّاسٍ؛ قالَ: ما صامَ رسولُ اللهِ ﷺ شهرًا

---

(١) تقدَّم تخريج هذه الأحاديث الثلاثة.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦).

كاملًا غيرَ رمضانَ. وكانَ ابنُ عبَّاسٍ يَكْرَهُ أنْ يَصومَ شهرًا كاملًا غيرَ رمضانَ[١].

فإنْ قيلَ: فقد قالَ ﷺ: «**أفضلُ الصِّيامُ صيامُ داودَ، كانَ يَصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا**»، ولم يَصُمْ كذلكَ، بل كانَ يَصومُ سردًا ويُفْطِرُ سردًا، ويَصومُ شعبانَ وكلَّ اثنينِ وخميسٍ. قيلَ: صيامُ داودَ الذي فَضَّلَهُ على الصِّيامِ قد فَسَّرَهُ ﷺ في حديثٍ آخرَ بأنَّه صومُ شطرِ الدَّهرِ، وكانَ صيامُ النَّبيِّ ﷺ إذا جُمِعَ يَبْلُغُ صيامَ نصفِ الدَّهرِ أو يَزيدُ عليهِ، وقد كانَ يصومُ معَ ما سَبَقَ ذكرُهُ يومَ عاشوراءَ وتسعَ ذي الحِجَّةِ، وإنَّما كانَ يُفَرِّقُ صيامَهُ ولا يَصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا؛ لأنَّه ﷺ كانَ يَتحرَّى صيامَ الأوقاتِ الفاضلةِ، ولا يَضُرُّ تفريقُ الصِّيامِ والفطرِ أكثرَ مِن يومٍ ويومٍ إذا كانَ القصدُ بهِ التَّقَوِّيَ على ما هوَ أفضلُ مِن الصِّيامِ مِن أداءِ الرِّسالةِ وتبليغِها والجهادِ عليها والقيامِ بحقوقِها، وكانَ صيامُ يومٍ وفطرُ يومٍ يُضعِفُهُ عن ذلكَ. ولهذا لمَّا سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ في حديثِ أبي قَتادَةَ عمَّن يَصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومينِ، قالَ: «**وَدِدْتُ أنِّي طُوِّقْتُ ذلكَ**»[٢]. **وقد كانَ عبدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ العاصِ لمَّا كَبرَ يَسْرُدُ الفطرَ أحيانًا ليَتقَوَّى بهِ على الصِّيامِ ثمَّ يَعودُ فيَصومُ ما فاتَهُ؛ محافظةً على ما فارَقَ عليهِ النَّبيَّ ﷺ مِن صيامِ شطرِ الدَّهرِ. فحَصَلَ للنَّبيِّ ﷺ أجرُ صيامِ شطرِ الدَّهرِ وأزيدُ منهُ بصيامِهِ المتفرِّقِ، وحَصَلَ لهُ ﷺ أجرُ تتابعِ الصِّيامِ بتمنِّيهِ لذلكَ، وإنَّما عاقَهُ عنهُ الاشتغالُ بما هوَ أهمُّ منهُ وأفضلُ. واللهُ أعلمُ.**

وفي قولِهِ ﷺ: «**يَغْفلُ النَّاسُ عنهُ بينَ رجبٍ ورمضانَ**»؛ إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ ما يَشْتَهِرُ فضلُهُ مِن الأزمانِ أوِ الأماكنِ أوِ الأشخاصِ قد يكونُ غيرُهُ أفضلَ منهُ إمَّا مطلقًا أو لخصوصيَّةٍ فيهِ لا يَتَفَطَّنُ لها أكثرُ النَّاسِ فيَشْتَغِلونَ

(١) أخرجه البخاري (١٩٧١)، ومسلم (١١٥٧).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢). ومعنى طُوِّقتُ ذلك: أي أطقتُه وقدرتُ عليه.

بالمشهورِ عنهُ ويُفَوِّتونَ تحصيلَ فضيلةِ ما ليسَ بمشهورٍ عندَهُم.

وفيه دليلٌ على استحبابِ عمارةِ أزمانِ غفلةِ النَّاسِ بالطَّاعةِ، وأنَّ ذلكَ محبوبٌ للهِ ﷻ، كما كانَ طائفةٌ مِن السَّلفِ يَسْتَحِبُّونَ إحياءَ ما بينَ العشاءينِ بالصَّلاةِ ويقولونَ: هيَ ساعةُ الغفلةِ، وكذلكَ فضلُ القيامِ في وسطِ الليلِ لشمولِ الغفلةِ لأكثرِ النَّاسِ فيهِ عن الذِّكرِ، وقد قالَ ﷺ: «**إنِ استطَعْتَ أنْ تكونَ ممَّن يَذْكُرُ اللهَ في تلكَ السَّاعةِ فكُنْ**». ولهذا المعنى كانَ النَّبيُّ ﷺ يُريدُ أنْ يُؤخِّرَ العشاءَ إلى نصفِ الليلِ، وإنَّما عَلَّلَ تركَ ذلكَ بخشيةِ المشقَّةِ على النَّاسِ. ولمَّا خَرَجَ ﷺ على أصحابِهِ وهُم يَنْتَظِرونَهُ لصلاةِ العشاءِ، قالَ لهُم: «**ما يَنْتَظِرُها أحدٌ مِن أهلِ الأرضِ غيرُكُم**»(١). وفي هذا إشارةٌ إلى فضيلةِ التَّفرُّدِ بذكرِ اللهِ في وقتٍ من الأوقاتِ لا يوجَدُ فيهِ ذاكرٌ لهُ.

وفي إحياءِ الوقتِ المغفولِ عنهُ بالطَّاعةِ فوائدُ.

منها: أنَّهُ يَكونُ أخفى، وإخفاءُ النَّوافِلِ وإسْرارُها أفضلُ، ولا سيَّما الصِّيامُ؛ فإنَّه سرٌّ بينَ العبدِ وربِّهِ، ولهذا قيلَ: إنَّه ليسَ فيهِ رياءٌ.

وقد صامَ بعضُ السَّلفِ أربعينَ سنةً لا يَعْلَمُ بهِ أحدٌ، كانَ يَخْرُجُ مِن بيتِهِ إلى السُّوقِ ومعَهُ رغيفانِ، فيَتَصَدَّقُ بِهِما ويَصومُ، فيَظُنُّ أهلُهُ أنَّهُ أكلهُما، ويَظُنُّ أهلُ السُّوقِ أنَّهُ أكَلَ في بيتِهِ.

وكانُوا يَسْتَحِبُّونَ لمَن صامَ أنْ يُظْهِرَ ما يُخْفي بهِ صيامَهُ.

فعنِ ابنِ مَسْعودٍ قالَ: إذا أصبحْتُمْ صيامًا، فأصْبِحوا مدَّهنين.

وقالَ قتادَةُ: يُسْتحَبُّ للصَّائمِ أنْ يَدَّهِنَ حتَّى تَذْهَبَ عنهُ غُبْرَةُ الصِّيامِ.

وقالَ أبو التَّيَّاحِ: أدرَكْتُ أبي ومشيخةَ الحيِّ إذا صامَ أحدُهُم ادَّهَنَ ولَبِسَ أحسنَ ثيابِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠)، ومسلم (٦٣٦).

ويُروى أنَّ عيسى بنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ: إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُمْ، فلْيَدْهَنْ لحيتَهُ ولْيَمْسَحْ شفتيهِ مِن دهنِهِ حتَّى يَنْظُرَ النَّاظِرُ إليهِ فيَرى أنَّهُ ليسَ بصائمٍ.

كم يَسْتُرُ الصَّادقونَ أحوالَهُم وريحُ الصِّدقِ يَنُمُّ عليهِم.

ريحُ الصِّيامِ أطيبُ مِن ريحِ المسكِ، تَسْتَنْشِقُهُ قلوبُ المؤمنينَ وإنْ أُخْفِيَ، وكلَّما طالَتْ عليه المدَّةُ، ازدادَت قوَّةُ ريحِهِ.

ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أَلْبَسَهُ اللهُ رداءَها علانيةً.

وَهَبْني كَتَمْتُ السِّرَّ أوْ قُلْتُ غَيْرَهُ ... أَتَخْفى عَلى أهلِ القُلوبِ السَّرائِرُ
أبى ذاكَ أنَّ السِّرَّ في الوَجْهِ ناطِقٌ ... وأنَّ ضميرَ القَلْبِ في العَيْنِ ظاهِرُ

ومِنها: أنَّهُ أشقُّ على النُّفوسِ، وأفضلُ الأعمالِ أشقُّها على النُّفوسِ. وسببُ ذلكَ أنَّ النُّفوسَ تتأسَّى بما تُشاهِدُهُ مِن أحوالِ أبناءِ الجنسِ، فإذا كَثُرَتْ يَقَظَةُ النَّاسِ وطاعاتُهُم؛ كَثُرَ أهلُ الطَّاعةِ لكثرةِ المقتدينَ بهِم، فسَهُلَتِ الطَّاعاتُ. وإذا كَثُرتِ الغفلاتُ وأهلُها، تَأسَّى بهِم عُمومُ النَّاسِ، فيَشُقُّ على نفوسِ المتيقِّظينَ طاعاتُهُم، لقلَّةِ مَن يَقْتَدونَ بهِم فيها.

ولهذا المعنى قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**للعاملِ منهُم أجرُ خمسينَ منكُم، إنَّكُم تَجِدونَ على الخيرِ أعوانًا ولا يَجِدونَ**»[١].

وقال ﷺ: «**بَدَأَ الإسلامُ غريبًا، وسَيَعودُ غريبًا كما بدأَ، فطوبى للغرباءِ**»[٢]. وفي روايةٍ: قيلَ: ومَنِ الغرباءُ؟ قالَ: «**الذينَ يُصْلِحونَ إذا فَسَدَ النَّاسُ**».

وفي «صحيح مسلم»: مِن حديثِ: مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**العبادةُ في الهَرْجِ كالهجرةِ إليَّ**»[٣]. وخَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ، ولفظُهُ: «**العبادةُ في الفتنةِ كالهجرةِ إليَّ**».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وأخرج الحاكم قوله: (للعامل منهم أجر خمسين) وقال: صحيح الإسناد.
(٢) أخرجه مسلم (١٤٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

وسببُ ذلكَ أنَّ النَّاسَ في زمنِ الفتنِ يَتَّبِعونَ أهواءَهُم، ولا يَرجِعونَ إلى دينٍ، فيَكونُ حالُهُم شبيهًا بحالِ الجاهليَّةِ، فإذا انفَرَدَ مِن بينِهِم مَن يَتَمَسَّكُ بدينِهِ ويَعْبُدُ ربَّهُ ويَتَّبِعُ مراضِيَهُ ويَجْتَنِبُ مساخطَهُ، كانَ بمنزلةِ مَن هاجَرَ مِن بينِ أهلِ الجاهليَّةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مؤمنًا بهِ متَّبِعًا لأوامرِهِ مجتنبًا لنواهيهِ.

ومنها: أنَّ المنفردَ بالطَّاعَةِ بينَ أهلِ المعاصي والغفلةِ قد يُدْفَعُ بهِ البلاءُ عنِ النَّاسِ كلِّهِم، فكأنَّهُ يَحْمِيهِم ويُدافِعُ عنهُم.

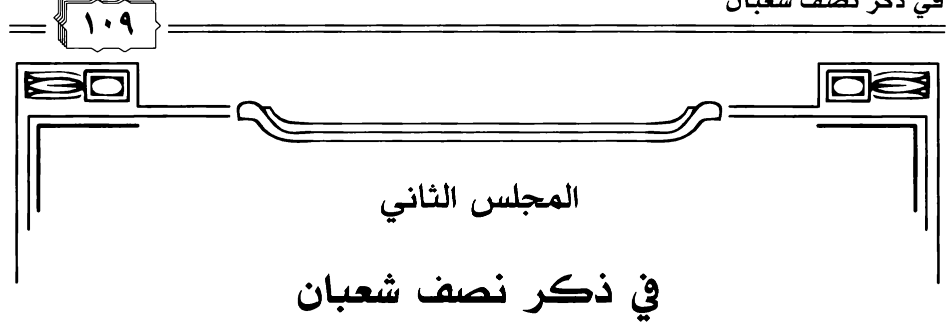
فصْلٌ

مَن كانَ عليهِ شيءٌ مِن قضاءِ رمضانَ؛ وَجَبَ عليهِ قضاؤُهُ معَ القدرةِ، ولا يَجوزُ لهُ تأْخِيرُهُ إلى ما بعدَ رمضانَ آخرَ لغيرِ ضرورةٍ. فإنْ فعَلَ ذلك وكانَ تأْخيرُهُ لعذرٍ مستمرٍ بينَ الرَّمضانينِ، كان عليهِ قضاؤُهُ بعدَ رمضانَ الثَّاني، ولا شيءَ عليهِ معَ القضاءِ. وإنْ كانَ لغيرِ عذرٍ: فقيلَ: يَقْضي ويُطْعِمُ معَ القضاءِ لكلِّ يومٍ مسكينًا، وهوَ قولُ مالِكٍ والشَّافعيِّ وأحْمَدَ اتِّباعًا لآثارٍ ورَدَتْ بذلكَ. وقيلَ يَقْضي ولا إطعامَ عليهِ، وهوَ قولُ أبي حنيفةَ.

يا مَن فَرَّطَ في الأوقاتِ الشَّريفةِ وضَيَّعها وأوْدَعَها الأعمالَ السَّيِّئَةَ، وبئسَ ما اسْتَوْدَعَها!

مَضى رَجَبٌ وما أحْسَنْتَ فيهِ ... وهذا شَهْرُ شَعْبانَ المُبارَكْ
فيا مَنْ ضَيَّعَ الأوْقاتَ جَهْلًا ... بِحُرْمَتِها أفِقْ وَاحْذَرْ بَوارَكْ
فَسَوْفَ تُفارِقُ اللَّذَّاتِ قَهْرًا ... وَيُخْلي المَوْتُ كَرْهًا مِنْكَ دارَكْ
تَدارَكْ ما اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطايا ... بِتَوْبَةِ مُخْلِصٍ وَاجْعَلْ مَدارَكْ
عَلى طَلَبِ السَّلامَةِ مِنْ جَحِيمٍ ... فَخَيْرُ ذوي الجَرائِمِ مَنْ تَدارَكْ

۞ ۞ ۞



المجلس الثاني

في ذكر نصف شعبان

خَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ وأبو داودَ والتِرْمِذِيُّ مِن حديثِ: العَلاءِ بنِ عَبْدِ الرَّحمٰنِ، عن أبيهِ، عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**إذا انْتَصَفَ شعبانُ، فلا تَصوموا حتَّى رمضانَ**»[1]. وصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وغيرُهُ.

واخْتَلَفَ العلماءُ في صِحَّةِ هذا الحديثِ ثمَّ في العملِ بهِ:

فأمَّا تصحيحُهُ، فصَحَّحَهُ غيرُ واحدٍ، منهُمُ التِّرْمِذِيُّ وابنُ حِبَّانَ والحاكِمُ والطَّحاويُّ وابنُ عَبْدِ البَرِّ، وتكَلَّمَ فيهِ مَن هوَ أكبرُ مِن هؤلاءِ وأعلمُ وقالوا: هوَ حديثٌ مُنْكرٌ، منهُم عبْدُ الرَّحمٰنِ بنُ مَهْدِيٍّ والإمامُ أحْمَدُ وأبو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ والأثْرَمُ. وقالَ أحْمَدُ: لمْ يَرْوِ العلاءُ حديثًا أنكرَ منهُ. ورَدَّهُ بحديثِ «لا تَقَدَّموا رمضانَ بصومِ يومٍ أو يومينِ»، فإنَّ مفهومَهُ جوازُ التَّقدُّمِ بأكثرَ مِن يومينِ. وقالَ الأثْرَمُ: الأحاديثُ كلُّها تُخالِفُهُ. يُشيرُ إلى أحاديثِ صيامِ النَّبيِّ ﷺ شعبانَ كلَّهُ ووصلِهِ برمضانَ ونهيهِ عنِ التَّقَدُّمِ على رمضانَ بيومينِ، فصارَ الحديثُ حينئذٍ شاذًا مخالفًا للأحاديثِ الصَّحيحةِ. وقالَ الطَّحاويُّ: هوَ منسوخٌ. وحَكَى الإجماعَ على تركِ العملِ بهِ. وأكثرُ العلماءِ على أنَّهُ لا يُعْمَلُ بهِ.

هذا كلُّهُ في الصِّيامِ بعدَ نصفِ شعبانَ.

فأمَّا صيامُ يومِ النِّصْفِ منهُ، فغيرُ منهيٍ عنهُ، فإنَّهُ مِن جملةِ أيَّامِ البيضِ الغرِّ المندوبِ إلى صيامِها مِن كلِّ شهرٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٧٠٧)، وأبو داود (٢٣٣٧)، والترمذي (٧٣٨)، ودرجته مبيَّنة في كلام المؤلف رحمه الله، وخلاصة القول فيه أنَّه حديث منكر.

وفي فضلِ ليلةِ نصفِ شعبانَ أحاديثُ أُخَرُ متعدِّدَةٌ، وقدِ اختُلِفَ فيها، فضَعَّفَها الأكثرونَ، وصَحَّحَ ابنُ حِبَّانَ بعضَها وخرَّجَهُ في «صحيحه».

وليلةُ النِّصفِ مِن شعبانَ كانَ التَّابعونَ مِن أهلِ الشَّامِ كخالِدِ بنِ مَعْدانَ ومَكْحولٍ ولُقْمانَ بنِ عامِرٍ وغيرِهِم يُعَظِّمونَها ويَجْتَهدونَ فيها في العبادةِ، وعنهُم أخذَ النَّاسُ فضلَها وتعظيمَها، وقد قيلَ: إنَّهُ بَلَغَهُم في ذلكَ آثار إسرائيليَّةٌ. فلمَّا اشْتَهَرَ ذلكَ عنهُم في البلدانِ، اختَلَفَ النَّاسُ في ذلكَ، فمنهُم مَن قَبِلَهُ منهُم ووافَقَهُم على تعظِيمِها ـ منهُم طائفةٌ مِن عُبَّادِ أهلِ البصرةِ وغيرِهِم ـ، وأنْكَرَ ذلكَ أكثرُ العلماءِ مِن أهلِ الحجازِ ـ منهُم عطاءٌ وابنُ أبي مُلَيْكَةَ، ونَقَلَهُ عبْدُ الرَّحمنِ بنُ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عن فقهاءِ أهلِ المدينةِ، وهوَ قولُ أصحابِ مالِكٍ وغيرِهِم ـ وقالوا: ذلكَ كُلُّهُ بدعةٌ.

ويَتَعَيَّنُ على المسلمِ أنْ يَتَجَنَّبَ الذُّنوبَ التي تَمْنَعُ مِن المغفرةِ وقبولِ الدُّعاءِ في تلكَ الليلةِ. وقد رُوِيَ أنَّها: الشِّركُ، وقتلُ النَّفسِ، والزِّنى. وهذهِ الثَّلاثةُ أعظمُ الذُّنوبِ عندَ اللهِ ﷻ، كما في حديثِ ابنِ مَسْعودٍ المتَّفقِ على صحَّتِهِ، أنَّهُ سَألَ النَّبيَّ ﷺ: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ؟ قالَ: «**أن تَجْعَلَ للهِ ندًّا وهوَ خَلَقَكَ**». قالَ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: «**أنْ تَقْتُلَ ولدَكَ خشيَةَ أنْ يَطْعَمَ معَكَ**». قالَ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: «**أن تُزانِيَ حليلةَ جارِكَ**». فأنزَلَ اللهُ تعالَى تصديق ذلكَ: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾**﴾ [الفرقان: ٦٨][(١)].

ومِن الذُّنوبِ المانعةِ مِن المغفرةِ أيضًا الشَّحناءُ، وهيَ حقدُ المسلمِ على أخيهِ بغضًا لهُ لهوى نفسهِ، وذلكَ يَمْنَعُ أيضًا مِن المغفرةِ في أكثرِ أوقاتِ المغفرةِ والرَّحمةِ، كما في «صحيح مسلم»: عن أبي هُرَيْرَةَ مرفوعًا: «تُفْتَحُ أبوابُ الجنَّةِ يومَ الاثنينِ والخميسِ، فيُغْفَرُ لكلِّ عبدٍ لا يُشْرِكُ باللهِ شيئًا، إلا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

رجلًا كانَتْ بينَهُ وبينَ أخيهِ شحناءُ، يُقالُ: أنْظِروا هذينِ حتَّى يَصْطَلِحا»(١).

فأفضلُ الأعمالِ: سلامةُ الصَّدرِ مِن أنواعِ الشَّحناءِ كلِّها، وأفضلُها السَّلامةُ مِن شحناءِ أهلِ الأهواءِ والبدعِ التي تَقْتَضِي الطَّعْنَ على سلفِ الأُمَّةِ وبغضَهُم والحقدَ عليهِم واعتقادَ تكفيرِهِم أو تبديعِهِم وتضليلِهِم، ثمَّ يلي ذلكَ سلامةُ القلبِ مِن الشَّحناءِ لعمومِ المسلمينَ وإرادةُ الخيرِ لهُم ونصيحتُهُم وأنْ يُحِبَّ لهُم ما يُحِبُّ لنفسِهِ.

وقد وَصَفَ اللهُ المؤمنينَ عمومًا بأنَّهُم يَقولونَ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي «المسند»: عن أنَس؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لأصحابِهِ ثلاثةَ أيَّامٍ: «**يَطْلُعُ عليكُمُ الآنَ رجلٌ مِن أهلِ الجنَّةِ**». فيَطْلُعُ رجلٌ واحدٌ. فاستضافَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو، فنامَ عندَهُ ثلاثًا لِيَنْظُرَ عملَهُ، فلم يَرَ لهُ في بيتِهِ كثيرَ عملٍ، فأخْبَرَهُ بالحالِ، فقالَ لهُ: هوَ ما تَرى، إلَّا أنِّي أبيتُ وليسَ في قلبي شيءٌ على أحدٍ مِن المسلمينَ. فقالَ عبْدُ اللهِ: بهذا بَلَغ ما بَلَغَ(٢).

وفي «سنن ابن ماجَهْ»: عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو؛ قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللهِ! أيُّ النَّاسِ أفضلُ؟ قالَ: «**كلُّ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ**». قالوا: صدوقُ اللسانِ نَعْرِفُهُ، فما مخمومُ القلبِ؟ قالَ: «**هوَ التَّقِيُّ النَّقيُّ الذي لا إِثْمَ فيهِ ولا بغيَ ولا غلَّ ولا حسدَ**»(٣).

قالَ بعضُ السَّلفِ: أفضلُ الأعمالِ سلامةُ الصُّدورِ وسخاوةُ النُّفوسِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥)، ومعنى: أنظروا أي: أخِّروا وأجِّلوا.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٦٩٧). قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/١٨٣٦): رواه أحمد بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، وقال البوصيري: إسناده صحيح.

والنَّصيحةُ للأُمَّةِ. وبهذهِ الخصالِ بَلَغَ مَن بَلَغَ لا بكثرةِ الاجتهادِ في الصَّومِ والصَّلاةِ.

إخْواني! اجْتَنِبوا الذُّنوبَ التي تَحْرِمُ العبدَ مغفرةَ مولاهُ الغفَّار في مواسمِ الرَّحمةِ والتَّوبةِ والاستغفار. أمَّا الشِّرْكُ؛ فإنَّهُ ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأمَّا القتلُ؛ فلوِ اجتمعَ أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ على قتلِ رجلٍ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ؛ لأكَبَّهُمُ اللهُ جميعًا في النَّار. وأمَّا الزِّنى، فحذارِ حذارِ مِن التَّعرُّضِ لسخطِ الجبَّار، الخلقُ كلُّهُم عبيدُهُ وإماؤهُ واللهُ يَغار، لا أحدَ أغير مِن اللهِ أنْ يَزْنِي عبدُهُ أو تَزْنِيَ أمَتُهُ فمِن أجلِ ذلكَ حَرَّمَ الفواحشَ وأَمَرَ بغضِّ الأبصار. وأمَّا الشَّحناءُ؛ فيا مَن أضْمَرَ لأخيهِ السُّوءَ وقَصَدَ لهُ الإضرار! ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، يَكفيكَ حرمانُ المغفرةِ في أوقاتِ مغفرةِ الأوزار.

خابَ عَبْدٌ بارَزَ المَوْ ... لَى بِأَسْبابِ المَعاصي
وَيْحَهُ مِمَّا جَناهُ ... لَمْ يَخَفْ يَوْمَ القِصاصِ
يَوْمَ فيهِ تَرْعَدُ الأقْـ ... ـدامُ مِنْ شَيْبِ النَّواصي
لي ذُنوبٌ في ازْدِيادٍ ... وَحَياةٌ في انْتِقَاصِ
فَمَتى أعْمَلُ ما أعْـ ... ـلَمُ لي فيهِ خَلاصي

يا مغرورًا بطولِ الأمل! يا مسرورًا بسوءِ العمل! كُنْ مِن الموتِ على وَجَل، فما تَدْري متى يَهْجُمُ الأجل.

قالَ بعضُ السَّلفِ: كم مِن مستقبلٍ يومًا لا يَسْتَكْمِلُهُ، ومِن مؤمِّلٍ غدًا لا يُدْرِكُهُ، إنَّكُم لو رَأيْتُمُ الأجلَ ومسيرَهُ لأبغَضْتُمُ الأملَ وغرورَهُ.

أُؤَمِّلُ أنْ أُخَلَّدَ والمَنايا ... تَدورُ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ النَّواحي
ومَا أدْري وَإنْ أمْسَيْتُ يَومًا ... لَعَلِّي لا أعِيشُ إلى الصَّباحِ

كم مِمَّن راحَ في طلبِ الدُّنيا أو غَدا أَصْبَحَ مِن سُكَّانِ القبورِ غدا.

كَأَنَّكَ بِالمُضِيِّ إلى سَبيلِكْ ... وَقَدْ جَدَّ المُجَهِّزُ في رَحِيلِكْ
وَجِيءَ بِغاسِلٍ فَاسْتَعْجَلوهُ ... بِقَوْلِهِمُ لَهُ افْرَغْ مِن غَسيلِكْ
وَلَمْ تَحْمِلْ سِوى كَفَنٍ وَقُطْنٍ ... إِلَيْهِمْ مِنْ كَثيرِكَ أَوْ قَليلِكْ
وَقَدْ مَدَّ الرِّجالُ إِلَيْكَ نَعْشًا ... فَأَنْتَ عَلَيْهِ مَمْدودٌ بِطولِكْ
وَصَلَّوْا ثُمَّ إِنَّهُمُ تَداعَوْا ... لِحَمْلِكَ في بُكورِكَ أو أَصيلِكْ
فَلَمَّا أَسْلَموكَ نَزَلْتَ قَبْرًا ... وَمَنْ لَكَ بِالسَّلامَةِ في نُزولِكْ
أَعانَكَ يَومَ تَدْخُلُهُ رَحيمٌ ... رَؤوفٌ بِالعِبادِ عَلى دُخولِكْ
فَسَوْفَ تُجاوِرُ المَوْتَى طَويلًا ... فَذَرْني مِنْ قَصيرِكَ أو طَويلِكْ
أَخِي ها قَدْ نَصَحْتُكَ فَاسْتَمِعْ لي ... وَبِاللَّهِ اسْتَعَنْتُ عَلى قَبولِكْ
أَلَسْتَ تَرى المَنايا كُلَّ حينٍ ... تُصيبُكَ في أَخيكَ وفي خَليلِكْ

فصلٌ

ولربَّما ظَنَّ بعضُ الجهَّالِ أنَّ الفطرَ قبلَ رمضانَ في قولِهِ ﷺ: **«لا تقدموا رمضانَ بصومِ يومٍ ولا يومينِ»**، يُرادُ بهِ اغتنامُ الأكلِ، لتأخُذَ النُّفوسُ حظَّها مِن الشَّهواتِ قبلَ أَنْ تُمْنَعَ مِن ذلكَ بالصِّيامِ، ولهذا يقولونَ: هيَ أيَّامُ توديعٍ للأكلِ، وتُسَمَّى تَنحيسًا، واشتقاقُهُ مِن الأيَّامِ النَّحساتِ. ومَن قالَ هوَ تنهيسٌ بالهاءِ فهوَ خطأٌ منهُ. ذَكَرَهُ ابنُ دُرُسْتَوَيْهِ النَّحويُّ، وذَكَرَ أنَّ أصلَ ذلكَ مُتَلَقًّى مِن النَّصارى، فإنَّهُم يَفْعَلونَهُ عندَ قربِ صيامِهِم. وهذا كلُّهُ خطأٌ وجهلٌ ممَّن ظَنَّهُ. وربَّما لمْ يَقْتَصِرْ كثيرٌ منهُم على اغتنامِ الشَّهواتِ المباحةِ بل يَتَعَدَّى إلى المحرَّماتِ، وهذا هوَ الخسرانُ المبينُ.

وأَنْشَدَ بعضُهُم في المعنى:

إِذَا العِشْرُونَ مِنْ شَعْبانَ وَلَّتْ ... فَواصِلْ شُرْبَ لَيْلِكَ بِالنَّهارِ
وَلا تَشْرَبْ بِأَقْداحٍ صِغارٍ ... فإِنَّ الوَقْتَ ضاقَ عَلى الصِّغارِ

وقالَ آخرُ:

جاءَ شَعْبانُ مُنْذِرًا بِالصِّيامِ ... فاسْقِيانِي خمرًا بِماءِ الغَمامِ

وَمَن كانَتْ هذهِ حالهُ، فالبهائمُ أعقَلُ منهُ، ولهُ نصيبٌ مِن قولِهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهؤلاءِ السُّفهاءُ يَسْتَثْقِلونَ رمضانَ لاستثقالِهِمُ العباداتِ فيهِ مِن الصَّلاةِ والصِّيامِ. فكثيرٌ مِن هؤلاءِ الجهَّالِ لا يُصَلِّي إلَّا في رمضانَ إذا صامَ، وكثيرٌ منهُم لا يَجْتَنِبُ كبائرَ الذُّنوبِ إلَّا في رمضانَ، فيَطولُ عليهِ، ويَشُقُّ على نفسِهِ مفارقتُها لمألُوفِها، فهوَ يَعُدُّ الأيَّامَ والليالِيَ ليعودَ إلى المعصيةِ، وهؤلاءِ مصرُّونَ على ما فَعَلوا وهُم يَعْلَمونَ، فهُم هلكى، ومنهُم مَن لا يَصْبِرُ على المعاصي، فهوَ يواقِعُها في رمضانَ.

فمَن أرادَ اللهُ بهِ خيرًا حَبَّبَ إليهِ الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قلبِهِ وكَرَّهَ إليهِ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ فصارَ مِن الرَّاشدينَ، ومَن أرادَ بهِ شرًّا خلَّى بينَهُ وبينَ نفسِهِ فأتبَعَهُ الشَّيطانُ فحَبَّبَ إليهِ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ فكانَ مِن الغاوينَ.

الحذرَ الحذرَ مِن المعاصي! فكم سَلَبَتْ مِن نعمٍ! وكم جَلَبَتْ مِن نقمٍ! وكم خَرَّبَتْ مِن ديارٍ! وكم أخْلَتْ ديارًا مِن أهلِها فما بَقِيَ منهُم دَيَّار! كم أخذَتْ مِن العصاةِ بالثَّار! كم مَحَتْ لهُم مِن آثار!

يا صاحِبَ الذَّنْبِ لا تَأْمَنْ عَواقِبَهُ ... عَواقِبُ الذَّنْبِ تُخْشى وَهْيَ تُنْتَظَرُ
فَكُلُّ نَفْسٍ سَتُجْزى بِالَّذِي كَسَبَتْ ... وَلَيْسَ لِلْخَلْقِ مِن دَيَّانِهِمْ وَزَرُ

أينَ حالُ هؤلاءِ الحمقى مِن قومٍ كانَ دهرُهُم كلُّهُ رمضانَ، ليلُهُم قيامٌ ونهارُهُم صيامٌ؟!

باعَ قومٌ مِن السَّلفِ جاريةً، فلمَّا قَرُبَ شهرُ رمضانَ، رَأَتْهُمْ يَتأَهَّبونَ لهُ وَيَسْتَعِدُّونَ بالأطعمةِ وغيرِها، فسَأَلَتْهُم، فقالوا: نَتهَيَّأُ لصيامِ رمضانَ، فقالَتْ:

وأنتُم لا تَصومونَ إلَّا رمضانَ؟! لقد كُنْتُ عندَ قومٍ كلُّ زمانِهم رمضانُ، رُدُّوني عليهِم.

وباعَ الحَسَنُ بنُ صالحٍ جاريةً لهُ، فلمَا انتَصَفَ الليلُ، قامَتْ فنادَتْهُمْ: يا أهلَ الدَّارِ! الصَّلاةَ الصَّلاةَ! قالوا: أطَلَعَ الفجرُ؟ قالَتْ: وأنتُم لا تُصَلُّونَ إلَّا المكتوبةَ؟! ثمَّ جاءَتْ إلى الحَسَنِ فقالَتْ: بعْتَني على قومِ سوءٍ لا يُصَلُّونَ إلَّا الفرائضَ، رُدَّني رُدَّني.

قالَ بعضُ السَّلفِ: صُمِ الدُّنيا واجْعَل فطرَكَ الموتَ.

الدُّنيا كلُّها شهرُ صيامِ المتَّقينَ، يَصومونَ فيهِ عنِ الشَّهواتِ المحرَّماتِ، فإذا جاءَهُمُ الموتُ، فقدِ انقَضَى شهرُ صيامِهِم واسْتَهَلُّوا عيدَ فطرِهِم.

وَقَدْ صُمْتُ عَنْ لذَّاتِ دَهْرِيَ كُلِّها ... وَيَوْمَ لِقاكُمْ ذاكَ فِطْرُ صِيامِي

مَن صامَ اليومَ عن شهواتِهِ؛ أفْطَرَ عليها بعدَ مماتِهِ، ومَن تَعَجَّلَ ما حُرِّمَ عليهِ قبلَ وفاتِهِ، عوقِبَ بحرمانِهِ في الآخرةِ وفواتِهِ.

وشاهدُ ذلكُ: قولُهُ تَعالَى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ . .) [الأحقاف: ٢٠]. وقولُ النَّبيِّ ﷺ: «**مَن شَرِبَ الخمرَ في الدُّنيا، لمْ يَشْرَبْها في الآخرةِ**»، و«**مَن لَبِسَ الحريرَ في الدُّنيا، لمْ يَلْبسْهُ في الآخرةِ**»[1].

أنْتَ في دارِ شَتَاتٍ ... فَتَأَهَّبْ لِشَتَاتِكْ
وَاجْعَلِ الدُّنْيا كَيَوْمٍ ... صُمْتَهُ عَنْ شَهَواتِكْ
وَلْيَكُنْ فِطْرُكَ عِنْدَ الـ ... ـلَّهِ في يَوْمِ وَفاتِكْ

۞ ۞ ۞

(١) أخرجهما البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) عن ابن عمر رضي الله عنه.

وظائف شهر رمضان المعظَّم

وظائف شهر رمضان المعظَّم

كانَ النَّبيُّ ﷺ يُبَشِّرُ أصحابَهُ بقدومِ رمضانَ، كما خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والنّسائِيُّ عن أبي هُرَيْرَةَ، قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يُبَشِّرُ أصحابَهُ يَقولُ: «**قد جاءَكُمْ شهرُ رمضانَ، شهرٌ مباركٌ، كَتَبَ اللهُ عليكُم صيامَهُ، تُفْتَحُ فيهِ أبوابُ السَّماءِ، وتُغْلَقُ فيهِ أبوابُ الجحيمِ، وتُغَلُّ فيهِ الشَّياطينُ، فيهِ ليلةٌ خيرٌ مِن ألفِ شهرٍ، مَن حُرِمَ خيرَها فقدْ حُرِمَ**»[١].

قالَ بعضُ العلماءِ: هذا الحديثُ أصلٌ في تهنئةِ النَّاسِ بعضِهِم بعضًا بشهرِ رمضانَ.

كيفَ لا يُبَشَّرُ المؤمنُ بفتح أبوابِ الجنان؟ كيفَ لا يُبَشَّرُ المذنبُ بغلقِ أبوابِ النِّيران؟! كيف لا يُبَشَّرُ الغافلُ بوقتٍ يُغَلُّ فيهِ الشَّيطان؟! مِن أينَ يُشْبِهُ هذا الزَّمانَ زمان.

بلوغُ شهرِ رمضانَ وصيامُهُ نعمةٌ عظيمةٌ على مَن أقْدَرَهُ اللهُ عليهِ، ويَدُلُّ عليهِ حديثُ الثَّلاثةِ الذينَ استُشْهِدَ اثنانِ منهُم ثُمَّ ماتَ الثَّالثُ على فراشهِ بعدَهُما، فرُئيَ في المنامِ سابقًا لهُما، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أليسَ صَلَّى بعدَهُما كذا وكذا صلاةً وأَدْرَكَ رمضانَ فصامَهُ؟ فوالذي نفسي بيدِهِ، إنَّ بينَهُما لأبعدَ ممَّا بينَ السَّماءِ والأرضِ**». خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ وغيرُهُ[٢].

مَن رُحِمَ في شهرِ رمضانَ فهوَ المرحوم، ومَن حُرِمَ خيرَهُ فهوَ المحروم، ومَن لَمْ يَتَزَوَّدْ فيهِ لِمَعادِهِ فهوَ ملوم.

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٤٨)، والنسائي (٢١٠٦)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.
(٢) أخرجه أحمد (١٤٠٣)، وإسناده صحيح.

أتـى رَمـضـانُ مَـزْرَعَـةُ الـعِـبـادِ ... لِـتَـطْـهِـيـرِ الـقـلـوبِ مِـنَ الـفَـسـادِ
فَـأَدِّ حُـقـوقَـهُ قَـوْلًا وَفِـعـلًا ... وَزَادَكَ فَـاتَّـخِـذْهُ إلـى الـمـعـادِ
فـمَـنْ زَرَعَ الـحُـبـوبَ وَما سَقَـاهـا ... تَـأَوَّهَ نَـادِمًـا يَـوْمَ الـحَـصـادِ

يا مَن طالَتْ غيبتُهُ عنَّا! قدْ قَرُبَتْ أيَّامُ المصالحة. يا مَن دَامَتْ خسارتُهُ! قد أقْبَلَتْ أيَّامُ التِّجارةِ الرَّابحةِ

مَنْ لمْ يَرْبَحْ في هذا الشَّهرِ ففي أيِّ وقتٍ يَرْبَح؟! مَن لمْ يَقْرُبْ فيهِ مِن مولاهُ فهوَ على بُعدِهِ لا يَبْرَح.

كَمْ يُنادى حَيَّ على الفلاحِ وأنتَ خاسر! كم تُدْعى إلى الصَّلاحِ وأنتَ الفسادِ على مثابر!

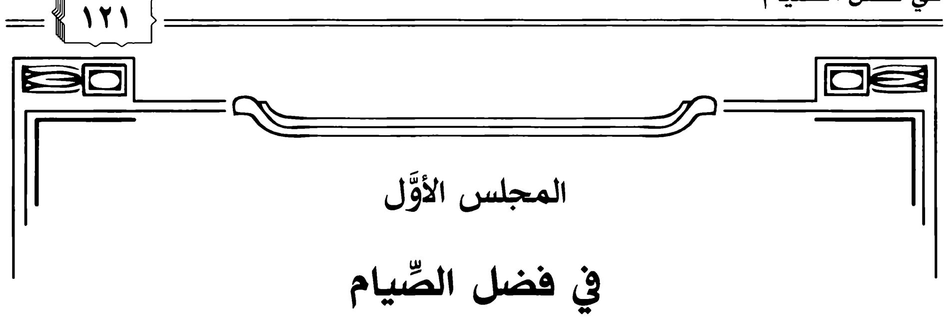
إذا رَمَـضـانُ أتـى مُـقْـبِـلًا ... فَـأَقْـبِـلْ فَـبِـالـخَـيْـرِ يُـسْـتَـقْـبَـلُ
لَـعَـلَّـكَ تُـخْـطِـئُـهُ قـابِـلًا ... وَتَـأْتِـي بِـعُـذْرٍ فـلا يُـقْـبَـلُ

كم ممَّن أمَّلَ أنْ يَصومَ هذا الشَّهر فخانَهُ أملُهُ فصارَ قبلَهُ إلى ظلمةِ القبر!

خَطَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ آخرَ خطبةٍ خَطَبَها فقالَ فيها: إنَّكُم لمْ تُخْلَقوا عبثًا، ولنْ تُتْرَكوا سدى، وإنَّ لكُم معادًا يَنْزِلُ اللهُ فيهِ للفصلِ بينَ عبادِهِ، فقد خابَ وخَسِرَ مَن خَرَجَ من رحمةِ اللهِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ وحُرِمَ جنَّةً عرضُها السَّماواتُ والأرضُ. ألا تَرَوْنَ أنَّكُم في أسلابِ الهالكينَ، وسَيَرِثُها بعدَكُمُ الباقونَ كذلكَ حتَّى تُرَدَّ إلى خيرِ الوارثينَ؟! وفي كلِّ يومٍ تُشَيِّعونَ غاديًا ورائحًا إلى اللهِ قد قَضى نحبَهُ وانْقَضى أجلُهُ، فتُوَدِّعونَهُ وتَدَعونَهُ في صدعٍ مِن الأرضِ غيرِ موسَّدٍ ولا ممهَّدٍ، قد خَلَعَ الأسبابَ وفارَقَ الأحبابَ وسَكَنَ التُّرابَ وواجَهَ الحسابَ، غنيًا عمَّا خَلَّفَ فقيرًا إلى ما أسْلفَ، فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ قبلَ نزولِ الموتِ وانقضاءِ مواقيتِهِ، وإنِّي لأقولُ لكُم هذهِ المقالَةَ وما أعلَمُ عندَ أحدٍ مِن الذُّنوبِ أكثرَ ممَّا أعلَمُ عِندي، ولكنِّي أسْتَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ. ثمَّ رَفَعَ طرفَ ردائِهِ وبَكى حتَّى شَهَقَ، ثمَّ نَزَلَ عنِ المنبرِ فما عادَ إلى المنبرِ بعدَها حتَّى ماتَ رحمةُ اللهِ عليهِ.

يا ذا الذي ما كَفاهُ الذَّنْبُ في رَجَبٍ حَتَّى عَصى رَبَّهُ في شَهْرِ شَعْبانِ
لَقَدْ أظَلَّكَ شَهْرُ الصَّوْمِ بَعْدَهُما فَلا تُصَيِّرْهُ أيْضًا شَهْرَ عِصْيانِ
وَاتْلُ القُرَانَ وَسَبِّحْ فيهِ مُجتَهِدًا فَإنَّهُ شَهْرُ تَسْبيحٍ وَقُرْآنِ
وَاحْمِلْ عَلى جَسَدٍ تَرْجو النَّجاةَ لَهُ فَسَوْفَ تُضْرَمُ أجْسامٌ بِنيرانِ
كَمْ كنْتَ تَعْرِفُ مِمَّنْ صامَ في سَلَفٍ مِنْ بَيْنِ أهلٍ وجيرانٍ وَإخوانِ
أفْناهُمُ المَوْتُ وَاسْتَبقاكَ بَعْدَهُمُ حَيًّا فَما أقْرَبَ القاصي مِنَ الدَّاني
وَمُعْجَبٍ بِثيابِ العيدِ يَقْطَعُها فَأصْبَحَتْ في غدٍ أثْوابَ أكْفانِ
حَتَّى مَتى يَعْمُرُ الإنْسانُ مَسْكَنَهُ مَصيرُ مَسْكَنِهِ قَبْرٌ لإنْسانِ





المجلس الأوَّل

في فضل الصِّيام

في الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ لهُ؛ الحسنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ. قالَ اللهُ ﷻ: إلَّا الصِّيامَ، فإنَّهُ لي وأنا أَجْزي بِهِ. إنَّهُ تَرَكَ شهوتَهُ وطَعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي. للصَّائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عند فطرِهِ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ. ولَخُلوفُ فمِ الصَّائمِ عندَ اللهِ أطيَبُ مِن ريحِ المسكِ**»(١). وفي روايةٍ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ لَهُ إلَّا الصِّيامَ فإنَّهُ لي**». وفي روايةٍ للبُخاريِّ: «**لكلِّ عملٍ كفَّارةٌ، والصَّومُ لي وأنا أَجْزي بهِ**». وخَرَّجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ مِن هذا الوجهِ ولفظُهُ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ كفَّارةٌ؛ إلَّا الصَّومَ، والصَّومُ لي، وأنا أَجْزي بهِ**».

فإنَّ الصِّيامَ مِن الصَّبرِ، وقد قالَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

والصَّبرُ ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعةِ اللهِ ﷻ، وصبرٌ عن محارمِ اللهِ، وصبرٌ على أقدارِ اللهِ المؤلمةِ. وتَجتَمعُ الثَّلاثةُ كلُّها في الصَّومِ، فإنَّ فيهِ صبرًا على طاعةِ اللهِ، وصبرًا عمَّا حَرَّمَ اللهُ على الصَّائمِ مِن الشَّهواتِ، وصبرًا على ما يَحْصُلُ للصَّائمِ فيه مِن ألمِ الجوعِ والعطشِ وضعفِ النَّفسِ والبدنِ.

وهذا الألمُ النَّاشئُ مِن أعمالِ الطَّاعاتِ يُثابُ عليهِ صاحبُهُ، كما قالَ تَعالَى في المجاهدينَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٢)، ومسلم (١١٥١).

كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

واعْلَمْ أنَّ مضاعفةَ الأجرِ للأعمالِ تكونُ بأسبابٍ:

منها: شرفُ المكانِ المعمولِ فيهِ ذلكَ العملُ، كالحرمِ.

ولذلكَ تُضاعَفُ الصَّلاة في مسجدَي مَكَّةَ والمَدينَةِ، كما ثَبَتَ ذلكَ في الحديثِ الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ مِن ألفِ صلاةٍ فيما سِواهُ مِن المساجدِ إلَّا المسجدَ الحرامَ**»[1]. وفي روايةٍ: «**فإنَّهُ أفضلُ**».

ومنها: شرفُ الزَّمانِ، كشهرِ رمضانَ وعشرِ ذي الحجَّةِ.

وقد يُضاعَفُ الثَّوابُ بأسبابٍ أُخَرَ منها: شرفُ العاملِ عندَ اللهِ وقربُهُ منهُ وكثرةُ تقواهُ، كما ضوعِفَ أجرُ هذهِ الأمَّةِ على أُجورِ مَن قبلَهُم مِن الأُمَمِ وأُعْطُوا كفلينِ مِن الأجرِ.

وأمَّا قولُهُ: «فإنَّهُ لي»؛ فإنَّ اللهَ خَصَّ الصّيامَ بإضافتِهِ إلى نفسِه دونَ سائرِ الأعمالِ، وقد كَثُرَ القولُ في معنى ذلكَ، ومِن أحسنِ ما ذُكِرَ فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما: أنَّ الصِّيامَ هوَ مجرَّدُ تركِ حظوظِ النَّفسِ وشهواتِها الأصليَّةِ التي جُبِلَتْ على الميلِ إليها للهِ ﷻ، ولا يوجَدُ ذلكَ في عبادةٍ أخرى غيرَ الصِّيامِ: لأنَّ الإحرامَ إنَّما يُتركُ فيهِ الجماعُ ودواعيهِ مِن الطِّيبِ دونَ سائرِ الشَّهواتِ مِن الأكلِ والشُّربِ. وكذلكَ الاعتكافُ معَ أنَّه تابعٌ للصَّومِ.

وأمَّا الصَّلاةُ، فإنَّهُ وإنْ تَرَكَ المصلِّي فيها جميعَ الشَّهواتِ؛ إلَّا أنَّ مدَّتَها لا تَطولُ، فلا يَجِدُ المصلِّي فقدَ الطَّعامِ والشَّرابِ في صلاتِهِ، بل قد نُهِيَ أن يُصَلِّيَ ونفسُهُ تَتوقُ إلى الطّعامِ بحضرتِهِ حتَّى يَتَناولَ منهُ ما يُسَكِّنُ نفسَهُ. ولهذا أُمِرَ بتقديمِ العَشاءِ على الصَّلاةِ. وذَهَبَتْ طائفةٌ مِن العلماءِ إلى إباحةِ شربِ

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

الماءِ في صلاةِ التَّطوُّعِ، وكانَ ابنُ الزُّبَيْرِ يَفْعَلُهُ في صلاتِهِ، وهوَ روايةٌ عنِ الإمامِ أحْمَدَ. وهذا بخلافِ الصِّيامِ، فإنَّهُ يَسْتَوعِبُ النَّهارَ كلَّهُ، فيَجِدُ الصَّائمُ فقدَ هذهِ الشَّهواتِ، وتَتُوقُ نفسُهُ إليها، وخصوصًا في نهارِ الصَّيفِ؛ لشدَّةِ حرِّهِ وطولِهِ. ولهذا رُوِيَ أنَّ مِن خصالِ الإيمانِ الصَّومَ في الصَّيفِ.

فإذا اشْتَدَّ توقَانُ النَّفسِ إلى ما تَشْتَهيهِ معَ قدرتِها عليهِ ثمَّ تَركَتْهُ للهِ ﷿ في موضعٍ لا يَطَّلِعُ عليهِ إلَّا اللهُ؛ كانَ ذلكَ دليلًا على صحَّةِ الإيمانِ؛ فإنَّ الصَّائمَ يَعْلَمُ أنَّ لهُ ربًّا يَطَّلِعُ عليهِ في خلوتِهِ، وقد حَرَّمَ عليهِ أنْ يَتَناوَلَ نَهيَهُ خوفًا مِن عقابِهِ ورغبةً في ثوابِهِ، فشَكَرَ اللهُ لهُ ذلكَ واخْتَصَّ لنفسِهِ عملَهُ هذا مِن بينِ سائرِ أعمالِهِ. ولهذا قالَ بعدَ ذلكَ: «إنَّهُ تَرَكَ شهوتَهُ وطَعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي».

قالَ بعضُ السَّلفِ: طوبى لمَن تَرَكَ شهوةً حاضرةً لموعدِ غيبٍ لمْ يَرَهُ.

لمَّا عَلِمَ المؤمِنُ الصَّائمُ أنَّ رضى مولاهُ في تركِ شهواتِهِ، قَدَّم رضى مولاهُ على هواهُ، فصارَتْ لذَّتُهُ في تركِ شهوتِهِ للهِ - لإيمانِهِ باطِّلاعِ اللهِ عليه وثوابِهِ وعقابِهِ - أعظَمَ مِن لذَّتِهِ في تناولِها في الخلوةِ؛ إيثارًا لرضى ربِّهِ على هوى نفسِهِ.

وإذا كانَ هذا فيما حُرِّمَ لعارضِ الصَّومِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ ومباشرةِ النِّساءِ، فيَنْبَغي أنْ يَتأكَّدَ ذلكَ فيما حُرِّمَ على الإطلاقِ كالزِّنى وشربِ الخمرِ وأخذِ الأموالِ أوِ الأعراضِ بغيرِ حقّ وسفكِ الدِّماءِ المحرَّمةِ؛ فإنَّ هذا يُسْخِطُ اللهَ على كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمان ومكانٍ، فإذا كمَلَ إيمانُ المؤمنِ؛ كَرِهَ ذلكَ كلَّهُ أعظَمَ مِن كراهتِهِ للقتلِ والضَّربِ.

ولهذا جَعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن علاماتِ وجودِ حلاوةِ الإيمانِ: أنْ يَكْرَهَ أنْ يَرجِعَ إلى الكفرِ بعدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ كما يَكْرَهُ أنْ يُلْقى في النَّارِ.

وقالَ يوسُفُ ﵇: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الصّيامُ سرٌّ بينَ العبدِ وربِّهِ لا يَطَّلِعُ عليهِ غيرُهُ؛ لأنَّهُ مركَّبٌ مِن نيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ، وتركٍ لتناولِ الشَّهواتِ التي يُسْتَخْفَى بتناولِها في العادةِ، ولذلكَ قيلَ: الصوم لا تَكْتُبُهُ الحفظةُ. وقيلَ: إنَّهُ ليسَ فيهِ رياءٌ. كذا قالَهُ الإمامُ أحْمَدُ وغيرُهُ.

وقَوْلُهُ: «تَرَكَ شهوتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي» فيه إشارةٌ إلى المعنى الذي ذكَرْناهُ، وأنَّ الصَّائمَ تَقَرَّبَ إلى اللهِ بتركِ ما تَشْتَهِيهِ نفسُهُ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ، وهذهِ أعظمُ شهواتِ النَّفسِ.

وفي التَّقَرُّبِ بتركِ هذه الشَّهواتِ بالصِّيامِ فوائدُ:

منها: كسرُ النَّفسِ؛ فإنَّ الشَّبعَ والرَّيَّ ومباشرةَ النِّساءِ تَحْمِلُ النَّفسَ على الأشرِ والبطرِ والغفلةِ.

ومنها: تخلِّي القلبِ للفكرِ والذِّكرِ؛ فإنَّ تناولَ هذهِ الشَّهواتِ قد تُقَسِّي القلبَ وتُعْميهِ وتَحولُ بينَ العبدِ وبينَ الفكرِ والذِّكرِ وتَسْتَدْعي الغفلةَ. وخلوُّ الباطنِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ يُنوِّرُ القلبَ ويوجِبُ رقَّتَهُ ويُزيلُ قسوتَهُ ويُخْليهِ للذِّكرِ والفكرِ.

ومنها: أنَّ الغنيَّ يَعْرِفُ قدرَ نعمةِ اللهِ عليهِ بإقدارِهِ لهُ على ما مَنَعَهُ كثيرًا مِن الفقراءِ مِن فضولِ الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ؛ فإنَّهُ بامتناعِهِ مِن ذلكَ في وقتٍ مخصوصٍ وحصولِ المشقةِ لهُ بذلكَ يَتَذَكَّرُ بهِ مَن مُنِعَ مِن ذلكَ على الإطلاقِ، فيوجِبُ لهُ ذلكَ شكرَ نعمةِ اللهِ عليهِ بالغنى، ويَدْعوهُ إلى رحمةِ أخيهِ المحتاجِ ومواساتِهِ بما يُمْكِنُ مِن ذلكَ.

ومنها: أنَّ الصِّيامَ يُضَيِّقُ مجاريَ الدَّمِ التي هيَ مجاري الشّيطانِ مِن ابنِ آدَمَ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَجْرِي مِنِ ابنِ آدَمَ مجرى الدَّمِ، فتَسْكُنُ بالصِّيامِ وساوسُ الشَّيطانِ، وتَنْكَسرُ سَوْرَةُ الشَّهوةِ والغضبِ[١]، ولهذا جَعَلَ النَّبيُّ ﷺ الصِّيامَ وجاءً؛ لقطعِهِ عن شهوةِ النِّكاحِ.

---

(١) سَوْرَة الشيء شِدَّته، يقال: سَورة الغضب وسَورة الشهوة وسَورة البرد، وهكذا.

واعْلَمْ أنَّهُ لا يَتِمُّ التَّقَرُّبُ إلى اللهِ تعالى بتركِ هذهِ الشَّهواتِ المباحةِ في غيرِ حالةِ الصِّيامِ إلَّا بعدَ التَّقَرُّبِ إليهِ بتركِ ما حَرَّمَهُ اللهُ في كلِّ حالٍ مِن الكذبِ والظُّلمِ والعدوانِ على النَّاسِ في دمائِهِم وأموالِهِم وأعراضِهِم.

ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: **«مَن لمْ يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ، فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ»**. خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ[1].

وقالَ جابرٌ: إذا صُمْتَ؛ فلْيَصُمْ سمعُكَ وبصرُكَ ولسانُكَ عنِ الكذبِ والمحارمِ، ودَعْ أذى الجارِ، ولْيَكُنْ عليكَ سكينةٌ ووقارٌ يومَ صومِكَ، ولا تَجْعَلْ يومَ صومِكَ ويومَ فطرِكَ سواءً.

إذا لَمْ يَكُنْ في السَّمْعِ مِنِّي تَصاوُنٌ وَفي بَصَري غَضٌّ وَفي مَنْطِقِي صَمْتُ
فَحَظِّي إذن مِنْ صَوْمِيَ الجوعُ وَالظَّمأُ فَإنْ قُلْتُ إنِّي صُمْتُ يَومي فَما صُمْتُ

وقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«ربَّ صائمٍ حظُّهُ مِن صيامِهِ الجوعُ والعطشُ، وربَّ قائمٍ حظُّهُ مِن قيامِهِ السَّهَرُ»**[2].

ولهذا المعنى ـ واللهُ أعلمُ ـ وَرَدَ في القرآنِ بعدَ ذكرِ تحريمِ الطَّعامِ والشَّرابِ على الصَّائم بالنَّهارِ ذكرُ تحريمِ أكلِ أموالِ النَّاس بالباطلِ؛ فإنَّ تحريمَ هذا عامٌّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بخلافِ الطَّعامِ والشَّرابِ، فكانَ إشارةً إلى أنَّ مَنِ امتثَلَ أمرَ اللهِ في اجتنابِ الطَّعامِ والشَّرابِ في نهارِ صومِهِ، فلْيَمتثل أمرَهُ في اجتنابِ أكلِ الأموالِ بالباطلِ؛ فإنَّهُ محرَّمٌ بكلِّ حالٍ لا يُباحُ في كلِّ وقتٍ منَ الأوقاتِ. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ ﷺ: **«وللصَّائمِ فرحتان: فرحةٌ عندَ فطرِهِ، وفرحةٌ عنَد لقاءِ ربِّهِ»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣).
(٢) أخرجه أحمد (٨٨٥٦)، وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (١/ ٥٩٦)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري.
(٣) تقدَّم تخريجه.

أمَّا فرحةُ الصَّائمِ عندَ فطرِهِ؛ فإنَّ النُّفوسَ مجبولةٌ على الميلِ إلى ما يُلائِمُها مِن مطعمٍ ومشربٍ ومنكحٍ، فإذا مُنِعتْ منهُ في وقت من الأوقات ثمَّ أُبيح لها في وقتٍ آخر فرِحتْ بإباحة ما مُنِعَتْ منه، خصوصًا عندَ اشتدادِ الحاجةِ إليهِ؛ فإنَّ النُّفوسَ تَفْرَحُ بذلكَ طبعًا، فإنْ كانَ ذلكَ محبوبًا للهِ، كانَ محبوبًا شرعًا، والصَّائمُ عندَ فطرِهِ كذلكَ، فكما أنَّ اللهَ تعالَى حَرَّمَ على الصَّائمِ في نهارِ الصَّومِ تناولَ هذهِ الشَّهواتِ فقد أذِن لهُ فيها في ليلِ الصِّيامِ، بلْ أحَبَّ منهُ المبادرةَ إلى تناولِها في أوَّلِ الليلِ وآخرِهِ، فأحبُّ عبادِهِ إليهِ أعجَلُهُم فطرًا، واللهُ وملائكتُهُ يُصَلُّونَ على المتسحِّرينَ.

فالصَّائمُ تَرَكَ شهواتِهِ للهِ بالنَّهارِ تقرُّبًا إليهِ وطاعةً لهُ، وبادَرَ إليها في الليلِ تقرُّبًا إلى اللهِ وطاعةً لهُ، فَما ترَكَها إلَّا بأمرِ ربِّهِ ولا عادَ إليها إلَّا بأمرِ ربِّهِ، فهوَ مطيعٌ لهُ في الحالينِ. فإذا بادرَ الصَّائمُ إلى الفطرِ تقرُّبًا إلى مولاهُ، وأكلَ وشرِبَ وحَمِدَ اللهَ؛ فإنَّهُ يُرْجى لهُ المغفرةُ أو بلوغُ الرِّضوانِ بذلكَ. وفي الحديثِ: «**إنَّ اللهَ لَيَرْضى عن عبدِهِ يَأْكُلُ الأكلةَ فيَحْمُدُهُ عليها ويَشْرَبُ الشربة فيَحْمَدُهُ عليها**»[1]. وربَّما اسْتُجيبَ دعاؤُهُ عندَ ذلكَ، كما في الحديثِ المرفوعِ الذي خَرَّجَهُ ابنُ ماجَهْ: «**إنَّ للصَّائمِ عندَ فطرِهِ دعوةً ما تُرَدُّ**»[2]. وإنْ نَوى بأكلِهِ وشربِهِ تقويةَ بدنِهِ على القيامِ والصِّيامِ، كانَ مثابًا على ذلكَ، كما أنَّهُ إذا نَوى بنومِهِ في الليلِ والنَّهارِ التَّقوِّيَ على العملِ، كانَ نومُهُ عبادةً.

قالَتْ حَفْصَةُ بنتُ سِيرينَ: قالَ أبو العالِيَةِ: الصَّائمُ في عبادةٍ ما لمْ يَغْتَبْ أحدًا وإنْ كانَ نائمًا على فراشِهِ. قالَ: وكانَتْ حَفْصَةُ تَقولُ: يا حَبَّذا عبادةٌ وأنا نائمةٌ على فراشي. خَرَّجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

فالصَّائمُ في ليلِهِ ونهارِهِ في عبادةٍ، ويُسْتَجابُ دعاؤُهُ في صيامِهِ وعندَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) وفي إسناده مقال.

فطرِهِ، فهوَ في نهارِهِ صائمٌ صابرٌ، وفي ليلِهِ طاعمٌ شاكرٌ.

ومَنْ فَهِم هذا الذي أشَرنا إليهِ، لمْ يَتوقَّفْ في معنى فرحِ الصَّائمِ عندَ فطرِهِ، فإنَّ فطرَهُ على الوجهِ المشارِ إليه مِن فضلِ اللهِ ورحمتِهِ، فيَدْخُلُ في قولِهِ تعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وأمَّا فرحُهُ عندَ لقاءِ ربِّهِ؛ فبما يَجِدُهُ عندَ اللهِ مِن ثوابِ الصِّيامِ مدَّخرًا، فيَجِدُهُ أحوجَ ما كانَ إليهِ: كما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزَّمل: ٢٠]. وقالَ تعالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقالَ تعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧].

فالأيَّامُ خزائنُ للنَّاسِ ممتلئةٌ بما خَزَنوهُ فيها مِن خيرٍ وشرٍّ، وفي يومِ القيامةِ تُفتَحُ هذهِ الخزائنُ لأهلِها، فالمتَّقونَ يَجدونَ في خزائنِهِمُ العزَّ والكرامةَ، والمذنبونَ يَجِدونَ في خزائنِهِمُ الحسرةَ والنَّدامةَ.

الصَّائمونَ على طبقتينِ:

إحداهُما: مَن ترَكَ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوتَهُ للهِ يَرْجو عندَهُ عوضَ ذلكَ في الجنَّةِ، فهذا قد تاجَرَ معَ اللهِ وعامَلَهُ، واللهُ تعالَى لا يُضِيعُ أجرَ مَن أحْسَنَ عملًا ولا يَخِيبُ معهُ مَن عامَلَهُ، بل يَرْبَحُ عليهِ أعظمَ الرِّبْحِ.

وقالَ النَّبيُّ ﷺ لرجلٍ: «**إنَّكَ لنْ تَدعَ شيئًا اتِّقاءَ اللهِ إلَّا آتاكَ اللهُ خيرًا منه**». خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ[1].

فهذا الصَّائمُ يُعطَى في الجنَّةِ ما شاءَ اللهُ مِن طعامٍ وشرابٍ ونساءٍ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]. قالَ مُجاهِدٌ وغيرُهُ: نَزَلَتْ في الصَّائمينَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٧٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٩): رجاله ثقات.

وفي الصَّحيحينِ: عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّ في الجنَّةِ بابًا يُقالُ لهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منهُ الصَّائمونَ، لا يَدْخُلُ منهُ غيرُهُم**». وفي روايةٍ: «**فإذا دَخَلوا أُغْلِقَ**». وفي روايةٍ: «**مَن دَخَلَ منهُ شَرِبَ، ومَن شرِبَ لمْ يَظْمأْ أبدًا**».

مَنْ ترَكَ للهِ في الدُّنيا طعامًا وشرابًا وشهوةً مدَّةً يسيرةً عوَّضَهُ اللهُ عندَهُ طعامًا وشرابًا لا يَنفَدُ وأزواجًا لا يَمُتْنَ أبدًا[١].

مهور الحورِ طوالُ التَّهَجُّدِ، وهوَ حاصلٌ في شهرِ رمضانَ أكثرَ مِن غيرِهِ.

مَــن يُــرِدْ مُــلْــكَ الــجِــنــانِ ... فَــلْــيَــدَعْ عَــنْــهُ الــتَّــوانــي
وَلْــيَــقُــمْ فــي ظُــلْــمَــةِ الــلَّــيْــ ... ـلِ إلـــى نـــورِ الــــقُـــرانِ
ولْــيَــصِــلْ صَــوْمًــا بِــصَــوْمٍ ... إنَّ هـــذا الــعَــيْــشَ فــانــي
إنَّــمــا الــعَــيْــشُ جِــوارُ الـــ ... ـلـــــهِ فـــــي دارِ الأمــــانِ

الطَّبقَةُ الثَّانيةُ مِن الصَّائمينَ: مَن يَصومُ في الدُّنيا عمَّا سِوى اللهِ، فيَحْفَظُ الرَّأسَ وما حَوى، ويَحْفَظُ البطنَ وما وَعى، ويَذْكُرُ الموتَ والبِلى، ويُريدُ الآخرةَ فيَتْرُكُ زينةَ الدُّنيا، فهذا عيدُ فطرِهِ يومَ لقاءِ ربِّهِ وفرحِهِ برؤيتِهِ.

مَن صامَ عن شهواتِهِ في الدُّنيا، أدْرَكَها غدًا في الجنَّةِ. ومَن صامَ عمَّا سِوى اللهِ، فعيدُهُ يومَ لقائِهِ.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥].

وَقَدْ صُمْتُ عَنْ لَذَّاتِ دَهْرِيَ كُلِّها ... وَيَـوْمَ لِـقـاكُـمْ ذاكَ فِـطْـرُ صِـيـامِـي

يا معشرَ الصَّائمينَ! صوموا اليومَ عن شهواتِ الهوى، لِتُدْرِكوا عيدَ الفطرِ يومَ اللقاءِ، لا يَطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ باستبطاءِ الأجلِ؛ فإنَّ معظمَ نهارِ الصِّيامِ قد ذهَبَ وعيدُ اللقاءِ قدِ اقترَب.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢) عن سهل بن سعد.

قولُهُ: «ولَخُلوفُ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المسكِ»: خُلوفُ الفمِ: رائحةُ ما يَتصاعَدُ منهُ مِن الأبخرةِ، لخلوِّ المعدةِ مِن الطَّعامِ بالصِّيامِ. وهيَ رائحةٌ مستكرهةٌ في مشامِّ النَّاسِ في الدُّنيا، لكنَّها طيِّبَةٌ عندَ اللهِ حيثُ كانَتْ ناشئةً عن طاعتِهِ وابتغاءِ مرضاتِهِ، كما أنَّ دمَ الشَّهيدِ يَجيءُ يومَ القيامةِ يَثْعَبُ دمًا، لونُهُ لونُ الدَّمِ، وريحُهُ ريحُ المسكِ.

وفي طيبِ ريحِ خُلوفِ فمِ الصَّائمِ عندَ اللهِ ﷻ معنيانِ:

أحدُهُما: أنَّ الصِّيامَ لمَّا كان سرًّا بينَ العبدِ وربِّهِ في الدُّنيا، أظْهَرهُ اللهُ في الآخرةِ علانيةً للخلقِ، لِيَشْتَهِرَ بذلكَ أهلُ الصِّيامِ ويُعرَفوا بصيامِهِم بينَ النَّاسِ جزاءً لإخفائِهِم صيامَهُم في الدُّنيا.

والمعنى الثَّاني: أنَّ مَن عَبَدَ اللهَ وأطاعَهُ وطَلَبَ رضاهُ في الدُّنيا بعملٍ، فنَشَأَ مِن عملِهِ آثارٌ مكروهةٌ للنُّفوسِ في الدُّنيا، فإنَّ تلك الآثارَ غير مكروهةٍ عند اللهِ، بل هيَ محبوبةٌ لهُ وطيِّبَةٌ عندَهُ، لكونها نشأتْ عن طاعتِهِ واتِّباعِ مرضاتِهِ. فإخبارُهُ بذلك للعاملين في الدُّنيا فيه تطييبٌ لقلوبِهِم، لئلَّا يُكْرَه منهُم ما وُجِدَ في الدُّنيا.

كُلُّ شيءٍ ناقصٍ في عرفِ النَّاسِ في الدُّنيا إذا انْتَسَبَ إلى طاعتِهِ ورضاهُ فهوَ الكاملُ في الحقيقةِ.

خُلوفُ أفواهِ الصَّائمينَ لهُ أطيبُ مِن ريحِ المسكِ، عُريُّ المحرمينَ لزيارةِ بيتِهِ أجملُ مِن لباسِ الحللِ، نَوْحُ المذنبينَ على أنفسِهِم مِن خشيتِهِ أفضلُ مِن التَّسبيحِ، انكسارُ المخبتينَ لعظمتِهِ هوَ الجبرُ، ذلُّ الخائفينَ مِن سطوتِهِ هوَ العزُّ، بذلُ النُّفوسِ للقتلِ في سبيلِهِ هوَ الحياةُ، جوعُ الصَّائمينَ لأجلِهِ هوَ الشَّبعُ، عطشُهُم في طلبِ مرضاتِهِ هو الرِّيُّ، نَصَبُ المجتهدينَ في خدمتِهِ هوَ الرَّاحةُ.

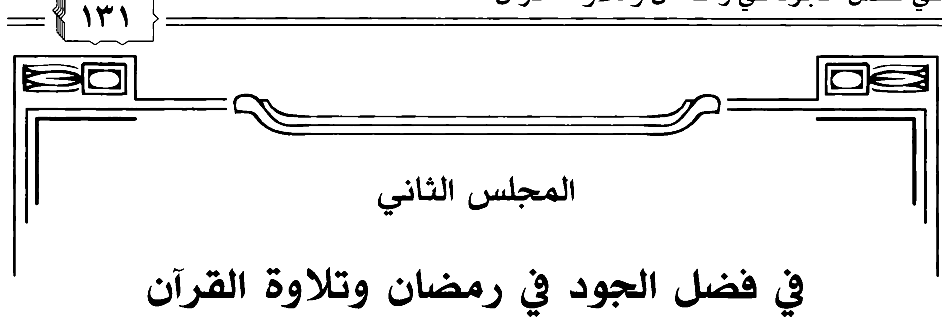
ذُلُّ الفَتى في الحبِّ مَكْرُمَةٌ وَخُضوعُهُ لِحَبيبِهِ شَرَفُ

هَبَّتِ اليومَ على القلوبِ نفحةٌ مِن نفحاتِ نسيمِ القربِ.

لمَّا سُلْسِلَ الشَّيطانُ في شهرِ رمضانَ وخَمَدَتْ نيرانُ الشَّهواتِ بالصِّيامِ؛ انعَزَلَ سلطانُ الهوى، وصارَتِ الدَّولةُ لحاكِمِ العقلِ بالعدلِ، فلم يَبْقَ للعاصي عذرٌ.

يا غيومَ الغفلةِ عنِ القلوبِ تَقَشَّعي! يا شُموسَ التَّقوى والإيمانِ اطْلعي! يا صحائفَ أعمالِ الصَّالحينَ ارْتَفِعي! يا قلوبَ الصَّائمينَ اخشَعي! يا أقدامَ المجتهدينَ اسْجُدِي لربِّكِ وارْكَعي! يا عيونَ المتهجِّدينَ لا تَهْجَعي! يا ذنوبَ التَّائبين لا تَرْجِعِي! يا أرضَ الهوى ابْلَعي ماءَكِ ويا سماءَ النُّفوسِ أقلِعِي.





المجلس الثاني

في فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن

في الصَّحيحين: عنِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ قالَ: «كانَ النَّبيُّ ﷺ أجوَدَ النَّاسِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حينَ يَلْقاهُ جِبْريلُ فيُدارِسُهُ القرآنَ، وكانَ جِبريلُ يَلْقاهُ في كلِّ ليلةٍ فيُدارِسُهُ القرآنَ، فلَرسول اللهِ ﷺ حينَ يَلْقاهُ جِبْريلُ أجودُ بالخيرِ مِن الرِّيحِ المرسلة»(١).

الجودُ هوَ سعةُ العطاءِ وكثرتُهُ، واللهُ تَعالَى يوصَفُ بالجودِ.

فاللهُ سبحانَه أجودُ الأجودينَ، وجودُهُ يَتَضاعَفُ في أوقاتٍ خاصَّةٍ كشهرِ رمضانَ:

وفيهِ أُنْزِلَ قولُهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولمَّا كانَ اللهُ ﷻ قد جَبَلَ نبيَّهُ ﷺ على أكملِ الأخلاقِ وأشرفِها كما في حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صالحَ الأخلاقِ**»(٢). وذَكَرَهُ مالكٌ في «الموطَّإ» بلاغًا. فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ النَّاسِ كلِّهِم.

وكانَ جودُهُ بجميعِ أنواعِ الجودِ مِن: بذلِ العلمِ والمالِ، وبذلِ نفسِهِ للهِ في إظهارِ دينِهِ وهدايةِ عبادِهِ وإيصالِ النَّفعِ إليهِم بكلِّ طريقٍ مِن إطعامِ جائعهِم ووعظِ جاهِلِهم وقضاءِ حوائجِهِم وتحمُّلِ أثقالِهِم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٣٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦٧٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم.

ولَمْ يَزَلْ ﷺ على هذهِ الخصالِ الحميدةِ منذُ نَشأَ، ولهذا قالَتْ لهُ خديجَةُ في أوَّلِ مبعثِهِ: واللهِ؛ لا يُخْزيكَ اللهُ أبدًا، إنَّكَ لتَصِلُ الرَّحِمَ وتَقْري الضَّيفَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتَكْسِبُ المعدومَ وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ[١].

ثُمَّ تَزايدَتْ هذهِ الخصالُ فيهِ ﷺ بعدَ البعثةِ وتَضاعفَتْ أضعافًا كثيرةً.

وفي الصَّحيحينِ: عن أنسٍ؛ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ النَّاسِ وأشجعَ النَّاسِ وأجودَ النَّاسِ[٢].

وفي «صحيح مسلم» عنهُ: قالَ: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ على الإسلامِ شيئًا إلَّا أعْطاهُ، فجاءَهُ رجل فأعطاهُ غنمًا بينَ جبلينِ، فرَجَعَ إلى قومِهِ فقالَ: يا قومِ! أسْلموا، فإنَّ مُحَمَّدًا يُعْطي عطاءَ مَن لا يَخْشَى الفاقَة.

وفي روايةٍ لهُ: أنَّ رجلًا سَألَ النَّبيَّ ﷺ غنمًا بينَ جبلينِ، فأعْطاهُ إيَّاهُ، فأتى قومَهُ فقالَ: يا قومِ! أسْلِموا، فإنَّ محمَّدًا يُعْطي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفقرَ. قالَ أنسٌ: إنْ كانَ الرَّجلُ لَيُسْلِمُ ما يُريدُ إلا الدُّنيا، فما يُمسي حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليهِ مِن الدُّنيا وما عليها[٣].

وفيهِ أيضًا: عن صَفْوانَ بنِ أُمَيَّةَ؛ قالَ: لقد أعْطاني رسولُ اللهِ ﷺ ما أعْطاني وإنَّهُ لَمِن أبغضِ النَّاسِ إليَّ، فما بَرِحَ يُعْطيني حتَّى إنَّهُ لأحَبُّ النَّاسِ إليَّ. قالَ ابنُ شهابٍ: أعْطاهُ يومَ حنين مئةً مِن النَّعمِ ثمَّ مئةً ثمَّ مئةً[٤].

وفي الصَّحيحينِ: عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ؛ أنَّ الأعرابَ عَلِقوا بالنَّبيِّ ﷺ مرجعَهُ مِن حُنَيْنٍ يَسْألونَهُ أنْ يَقْسِمَ بينَهُم. فقالَ: «**لو كانَ لي عددُ هذهِ العِضاه نَعَمًا، لَقَسَمْتُهُ بينكُم، ثمَّ لا تَجِدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٣).
(٥) أخرجه البخاري فقط (٢٨٢١). العِضاه: الشجر. والنَعَم: الإبل.

وفيهما: عن جابرٍ؛ قالَ: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا فقالَ: لا. وأنَّهُ قالَ لجابرٍ: «**لو جاءَنا مالُ البحرينِ؛ لقد أعْطَيْتُكَ هكذا وهكذا (قالَ بيديهِ جميعًا)**»[١].

وَخَرَّجَ البُخارِيُّ مِن حديثِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ؛ أنَّ شَمْلَةً أُهْدِيَتْ للنَّبيِّ ﷺ، فلَبِسَها وهوَ محتاجٌ إليها، فسَألَهُ إيَّاها رجلٌ فأعْطاهُ، فلامَهُ النَّاسُ وقالوا: كانَ محتاجًا إليها، وقد عَلِمْتَ أنَه لا يَرُدُّ سائلًا! فقالَ: إنَّما سَألْتُها لِتكونَ كفني. فكانَتْ كفنَهُ[٢].

وكانَ جودُهُ ﷺ كلُّهُ للهِ وفي ابتغاءِ مرضاتِهِ؛ فإنَّهُ كانَ يَبْذُلُ المالَ إمَّا لفقيرٍ أو محتاجٍ، أو يُنفِقُهُ في سبيلِ اللهِ، أو يَتألَّفُ بِهِ على الإسلامِ مَن يَقْوى الإسلامُ بإسلامِهِ.

وكانَ يُؤثِرُ على نفسِهِ وأهلِهِ وأولادِهِ، فيُعْطِي عطاءً يَعْجِزُ عنهُ الملوكُ مثلُ كسرى وقيصرَ ويَعيشُ في نفسِهِ عَيشَ الفقراءِ، فيأتي عليهِ الشَّهْرُ والشَّهرانِ لا يُوقَدُ في بيتِهِ نارٌ، وربَّما رَبَطَ على بطنِهِ الحجرَ مِن الجوعِ.

وكانَ قد أتاهُ ﷺ سبيٌ مرَّةً، فشَكَتْ إليهِ فاطمَةُ ما تَلْقى مِن خدمةِ البيتِ، وطَلَبَتْ منهُ خادمًا يَكْفِيها مؤونةَ بيتِها، فأمَرَها أنْ تَسْتَعينَ بالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ عندَ نومِها، وقالَ: «**لا أُعْطِيكِ وأَدَعُ أهلَ الصُّفَّةِ تُطْوى بطونُهُم مِن الجوعِ**»[٣].

وكانَ جودُهُ ﷺ يَتَضاعَفُ في شهرِ رمضانَ على غيرِهِ مِن الشُّهورِ كما أنَّ جودَ ربِّهِ يَتَضاعَفُ فيهِ أيضًا، فإنَّ اللهَ جَبَلَهُ على ما يُحِبُّهُ مِن الأخلاقِ الكريمةِ، وكانَ على ذلك مِن قبلِ البعثةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٧).
(٣) أخرجه أحمد (٥٩٦)، وسنده صحيح وأصله في الصحيحين.

ثمَّ كانَ بعدَ الرِّسالةِ جودُهُ في رمضانَ أضعاف ما كانَ قبلَ ذلكَ؛ فإنَّهُ كانَ يَلْتَقِي هوَ وجبريلُ ﷺ، وهوَ أفضلُ الملائكةِ وأكرمُهُم، ويُدارِسُهُ الكتابَ الذي جاءَ بهِ إليهِ، وهوَ أشرفُ الكتبِ وأفضلُها، وهوَ يَحُثُّ على الإحسانِ ومكارمِ الأخلاقِ.

وقد كانَ ﷺ هذا الكتابُ لهُ خلُقًا بحيثُ: يَرْضى لرضاهُ، ويَسْخَطُ لسخطِهِ، ويُسارِعُ إلى ما حَثَّ عليهِ، ويَمْتَنِعُ ممَّا زَجَرَ عنهُ. فلهذا كانَ يَتَضاعَفُ جودُهُ وإفضالُهُ في هذا الشَّهرِ؛ لقربِ عهدِهِ بمخالطةِ جبريلَ ﷺ، وكثرةِ مدارستِهِ لهُ هذا الكتابَ الكريمَ الذي يَحُثُّ على المكارمِ والجودِ. ولا شكَّ أنَّ المخالطةَ تُؤَثِّرُ وتُورِثُ أخلاقًا مِن المخالطِ.

كانَ بعضُ الشُّعراءِ قدِ امْتَدَحَ ملكًا جوادًا، فأعْطاه جائزةً سَنِيَّةً[1]، فخَرَجَ بها مِن عندِهِ وفَرَّقَها كلَّها على النَّاسِ، وأنْشَدَ:

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغي الغِنى وَلَم أدرِ أنَّ الجودَ مِن كفِّهِ يُعْدي

فبَلَغَ ذلكَ الملكَ فأضْعَفَ لهُ الجائزةَ.

وقد قالَ بعضُ الشُّعراءِ يَمْدَحُ بعضَ الأجوادِ ـ ولا يَصْلُحُ أنْ يَكونَ ذلكَ إلا لرسولِ اللهِ ﷺ ـ:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوَ أنَّهُ ثَناهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أنامِلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئتَهُ مُتَهَلِّلًا كأنَّكَ تُعْطِيهِ الذي أنْتَ سائِلُهْ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في كَفِّهِ غَيْر رُوحِهِ لَجادَ بِها فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سائِلُهْ
هوَ البَحْرُ مِن أيِّ النَّواحي أتيْتَهُ فَلُجَّتُهُ المَعْروفُ والجودُ ساحِلُهْ

وفي تضاعفِ جودِهِ ﷺ في شهرِ رمضانَ بخصوصِهِ فوائدُ كثيرةٌ:

منها: شرفُ الزَّمانِ ومضاعفةُ أجرِ العملِ فيهِ.

---

(١) معنى سنيَّة: أي قيِّمة، عالية القدر.

ومنها: إعانةُ الصَّائمينَ والقائمينَ والذَّاكرينَ على طاعاتِهِم، فَيَسْتَوجِبُ المعينُ لهُم مثلَ أجرِهِم، كما أنَّ مَن جَهَّزَ غازيًا فقد غَزَا ومَن خَلَفَهُ في أهلِهِ فقد غَزا.

وفي حديثِ زَيْدِ بنِ خالدٍ: عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**مَن فَطَّرَ صائمًا فلَهُ مثلُ أجرِهِ مِن غيرِ أنْ يَنْقُصَ مِن أجرِ الصَّائمِ شيءٌ**». خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والنَّسائِيُّ والتِّرْمِذِيُّ وابنُ ماجَهْ[1].

ومنها: أنَّ شهرَ رمضانَ شهرٌ يَجودُ اللهُ فيهِ على عبادِهِ بالرَّحمةِ والمغفرةِ والعتقِ مِن النَّارِ، لا سيَّما في ليلةِ القدرِ، واللهُ تَعالَى يَرْحَمُ مِن عبادِهِ الرُّحماءَ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِن عبادِهِ الرُّحماءَ**»[2]، فمَن جادَ على عبادِ اللهِ، جادَ اللهُ عليهِ بالعطاءِ والفضلِ، والجزاءُ مِن جنسِ العمل.

ومنها: أنَّ الجمعَ بينَ الصِّيامِ والصَّدقةِ مِن موجباتِ الجنَّةِ، كما في حديثِ عليٍّ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إنَّ في الجنَّةِ غرفًا يُرى ظهورُها مِن بطونِها وبطونُها مِن ظهورِها**». قالوا: لمَن هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**لمَن طيَّبَ الكلام، وأطْعَمَ الطَّعامَ، وأدامَ الصِّيامَ، وصَلَّى بالليلِ والنَّاسُ نيام**»[3].

وهذهِ الخصالُ كلُّها تكونُ في رمضانَ، فيَجْتَمعُ فيهِ للمؤمنِ الصِّيامُ والقيامُ والصَّدقةُ وطيبُ الكلامِ؛ فإنَّهُ يُنْهى فيهِ الصَّائمُ عنِ اللغوِ والرَّفثِ، والصِّيامُ والصَّلاةُ والصَّدقةُ توصِلُ صاحبَها إلى اللهِ ﷻ.

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «**مَن أصْبَحَ منكُمُ اليومَ صائمًا؟**». قالَ أبو بَكْرٍ: أنا. قالَ: «**مَن تَبِعَ منكم اليومَ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٣٣)، والنسائي في الكبرى (٣٣١٧)، والترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٣) تقدَّم تخريجه.

جنازةً»؟ قالَ أبو بَكْرٍ: أنا. قالَ: «**فمَن أطْعَمَ اليومَ مسكينًا؟**» قالَ أبو بكرٍ: أنا. قالَ: «**مَن تَصَدَّق بصدقةٍ؟**». قالَ أبو بكرٍ: أنا. قالَ: «**فمَن عادَ منكُم اليومَ مريضًا؟**». قالَ أبو بكرٍ: أنا. قالَ: «**ما اجْتَمعْنَ في امرئ إلَّا دَخلَ الجنَّةَ**»[1].

ومنها: أنَّ الجمعَ بينَ الصِّيامِ والصَّدقةِ أبلغُ في تكفيرِ الخطايا واتِّقاءِ جهنَّمَ والمباعدةِ عنها، وخصوصًا إنْ ضُمَّ إلى ذلكَ قيامُ الليلِ.

ومنها: أنَّ الصّيامَ لا بدَّ أن يَقَعَ فيهِ خللٌ ونقصٌ، وتكفيرُ الصِّيامِ للذُّنوبِ مشروط بالتَّحفُّظِ ممَّا يَنْبَغي التَّحَفُّظُ منهُ، وعامَّةُ صيامِ النَّاسِ لا يَجتَمِعُ في صَومِهِ التَّحفُّظُ كما يَنْبَغِي، فالصّدقةُ تَجْبُرُ ما فيهِ من النَّقصِ والخللِ، ولهذا وَجَبَ في آخرِ شهرِ رمضانَ زكاةُ الفطرِ طهرةً للصَّائِمِ من اللغوِ والرَّفثِ.

ومنها: أنَّ الصَّائِمَ يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ للهِ، فإذا أعانَ الصَّائمينَ على التَّقوِّي على طعامِهِم وشرابِهِم، كانَ بمنزلةِ مَن تَرَكَ شهوةً للهِ تعالَى، وآثَرَ بها أو واسى فيها. ولهذا يُشْرَعُ لهُ تفطيرُ الصُّوَّامِ معهُ إذا أفْطَرَ؛ لأنَّ الطَّعامَ يَكونُ محبوبًا لهُ حينئذٍ، فيواسي منهُ حتَّى يكونَ ممَّن أطْعَمَ الطعام على حبِّهِ، ويَكون في ذلكَ شكرٌ للهِ على نعمةِ إباحةِ الطَّعامِ والشَّرابِ لهُ وردِّهِ عليهِ بعدَ منعِهِ إيَّاهُ، فإنَّ هذهِ النِّعمةَ إنَّما عُرِفَ قدرُها عندَ المنعِ منها.

وسُئِلَ بعضُ السَّلفِ: لمَ شُرِعَ الصِّيام؟ قالَ: ليَذوقَ الغنيُّ طعمَ الجوعِ فلا يَنْسى الجائعَ. وهذا مِن بعضِ حكمِ الصَّومِ وفوائدِهِ.

كانَ كثيرٌ مِنَ السَّلفِ يواسونَ مِن إفطارِهِم أو يُؤْثرونَ بهِ ويَطْوونَ، وكانَ ابنُ عُمَرَ يَصومُ ولا يُفْطِرُ إلا معَ المساكينِ، فإذا مَنَعَهُم أهلُهُ عنهُ، لم يَتَعَشَّ تلكَ الليلة.

وجاء سائلٌ إلى الإمامِ أحْمَدَ، فدَفَعَ إليهِ رغيفينِ كانَ يَعِدُّهُما لفطرِهِ، ثمَّ طَوى وأصْبَحَ صائمًا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨).

وكانَ الحَسَنُ يُطْعِمُ إخوانَهُ وهوَ صائم صيام تطوُّع، ويَجْلِسُ يُرَوِّحُهُم[١] وهُم يأكُلونَ.

وكانَ ابنُ المُباركِ يُطْعِمُ إخوانَهُ الألوانَ مِن الحلواءِ وغيرِها في السَّفرِ وهوَ صائمٌ.

سلامُ اللهِ على تلكَ الأرواحِ، رحمةُ اللهِ على تلكَ الأشباحِ، لم يَبْقَ منهُم إلَّا أخبارٌ وآثار، كم بينَ مَن يَمْنَعُ الحقَّ الواجبَ عليهِ وبينَ أهلِ الإيثار.

لا تَعْرِضَنَّ لِذِكْرِنا في ذِكْرِهِمْ   لَيْسَ الصَّحيحُ إذا مَشى كَالمُقْعَدِ

ودَلَّ الحديثُ أيضًا على استحبابِ دراسةِ القرآنِ في رمضانَ والاجتماعِ على ذلكَ وعرضِ القرآنِ على مَن هوَ أحفظُ لهُ منهُ.

وفيهِ دليلٌ على استحبابِ الإكثارِ مِن تلاوةِ القرآنِ في شهرِ رمضانَ.

وفي حديثِ فاطِمَةَ: عن أبيها ﷺ؛ أنَّهُ أخْبَرَها أنَّ جِبْريلَ كانَ يُعارِضُهُ القرآنَ كلَّ عامٍ مرَّةً، وأنَّه عارَضَهُ في عامِ وفاتِهِ مرَّتَينِ[٢].

وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ المدارسةَ بينَهُ وبينَ جِبريلَ كانَتْ ليلًا. فدَلَّ على استحبابِ الإكثارِ مِن التِّلاوةِ في رمضانَ ليلًا؛ فإنَّ الليلَ تَنْقَطِعُ فيهِ الشَّواغِلُ، وتَجْتَمعُ فيهِ الهِممُ، ويَتَواطَأُ فيهِ القلبُ واللسانُ على التَّدبُّرِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزَّمل: ٦]. وشهرُ رمضانَ لهُ خصوصيَّةٌ بالقرآنِ، كما قالَ تَعالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يُطيلُ القراءةَ في قيامِ رمضانَ بالليلِ أكثرَ مِن غيرِهِ. وقد صَلَّى معَهُ حُذَيْفَةُ ليلةً في رمضانَ، فقرأ بالبقرةِ ثمَّ بالنِّساءِ ثمَّ بآلِ عِمْرانَ،

---

(١) أي: أنَّه كان يحرك عليهم مروحة الهواء بيده، لينعموا بالهواء وهم يأكلون.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

لا يَمُرُّ بآيةِ تخويفٍ إلَّا وَقَفَ وسَألَ[١].

وَكانَ عُمَرُ قد أَمَرَ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ وَتَميمًا الدَّارِيَّ أنْ يَقوما بالنَّاسِ في شهرِ رمضانَ، فكانَ القارئُ يقرأ بالمئين في ركعةٍ[٢]، حتَّى كانوا يَعْتَمدونَ على العِصِيِّ مِن طولِ القيامِ، وما كانوا يَنْصَرِفونَ إلَّا عندَ الفجرِ.

ورُوِيَ أنَّ عُمَرَ جَمَعَ ثلاثَةَ قرَّاءٍ: فأمَرَ أسْرَعَهُم قراءةً أنْ يَقْرأ بالنَّاسِ ثلاثينَ، وأوسطَهُم بخمسٍ وعشرينَ، وأبطأهُم بعشرينَ.

ثمَّ كانَ في زمانِ التَّابعينَ يَقْرَؤونَ بالبقرةِ في قيامِ رمضانَ في ثمانِ ركعاتٍ، فإنْ قَرَأ بها في اثنتي عشرةَ ركعةً؛ رَأَوا أنَّهُ قد خَفَّفَ.

قالَ ابنُ مَنْصورٍ: سُئِلَ إسْحاقُ (يَعْني: ابنَ راهَوَيْهِ): كم يُقرَأُ في قيامِ شهرِ رمضانَ؟ فلم يُرَخِّصْ في دونِ عشرِ آياتٍ من البقرةِ. فقيلَ لهُ: إنَّهُم لا يَرْضَوْنَ. فقالَ: لا رَضُوا، فلا تَؤُمَّهُم إذا لم يَرْضَوا بعشرِ آياتٍ مِن البقرةِ، ثمَّ إذا صِرْتَ إلى الآياتِ الخفافِ فبقدرِ عشرِ آياتٍ مِن البقرةِ؛ يَعنِي: في كلِّ ركعةٍ.

وكذلكَ كَرِهَ مالكٌ أن يُقرأ دونَ عشرِ آياتٍ.

وسُئِلَ الإمامُ أحْمَدُ عمَّا رُوِيَ عن عُمَرَ كما تَقَدَّمَ ذكرُهُ في السَّريعِ القراءةِ والبطيءِ. فقالَ: في هذا مشقَّةٌ على النَّاسِ، ولا سيَّما في هذِهِ الليالي القصارِ، وإنَّما الأمرُ على ما يَحْتَمِلُهُ النَّاسُ.

وقالَ أحْمَدُ لبعضِ أصحابِهِ ـ وكانَ يُصَلِّي بِهِم في رمضانَ ـ: هؤلاءِ قومٌ ضعفاءُ، اقْرأْ بِهِم خمسًا ستًّا سبعًا. قالَ: فقَرَأْتُ فَخَتَمْتُ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ.

وقد رُوِيَ عنِ الحَسَنِ: أنَّ الذي أمَرَهُ عُمَرُ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ كانَ يَقْرأُ خمسَ آياتٍ ستَّ آياتٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) بالمئين: أي السور التي يقترب عدد آياتها من مئة آية أو يزيد، فإن سور القرآن تُقسَّم إلى أقسام: الطوال والمئين والمثاني والمُفَصَّل.

وكلامُ الإمامِ أَحْمَدَ يَدُلُّ على أَنَّهُ يُراعى في القراءةِ حالُ المأمومينَ، فلا يُشَقُّ عليهِم. وقالَهُ أيضًا غيرُهُ مِن الفقهاءِ مِن أصحابِ أبي حنيفَةَ وغيرِهِم.

وقد رُوِيَ عن أبي ذَرٍّ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قامَ بهِم ليلةَ ثلاثٍ وعشرينَ إلى ثلثِ الليلِ، وليلةَ خمسٍ وعشرينَ إلى نصفِ الليلِ. فقالوا لهُ: لو نَفَّلْتَنا بقيَّةَ ليلتِنا؟ فقالَ: «**إنَّ الرَّجُلَ إذا صَلَّى معَ الإمامِ حتَّى يَنْصَرِفَ، كُتِبَ لهُ بقيَّةُ ليلتِهِ**». خَرَّجَهُ أهلُ السُّنَنِ، وحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ[(١)].

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قيامَ ثلثِ الليلِ ونصفِ الليلِ يُكْتَبُ بهِ قيامُ ليلةٍ، لكنْ معَ الإمامِ.

وكانَ الإمامُ أحْمَدُ يَأْخُذُ بهذا الحديثِ، ويُصَلِّي معَ الإمامِ حتَّى يَنْصَرِفَ، ولا يَنْصَرِفُ حتَّى يَنْصَرِفَ الإمامُ.

وقالَ بعضُ السَّلَفِ: مَن قامَ نصفَ الليلِ فقد قامَ الليلَ.

وفي «سنن أبي داود»: عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**مَن قامَ بعَشْرِ آياتٍ؛ لمْ يُكْتَبْ مِن الغافلينَ، ومَن قامَ بمئةِ آيةٍ؛ كُتِبَ مِن القانتينَ، ومَن قامَ بألفِ آيةٍ كُتِبَ مِن المقنطرينَ**»[(٢)]؛ يَعْني: أنَّه يُكتب لهُ قنطارٌ مِن الأجرِ.

وَمَن أرادَ أن يُطيلَ في القراءةِ ويَزيدَ وكانَ يُصلِّي لنفسِهِ، فلْيُطَوِّلْ ما شاءَ، كما قالهُ النَّبيُّ ﷺ[(٣)]. وكذلكَ مَن صَلَّى بجماعةٍ يَرْضَونَ بصلاتِهِ.

وكانَ بعضُ السَّلَفِ يَخْتِمُ في قيامِ رمضانَ في كلِّ ثلاثِ ليال. وبعضُهُم في كلِّ سبعٍ، منهُم قتادَةُ. وبعضُهُم في كلِّ عشرٍ، منهُم أبو رَجاء العُطارِدِيُّ.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦)، والنسائي (١٣٦٤)، وابن ماجه (١٣٢٧)، قال الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥/ ١٢٠): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد حسن.

(٣) يشير إلى حديث أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

وكانَ السَّلفُ يَتْلونَ القرآنَ في شهرِ رمضانَ في الصَّلاةِ وغيرِها:

كانَ الأسودُ يَقْرأُ القرآنَ في كلِّ ليلتينِ في رمضانَ.

وكانَ النَّخَعِيُّ يَفْعَلُ ذلكَ في العشرِ الأواخرِ منهُ خاصَّةً، وفي بقيَّةِ الشَّهرِ في كلِّ ثلاثٍ.

وكانَ قَتادَةُ يَخْتِمُ في كلِّ سبعٍ دائمًا، وفي رمضانَ في كلِّ ثلاثٍ، وفي العشرِ الأواخرِ كلّ ليلةٍ.

وكانَ للشَّافِعِيِّ في رمضانَ ستُّونَ ختمةً يَقْرَؤُها في غيرِ الصَّلاةِ.

وعن أبي حَنيفَةَ نحوُهُ.

وكانَ الزُّهْرِيُّ إذا دَخَلَ رمضانُ قالَ: إنَّما هوَ تلاوةُ القرآنِ وإطعامُ الطَّعامِ.

قالَ ابنُ عَبْدِ الحكمِ: كانَ مالِكٌ إذا دَخَلَ رمضانُ؛ نَفَرَ مِن قراءةِ الحديثِ ومجالسةِ أهلِ العلمِ، وأقْبَلَ على تلاوةِ القرآنِ مِن المصحفِ.

وقالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: كانَ سُفْيانُ الثَّوريُّ إذا دَخَلَ رمضانُ؛ تَرَكَ جميعَ العبادةِ وأقْبَلَ على تلاوةِ القرآنِ.

وكانَتْ عائِشَةُ تَقْرأُ في المصحفِ أوَّلَ النَّهارِ في شهرِ رمضانَ، فإذا طَلَعَتِ الشَّمسُ؛ نامَتْ.

وقالَ سُفْيانُ: كانَ زُبَيْدٌ اليامِيُّ إذا حَضَرَ رمضانُ؛ أحْضَرَ المصاحفَ وجَمَعَ إليهِ أصحابَهُ.

وإنَّما وَرَدَ النَّهيُ عن قراءةِ القرآنِ في أقلَّ مِن ثلاثٍ على المداومةِ على ذلكَ. فأمَّا في الأوقاتِ المفضَّلةِ ـ كشهرِ رمضانَ خصوصًا الليالِيَ التي يُطلَبُ فيها ليلةُ القدرِ ـ أو في الأماكنِ المفضَّلةِ ـ كمكَّةَ لمَن دَخَلَها مِن غيرِ أهلِها ـ، فيُسْتَحَبُّ الإكثارُ فيها مِن تلاوةِ القرآنِ، اغتنامًا للزَّمانِ والمكانِ. وهذا قولُ أحْمَدَ وإسْحاقَ وغيرِهما مِن الأئمَّةِ، وعليهِ يَدُلُّ عملُ غيرِهم، كما سَبَقَ ذكرُهُ.

واعْلَمْ أنَّ المؤمنَ يَجْتَمِعُ لهُ في شهرِ رمضانَ جهادانِ لنفسِهِ: جهادٌ بالنَّهارِ على الصِّيامِ، وجهادٌ بالليلِ على القيامِ. فمَن جَمَعَ بينَ هذينِ الجهادينِ ووفَّى بحقوقِهِما وصَبَرَ عليهِما، وُفِّيَ أجرَهُ بغيرِ حسابٍ.

ويَشْفَعانِ لهُ أيضًا عندَ اللهِ ﷻ كما في «المسند»: عن عبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**الصِّيامُ والقرآنُ يَشْفَعانِ للعبدِ يومَ القيامةِ، يَقولُ الصِّيامُ: أيْ ربِّ! مَنَعْتُهُ الطَّعامَ والشَّهواتِ بالنَّهارِ فشَفِّعْني فيهِ. ويَقولُ القرآنُ: مَنَعْتُهُ النَّومَ بالليلِ فشَفِّعْني فيهِ. فيُشَفَّعانِ**»[1].

فالصِّيامُ يَشْفَعُ لمَن مَنَعَهُ الطَّعامَ والشَّهواتِ المحرَّمةَ كلَّها، سواءٌ كانَ تحريمُها يَخْتَصُّ بالصِّيامِ - كشهوةِ الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ ومقدِّماتِها - أو لا يَخْتَصُّ بِهِ - كشهوةِ فضولِ الكلامِ المحرَّمِ والنَّظرِ المحرَّمِ والسَّماعِ المحرَّمِ والكسبِ المحرَّمِ -، فإذا مَنَعَهُ الصِّيامُ مِن هذهِ المحرَّماتِ كلِّها؛ فإنَّهُ يَشْفَعُ لهُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ فيَقولُ: يا ربِّ! مَنَعْتُهُ شهواتِهِ فشَفِّعْني فيهِ.

وكذلكَ القرآنُ إنَّما يَشْفَعُ لمَن مَنَعَهُ مِن النَّومِ بالليلِ، فإنَّ مَن قَرَأَ القرآنَ وقامَ بهِ، فقد قامَ بحقِّهِ، فيَشْفَعُ لهُ.

قالَ ابنُ مَسْعودٍ: يَنبَغِي لقارئِ القرآنِ أنْ يُعرَفَ: بليلِهِ إذا النَّاسُ يَنامونَ، وبنهارِهِ إذا النَّاسُ يُفْطِرونَ، وببكائِهِ إذا النَّاسُ يَضْحَكونَ، وبورعِهِ إذا النَّاسُ يُخَلِّطونَ، وبصمتِهِ إذا النَّاسُ يَخوضونَ، وبخشوعِهِ إذا النَّاسُ يَخْتالونَ، وبحزنِهِ إذا النَّاسُ يَفْرَحونَ.

قالَ وُهَيْبُ بنُ الوَرْدِ: قيلَ لرجلٍ: ألا تَنامُ؟ قالَ: إنَّ عجائبَ القرآنِ أطَرْنَ نومي.

وصَحِبَ رجلٌ رجلًا شهرينِ، فلم يَرَهُ نائمًا، فقالَ: ما لي لا أراكَ

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والحاكم (١/ ٧٤٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.

نائمًا؟ قالَ: إنَّ عجائبَ القرآنِ أطَرْنَ نومي، ما أخْرُجُ مِن أُعجوبةٍ إلَّا وَقَعْتُ في أُخرى.

قالَ أحْمَدُ بنُ أبي الحَواري: إنِّي لأقْرأُ القرآنَ وأنْظُرُ فيه آيةً آية، فيَحيرُ عقلي بها، وأعْجَبُ مِن حفَّاظِ القرآنِ كيفَ يَهْنيهِمُ النَّومُ ويَسَعُهُم أنْ يَشْتَغِلوا بشيءٍ مِن الدُّنيا وهُم يَتلونَ كلامَ اللهِ! أما إنَّهم لو فَهِموا ما يَتْلونَ وعَرَفوا حقَّهُ وتَلذَّذوا بِهِ واسْتحْلَوُا المناجاةَ بهِ؛ لذَهبَ عنهُم النَّومُ فرحًا بما قد رُزقوا.

وأنْشَدَ ذو النُّونِ:

مَـنَـعَ الـقُـرَانُ بِـوَعْـدِهِ وَوَعـيـدِهِ ... مُقَلَ العُيونِ بِلَيْلِها لا تَـهْـجَـعُ

فَهِمُوا عَنِ المَلِكِ الجَليلِ كَلامَهُ ... فَـهْـمًـا تَـذِلُّ لَـهُ الـرِّقـابُ وَتَـخْـضَـعُ

فأمَّا مَن كانَ معَهُ القرآنُ فنامَ عنهُ بالليلِ ولمْ يَعْمَلْ بهِ بالنَّهارِ؛ فإنَّهُ يَنْتَصِبُ القرآنُ خصمًا لهُ، يُطالِبُهُ بحقوقِهِ التي ضَيَّعَها.

وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَد مِن حديثِ سَمرةَ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأى في منامِهِ رجلًا مستلقيًا على قفاهُ ورجلٌ قائمٌ بيدِهِ فهرٌ[1] أو صخرةٌ فيَشْدَخُ بهِ رَأسَهُ فيَتَدْهَده الحجرُ، فإذا ذَهَبَ لِيَأْخُذَهُ، عادَ رَأسُهُ كما كانَ، فصَنَعَ بهِ مثلَ ذلكَ، فسَألَ النبي عنهُ، فقيلَ لهُ: هذا رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فنامَ عنهُ بالليلِ ولمْ يَعْمَلْ بهِ بالنَّهارِ، فهوَ يَفْعَلُ بهِ ذلكَ إلى يومِ القيامةِ. وقد خَرَّجَهُ البخاري بغيرِ هذا اللفظ[2].

يا مَن ضَيَّعَ عُمرَهُ في غيرِ الطَّاعَةِ! يا مَن فَرَّطَ في شهرِهِ بل في دهرِهِ وأضاعَه! يا مَن بضاعتُهُ التَّسويفُ والتَّفريطُ وبئستِ البضاعة! يا مَن جَعَلَ خصمَهُ القرآنَ وشهرَ رمضانَ كيفَ تَرْجو ممَّن جَعَلْتَهُ خصمَكَ الشَّفاعة؟!

وَيْـلٌ لِـمَـنْ شُـفـعـاؤُهُ خُـصَـمـاؤُهُ ... وَالـصُّـوْرُ في يَوْمِ الـقـيـامَـةِ يُـنْـفَـخُ

---

(١) الفِهر: الحجر.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠١٦٥)، وأخرجه البخاري (١٣٨٦).

ربَّ صائمٍ حظُّهُ مِن صيامِهِ الجوعُ والعطشُ وقائمٍ حظُّهُ مِن قيامِهِ السَّهَرُ.

كلُّ قيامٍ لا يَنْهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لا يَزيدُ صاحبَهُ إلَّا بُعدًا، وكلُّ صيامٍ لا يُصانُ عن قولِ الزُّورِ والعملِ بهِ لا يُورِثُ صاحبَهُ إلَّا مقتًا وردًّا.

يا قومِ! أينَ آثارُ الصِّيامِ! أينَ أنوارُ القيامِ؟!

هذَا ـ عبادَ اللهِ ـ شهرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القرآنُ وفي بقيَّتِهِ للعابدينَ مستمتَع، وهذا كتابُ اللهِ يُتْلى فيهِ بينَ أظهرِكُم ويُسْتَمع، وهوَ القرآنُ الذي لو أُنْزِلَ على جبلٍ لرأيْتَهُ خاشعًا يَتَصدَّع، ومَعَ هذا فلا قلبٌ يَخْشَعُ ولا عينٌ تَدْمَعُ ولا صيامٌ يُصانُ عنِ الحرامِ فيَنْفَعُ ولا قيامٌ اسْتَقامَ فيُرْجى في صاحبِهِ أنْ يَشْفَع! قلوبٌ خَلَتْ مِن التَّقوى فهيَ خرابٌ بَلْقَع، وتَراكَمَتْ عليها ظلمةُ الذّنوبِ فهيَ لا تُبْصِرُ ولا تَسْمَع.

كَمْ تُتْلى علينا آياتُ القرآنِ وقلوبُنا كالحجارةِ أو أشدُّ قسوة! وكم يتَوالى علينا شهرُ رمضانَ وحالُنا فيهِ كحالِ أهلِ الشِّقوةِ؛ لا الشَّابُّ منَّا يَنْتَهي عنِ الصَّبوة ولا الشَّيْخُ يَنْزَجِرُ عنِ القبيحِ فيَلْتَحِقُ بالصَّفوةّ.

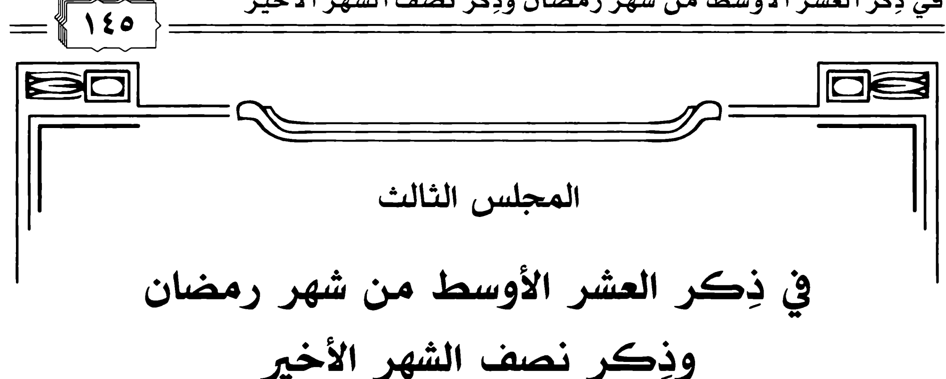
أينَ نحنُ من قومٍ إذا سَمِعوا داعيَ اللهِ أجابوا الدَّعوة، وإذا تُلِيَتْ عليهِم آياتُ اللهِ جَلَتْ قلوبَهُم جَلْوَة، وإذا صاموا صامَتْ منهُمُ الألسنةُ والأسماعُ والأبصارُ؟ أفما لنا فيهِم أُسوة؟ كم بينَنا وبينَ حالِ أهلِ الصَّفا! أبعدُ ممَّا بينَنا وبينَ الصَّفا والمروة.

كلَّما حَسُنَتْ منَّا الأقوالُ ساءَتِ الأعمالُ! فلا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم.

يا نَفْسُ فازَ الصَّالِحونَ بِالتُّقى	وَأبْصَروا الحَقَّ وَقَلْبي قَدْ عَمِي
يا حُسْنَهُمْ وَاللَّيْلُ قَدْ جَنَّهُمُ	وَنورُهُمْ يَفوقُ نورَ الأنْجُمِ
تَرَنَّموا بِالذِّكْرِ في لَيْلِهِمُ	فَعَيْشُهُمْ قَدْ طابَ بِالتَّرَنُّمِ
قُلوبُهُمْ لِلذِّكْرِ قَدْ تَفَرَّغَتْ	دُموعُهُمْ كَلُؤْلُؤٍ مُنْتَظِمِ

أَسْحارُهُمْ بِهِمْ لَهُمْ قدْ أشْرَقَتْ وَخِلَعُ الغُفْرانِ خَيْرُ القِسَمِ
وَيْحَكِ يا نَفْسُ ألا تَيَقُّظٌ يَنْفَعُ قَبْلَ أنْ تَزِلَّ قَدَمي
مَضى الزَّمانُ في تَوانٍ وَهَوًى فَاسْتَدرِكي ما قَدْ بَقِيَ وَاغْتَنِمي





المجلس الثالث

في ذِكر العشر الأوسط من شهر رمضان وذِكر نصف الشهر الأخير

في الصَّحيحينِ: عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ؛ قالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْتَكِفُ في العشرِ الأوسطِ مِن رمضانَ، فاعْتَكَفَ عامًا، حتَّى إذا كانَتْ ليلةُ إحدى وعشرينَ، وهيَ الليلةُ التي يَخْرُجُ في صبيحتِها مِنِ اعتِكافِهِ، قالَ: «**مَن كانَ اعْتَكَفَ معي؛ فلْيَعْتَكِفِ العشرَ الأواخرَ، وقد أُريتُ هذهِ الليلةَ ثمَّ أُنْسِيتُها، وقد رَأَيْتُني أَسْجُدُ في ماءٍ وطينٍ مِن صبيحتِها، فالتَمِسوها في العشرِ الأواخرِ، والتمسوها في كلِّ وترٍ**». فمَطَرَتِ السَّماءُ تلكَ الليلةَ، وكانَ المسجدُ على عريشٍ، فوَكَفَ المسجدُ، فبَصُرَتْ عينايَ رسولَ اللهِ ﷺ وعلى جبهتِهِ أثرُ الماءِ والطِّينِ مِن صبحِ إحدى وعشرينَ»[(١)].

هذا الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَعْتَكِفُ العشرَ الأوسَطَ مِن شهرِ رمضانَ؛ لابتغاءِ ليلةِ القدرِ فيهِ. وهذا السّياقُ يَقْتَضي أنَّ ذلكَ تَكَرَّرَ منهُ ﷺ.

وفي روايةٍ في الصَّحيحينِ في هذا الحديثِ: أنَّهُ اعْتَكَفَ العشرَ الأوَّلَ، ثمَّ اعتَكَفَ العشرَ الأوسطَ، ثمَّ قالَ: «**إنِّي أُتِيتُ، فقيلَ لي: إنَّها في العشرِ الأواخرِ، فمَن أحَبَّ منكُم أنْ يَعْتَكِفَ، فلْيَعْتَكِفْ**». فاعْتَكَفَ النَّاسُ معَهُ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ ذلكَ كانَ منهُ قبلَ أنْ يَتَبَيَّنَ لهُ أنَّها في العشرِ الأواخرِ، ثمَّ لمَّا تبيَّنَ لهُ ذلكَ؛ اعتَكَفَ العشرَ الأواخرَ حتَّى قَبَضَهُ اللهُ ﷻ. كما رواهُ عنهُ عائشةُ وأبو هُرَيْرَةَ وغيرُهُما.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٨)، ومسلم (١١٦٧).

وقد وَرَدَ الأمرُ بطلبِ ليلةِ القدرِ في النِّصفِ الأواخرِ مِن رمضانَ، وفي أفرادِ ما بَقِيَ مِن العشرِ الأوسطِ مِن هذا النِّصفِ، وهُما ليلتانِ: ليلةُ سبعَ عشرةَ، وليلةُ تسعَ عشرةَ.

ولهذا المعنى ـ واللهُ أعلمُ ـ كانَ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ يَقْنُتُ في الوترِ في ليالي النِّصفِ الأواخرِ؛ لأنَّهُ يُرْجى فيهِ ليلةُ القدرِ.

وأيضًا؛ فكلُّ زمانٍ فاضلٍ مِن ليلٍ أو نهارٍ؛ فإنَّ آخرَهُ أفضلُ مِن أوَّلِهِ، كيومِ عرفةَ ويومِ الجمعةِ. وكذلكَ الليلُ والنَّهارُ عمومًا آخرُهُ أفضلُ مِن أوَّلِه. ولذلكَ كانَتِ الصَّلاة الوسطى صلاةَ العصرِ، كما دَلَّتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ عليهِ، وآثارُ السَّلفِ الكثيرةُ تَدُلُّ عليهِ. وكذلكَ عشرُ ذي الحجَّةِ والمحرَّمِ؛ آخرُهُما أفضلُ مِن أوَّلِهما.

وقد قيلَ: إنَّ ابتداءَ نبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ كانَ في سابعَ عشرةَ رمضانَ.

قالَ أبو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ الباقِرُ: نَزَلَ جِبْريلُ على رسولِ اللهِ ﷺ ليلةَ السَّبتِ وليلةَ الأحدِ، ثمَّ ظَهَرَ لهُ بحِراءَ برسالةِ اللهِ ﷻ يومَ الاثنينِ لسبعَ عشرةَ خلَتْ مِن رمضانَ.

وأصَحُّ ما رُوِيَ مِن الحوادِثِ في هذهِ الليلةِ أنَّها ليلةُ بدرٍ ليلةَ سبعَ عشرةَ. وقيلَ: تسعَ عشرةَ. والمشهورُ أنَّها كانَتْ ليلةَ سبعَ عشرةَ وصبيحتُها هوَ يومُ الفرقانِ، يومَ التقى الجمعانِ.

وسُمِّيَ يومَ الفرقانِ؛ لأنَّ الله تعالى فَرَقَ فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وأظْهَرَ الحقَّ وأهلَهُ على الباطلِ وحزبِهِ، وعَلَتْ كلمةُ اللهِ وتوحيدُهُ، وذَلَّ أعداؤُهُ مِن المشركينَ وأهلِ الكتابِ.

وكانَ سببُ خروجِهِ حاجَة أصحابِهِ، خصوصًا المهاجرينَ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

وكانَتْ هذهِ العيرُ فيها أموالٌ كثيرةٌ لأعدائِهِمُ الكفَّارِ الذينَ أخْرَجوهُم مِن ديارِهِم وأموالِهِم ظلمًا وعدوانًا، كما قالَ تَعالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. فَقَصَدَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يأْخُذَ أموالَ هؤلاءِ الكفَّارِ الظَّالمينَ المعتدينَ على أولياءِ اللهِ وحزبِهِ وجندِهِ، فيَرُدَّها على أولياءِ اللهِ وحزبِهِ المظلومينَ المخرَجينَ مِن ديارِهِم وأموالِهِم لِيَتَقَوَّوا بها على عبادةِ اللهِ وطاعتِهِ وجهادِ أعدائِهِ. وهذا ممَّا أحَلَّهُ اللهُ لهذِهِ الأمَّةِ؛ فإنَّهُ أحَلَّ لهُمُ الغنائمَ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلَهُم.

وكانَ عدَّةُ مَن معهُ ثلاثَ مئةٍ وبضعةَ عشرَ، وكانوا على عدَّةِ أصحابِ طالوتَ الذينَ جازوا معَهُ النَّهرَ، وما جازَهُ معَهُ إلَّا مؤمنٌ.

وكانَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ حينَ خَرَجوا على غايةٍ مِن قلَّةِ الظَّهرِ والزَّادِ؛ فإنَّهُم لم يَخْرُجوا مستعدِّينَ لحربٍ ولا لقتالٍ، وإنَّما خَرَجوا لطلبِ العيرِ، وكانَ معهُم نحوُ سبعينَ بعيرًا يَعْتَقِبونَها بينَهُم، كلُّ ثلاثةٍ على بعيرٍ، وكانَ للنَّبيِّ ﷺ زميلانِ، وكانوا يَعْتَقِبونَ على بعيرٍ واحدٍ، فكانَ زميلاهُ يقولانِ لهُ: يا رسولَ اللهِ! ارْكَبْ حتَّى نَمْشِيَ عنكَ، فيَقولُ: «**ما أنتُما بأقوى على المشي منِّي ولا أنا بأغنى عنِ الأجرِ منكُما**»[١]. ولم يَكُنْ معَهُم إلا فرَسانِ، وقيلَ ثلاثةٌ، وقيلَ فرسٌ واحدٌ للمِقْدادِ.

وبَلَغَ المشركينَ خروجُ النَّبيِّ ﷺ لطلبِ العيرِ، فأخذَ أبو سُفْيانَ بالعيرِ نحوَ السَّاحلِ، وبَعَثَ إلى أهلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمُ الخبرَ ويَطْلُبُ منهُم أنْ يَنْفِروا لحمايةِ

---

(١) أخرجه النسائي (٨٧٥٦)، والحاكم (٢/١٠٠)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

عيرِهِم، فخَرَجوا مستصرخينَ، وخَرَجَ أشرافُهُم ورؤساؤُهُم وساروا نحوَ بدرٍ.

واستشارَ النَّبيُّ ﷺ المسلمينَ في القتالِ، فتكَلَّمَ المهاجرونَ فسَكَتَ عنهُم، وإنَّما كانَ قصدُهُ ﷺ الأنصارَ؛ لأنَّهُ ظَنَّ أنَّهُم لمْ يُبايِعوهُ إلَّا على نصرتِهِ على مَن قَصَدَهُ في ديارِهِم، فقامَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ فقالَ: إيَّانَا تُريدُ (يعْني: الأنصارَ)؟ والذي نفسِي بيدِهِ؛ لو أمَرْتَنا أنْ نُخِيضَها البحرَ؛ لأخضْناها، ولو أمَرْتَنا أنْ نَضْرِبَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغِمادِ؛ لفَعَلْنا[1]. وقالَ لهُ المِقْدادُ: لا نَقولُ لكَ كما قالَ بنو إسرائيلَ لموسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنْ نُقاتِلُ معكَ عن يَمينِكَ وشمالِكَ وبينَ يديكَ ومِن خلفِكَ. فسُرَّ النَّبيُّ ﷺ بذلكَ وأجْمَعَ على القتالِ وباتَ تلكَ الليلةَ ليلةَ الجمعةِ سابعَ عشرَ رمضانَ قائمًا يُصَلِّي ويَبْكي ويَدْعو اللهَ ويَسْتَنْصِرُهُ على أعدائِهِ.

وفي «المسند»: عن عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ؛ قالَ: لقد رَأيتُنا وما فينا إلَّا نائمٌ؛ إلَّا رسولَ اللهِ ﷺ تحتَ شجرةٍ يُصَلِّي ويَبْكي حتَّى أصْبَحَ[2].

وأمَدَّ اللهُ تَعَالى نبيَّهُ والمؤمنينَ بنصرٍ مِن عندِهِ وبجندٍ مِن جندِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

وفي «صحيح البُخاريِّ» أنَّ جِبْريلَ قالَ للنَّبيِّ ﷺ: ما تَعُدُّونَ أهلَ بدرٍ فيكُم؟ قالَ: «**مِن أفضلِ المسلمينَ** (أو كلمةً نحوَها). قالَ: **وكذلكَ مَن شَهِدَ بدرًا مِن الملائكةِ**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩).
(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٢)، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان.
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٩٤).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقالَ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولمَّا قدِمَ الخبرُ على أهلِ مكَّةَ؛ قالوا لمَن أتاهُم بالخبرِ: كيفَ حالُ النَّاسِ؟ قالَ: لا شيءَ! واللهِ؛ إنْ كانَ إلَّا أنْ لَقِيْناهُم فمَنَحْناهُم أكتافَنا يَقْتُلونَنا ويَأسِرونَنا كيفَ شاؤوا، لَقينا رجالًا على خيلٍ بلقٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ ما يَقومُ لها شيءٌ.

وقَتَلَ اللهُ صناديدَ كفَّارِ قريشٍ يومئذٍ، منهُم عُتْبَةُ بنُ ربيعَةَ وشَيْبَةُ والوَليدُ بنُ عُتْبَةَ وأبو جَهْلٍ وغيرُهُم، وأَسَروا منهُم سبعينَ.

وقصَّةُ بدرٍ يَطولُ استقصاؤُها، وهيَ مشهورةٌ في التَّفسيرِ وكتبِ الصِّحاحِ والسُّننِ والمسانيدِ والمغازي والتَّواريخِ وغيرِها. وإنَّما المقصودُ هاهُنا التَّنبيهُ على بعضِ مقاصِدِها.

وقَدْ أخبَرَ اللهُ عن ذلكَ بقولِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].

فإبليسُ عدوُّ اللهِ يَسْعَى جهدَهُ في إطفاءِ نورِ اللهِ وتوحيدِهِ، ويُغْرِي بذلكَ أولياءَهُ مِن الكفَّارِ والمنافقينَ. فلمَّا عَجزَ عن ذلكَ بنصرِ اللهِ نبيَّهُ وإظهارِ دينِهِ على الدِّينِ كلِّهِ، رَضِيَ بإلقاءِ الفتنِ بينَ المسلمينَ واجتَزى منهُم بمحقَّرات الذّنوبِ حيثُ عَجزَ عن ردِّهِم عن دينِهِم، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الشَّيطانَ قد أيسَ أنْ يَعْبُدَهُ المصلُّونَ في جزيرةِ العربِ، ولكنْ في التَّحريشِ بينَهُم**». خَرَّجَهُ مسلمٌ مِن حديثِ جابرٍ[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢).

وَلم يَعْظُمْ على إبليسَ شيءٌ أكثرُ مِن بعثةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وانتشارِ دعوتِهِ في مشارِقِ الأرضِ ومغاربِها، فإنَّهُ أيِسَ أنْ تَعودَ أُمَّتُهُ كُلُّهم إلى الشِّرْكِ الأكبرِ.

فهوَ لا يزالُ في همٍّ وغمٍّ وحزنٍ منذُ بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ، لِما رَأى منهُ ومِن أمَّتِهِ ما يُهِمُّهُ ويَغيظُهُ.

ولا يَزَالُ إبْليسُ يَرى في مواسمِ المغفرةِ والعتقِ مِن النَّارِ ما يَسوؤُهُ؛ فيومَ عرفةَ لا يُرى أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحَرَ فيهِ منهُ لِما يَرى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ وتجاوزِ اللهِ عنِ الذُّنوبِ العظامِ؛ إلَّا ما رُئِيَ يومَ بدرٍ.

وفي شهرِ رمضانَ يَلْطُفُ اللهُ بأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فيَغلُّ فيهِ الشَّياطينَ ومردةَ الجِنِّ حتَّى لا يَقْدِروا على ما كانوا يَقْدِرونَ عليهِ في غيرِهِ مِن تسويلِ الذُّنوبِ، ولهذا تَقِلُّ المعاصي في شهرِ رمضانَ في الأُمَّةِ لذلكَ.

ففي الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إذا دَخَلَ رمضانُ؛ فتِحَتْ أبوابُ السَّماءِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ جهنَّمَ، وسُلْسِلَت الشَّياطينُ**»[1].

ولمسلمٍ: «**فُتِحَتْ أبوابُ الرَّحمةِ**».

ولهُ أيضًا: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إذا جاءَ رمضانُ؛ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّار، وصُفِّدَتِ الشَّياطينُ**». وخَرَّجَ منهُ البُخاريُّ ذكرَ فتحِ أبوابِ الجنَّةِ.

وللتِّرْمِذِيِّ وابنِ ماجَهْ: عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إذا كانَ أوَّلُ ليلةٍ مِن شهرِ رمضانَ؛ صُفِّدتِ الشَّياطينُ ومردَةُ الجنِّ، وغُلّقَتْ أبوابُ النَّارِ فلم يُفْتَحْ منها بابٌ، وفتِحَتْ أبوابُ الجنَّةِ فلمْ يُغْلَقْ منها بابٌ، ويُنادي منادٍ: يا باغيَ الخيرِ! أقْبِلْ، ويا باغيَ الشَّرِّ! أقْصِر. وللهِ عُتَقاءُ مِن النَّارِ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وللإمامِ أحْمدَ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**أُعطِيَتْ أمَّتي في رمضانَ خمسَ خصالٍ لم تُعْطَهُ أُمَّةٌ قبلَهُم: خلوفُ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المسكِ، وتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الملائكةُ حتَّى يُفْطِروا، ويُزَيِّنُ اللهُ كلَّ يومٍ جنَّتَهُ ثمَّ يَقولُ: يوشِكُ عبادي الصَّالحونَ أنْ يُلقوا عنهُمُ المؤونةَ والأذى ويَصيروا إليكِ، وتُصَفَّدُ فيهِ مردةُ الشَّياطينِ فلا يَخْلُصونَ فيهِ إلى ما كانوا يَخْلُصونَ إليهِ في غيرِهِ، ويُغْفَرُ لهُم في آخرِ ليلةٍ**». قيلَ: يا رسولَ اللهِ! أهيَ ليلةُ القدرِ؟ قالَ: «**لا، ولكنَّ العاملَ إنَّما يُوَفَّى أجرَهُ إذا قَضى عملَهُ**»[1].

وفي ليلةِ القدرِ تَنْتَشِر الملائكةُ في الأرضِ فيَبْطُلُ سلطانُ الشَّياطينِ:

كَما قالَ تَعالَى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: ٤، ٥].

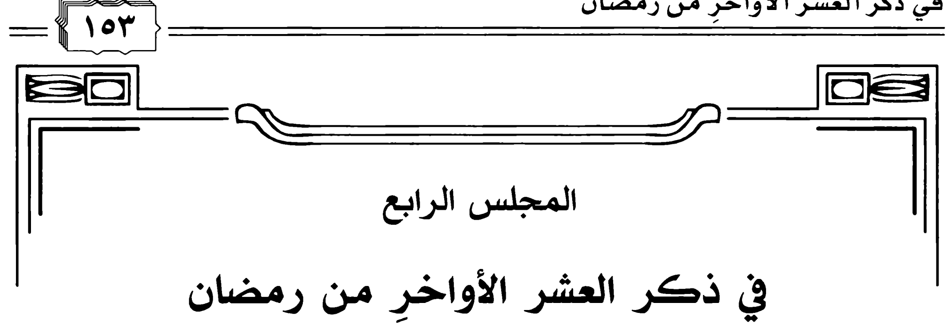
أبْشِروا يا معاشرَ المسلمينَ! فهذهِ أبوابُ الجنَّةِ الثّمانيةُ في هذا الشَّهرِ لأجلِكُم قد فُتِحَتْ، ونسماتُها على قلوبِ المؤمنينَ قد نَفَحَتْ، وأبوابُ الجحيمِ كلُّها لأجلِكُم مغلقة، وأقدامُ إبْليسَ وذرِّيَّتِهِ مِن أجلِكُم موثقة. ففي هذا الشَّهرِ يُؤخَذُ مِن إبليسَ بالثَّارِ، وتُسْتَخْلَصُ العصاةُ مِن أسرِهِ فما يَبْقى لهُم عندَهُ آثار. كانوا أفراخَهُ قد غَذَّاهُم بالشَّهواتِ في أوكارِهِ فهجَروا اليومَ تلكَ الأوكار، نَقَضوا معاقلَ حصونِهِ بمعاولِ التَّوبةِ والاستغفارِ، خَرَجوا مِن سجنِهِ إلى حصنِ التَّقوى والإيمانِ فأمِنُوا مِن عذابِ النَّار، قَصَموا ظهرَهُ بكلمةِ التَّوحيدِ فهوَ يَشْكُو ألمَ الانكسار. في كلِّ موسمٍ مِن مواسمِ الفضلِ يَحْزَنُ ففي هذا الشَّهْرِ يَدْعو بالويلِ والثُّبورِ لِما يَرى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ ومغفرةِ الأوزار، غَلَبَ حزبُ الرَّحمنِ وهَرَبَ حزبُ الشَّيطانِ فما بَقيَ لهُ سلطانٌ إلَّا على الكفَّار، عُزِلَ سلطانُ الهوى وصارَتِ الدَّولةُ لسلطانِ التَّقوى ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩١٧) وإسناده ضعيف.

يا ندامايَ صحَا القَلْبُ صَحا فَاطْرُدوا عَنِّي الصِّبا وَالمَرَحا
هَزَمَ العَقْلُ جُنودًا لِلْهَوى فاسِدي لا تَعْجَبوا إنْ صَلَحا
زَجَرَ الحَقُّ فُؤادِي فَارْعَوى وَأفاقَ القَلْبُ مِنِّي وصَحَا
بادِروا التَّوبَةَ مِنْ قَبْلِ الرَّدى فَمُناديهِ يُنادِينا الوَحا





المجلس الرابع

في ذكر العشر الأواخرِ من رمضان

في الصَّحيحينِ: عن عائِشَةَ رضي الله عنها؛ قالَتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا دَخَلَ العشرُ؛ شَدَّ مئزَرَهُ وأحْيا ليلَهُ وأيْقَظَ أهلَهُ. هذا لفظُ البُخارِيّ. ولفظُ مسلمٍ: أحيا الليلَ وأيْقَظ أهلَهُ وجَدَّ وشَدَّ المئزرَ[1].

وفي روايةٍ لمسلمٍ عنها؛ قالَتْ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يجتهد في العشرِ الأواخرِ ما لا يَجْتَهِدُ في غيرِهِ.

كانَ النَّبيُّ يَخُصُّ العشرَ الأواخرَ مِن رمضانَ بأعمالٍ لا يَعْمَلُها في بقيَّةِ الشَّهرِ.

فمنها: إحياءُ الليلِ

فيُحْتَمَلُ أنَّ المرادَ إحياءُ الليلِ كلِّهِ.

ويُحْتَمَلُ أنْ يُريد بإحياءِ الليلِ إحياءَ غالبِهِ.

ويُؤَيِّدُهُ ما في «صحيح مسلم»: عن عائِشَةَ؛ قالَتْ: ما أعلَمُهُ ﷺ قامَ ليلةً حتَّى الصَّباحِ[2].

ومنها: أنَّ النَّبيَّ كانَ يوقِظُ أهلَهُ للصَّلاةِ في ليالي العشرِ دونَ غيرِهِ مِن الليالي.

قالَ سُفْيانُ الثَّوريُّ: أحبُّ إليَّ إذا دَخَلَ العشرُ الأواخِرُ أنْ يَتَهَجَّدَ بالليلِ ويَجْتَهِدَ فيهِ ويُنْهِضَ أهلَهُ وولدَهُ إلى الصَّلاةِ إنْ أطاقوا ذلكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

وقد صَحَّ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ كانَ يَطْرُقُ فاطِمَةَ وعَليًّا ليلًا فيقولُ لهُما: «**ألا تَقومانِ فتُصَلِّيانِ**»(١).

وكانَ يوقِظُ عائِشَةَ بالليلِ إذا قضى تهجُّدَهُ وأرادَ أنْ يُوتِر.

ووَرَدَ التَّرغيبُ في إيقاظِ أحدِ الزَّوجينِ صاحِبَهُ للصَّلاةِ ونضحِ الماءِ في وجهِهِ.

وفي «الموطّأ»: أنَّ عمَرَ بنَ الخَطَّابِ كانَ يُصلِّي مِن الليلِ ما شاءَ اللهُ أنْ يُصَلِّيَ، حتَّى إذا كانَ نصفُ الليلِ؛ أيْقَظَ أهلَهُ للصَّلاةِ، يقولُ لهُمُ: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، ويَتْلو هذهِ الآيَةَ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

كانَتِ امرأةُ حبيبٍ أبي مُحَمَّدٍ تَقولُ لهُ بالليلِ: قد ذَهَبَ الليلُ، وبينَ أيدينا طريقٌ بعيدٌ، وزادُنا قليلٌ، وقوافلُ الصَّالحينَ قد سارَتْ قدَّامَنا، ونحنُ قد بَقِينا!

يا نائِمًا بِاللَّيْلِ كَمْ تَرْقُدُ ... قُمْ يا حَبيبي قَدْ دَنا المَوْعِدُ
وَخُذْ مِنَ اللَّيلِ وَأَوْقاتِهِ ... وِرْدًا إذا ما هَجَعَ الرُّقَّدُ
مَن نَامَ حَتَّى يَنْقَضِي لَيْلُهُ ... لَمْ يَبْلُغِ المَنْزِلَ أوْ يَجْهَدُ

ومنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَشُدُّ المئزرَ

واخْتَلَفوا في تفسيرِهِ: فمنهُم مَن قالَ: هوَ كنايةٌ عن شدَّةِ جِدِّهِ واجتهادِهِ في العبادةِ، كما يُقالُ: فلانٌ يَشُدُّ وسطَهُ ويَسْعى في كذا. وهذا فيهِ نظرٌ؛ فإنَّها قالَتْ: «جَدَّ وشَدَّ المئزر»، فعَطَفَتْ شدَّ المئزرَ على جدِّهِ.

والصَّحيحُ أنَّ المرادَ اعتزالُهُ للنِّساءِ، وبذلكَ فسَّرَهُ السَّلفُ والأئمَّةُ المتقدِّمونَ.

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ غالبًا يَعْتَكِفُ العشرَ الأواخرَ، والمعتكفُ ممنوعٌ مِن

(١) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين.

قربانِ النِّساءِ بالنَّصِّ والإجماعِ، وقد قالَ طائفةٌ مِن السَّلفِ في تفسيرِ قولِهِ تعالَى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]: إنَّهُ طلبُ ليلةِ القدرِ. والمعنى في ذلكَ أنَّ الله تعالَى لمَّا أباحَ مباشرةَ النِّساءِ في ليالي الصِّيامِ إلى أنْ يَتبيَّنَ الخيطُ الأبيضُ مِن الخيطِ الأسودِ؛ أمَرَ مَعَ ذلكَ بطلبِ ليلةِ القدرِ، لئلَّا يَشْتَغِلَ المسلمونَ في طولِ ليالي الشَّهرِ بالاستمتاعِ المباحِ فيفوتُهُم طلبُ ليلةِ القدرِ، فأمَرَ معَ ذلكَ بطلبِ ليلةِ القدرِ بالتَّهجُّدِ مِن الليلِ، خصوصًا في الليالي المرجوِّ فيها ليلةُ القدرِ، فمِن هُنا كانَ النَّبيُّ ﷺ يُصيبُ مِن أهلِهِ في العشرينَ مِن رمضانَ، ثمَّ يَعْتَزِلُ نساءَهُ ويَتفَرَّغُ لطلبِ ليلةِ القدرِ في العشرِ الأواخرِ.

ومنها: اغتسالُهُ ﷺ بينَ العشاءينِ

وقالَ حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ: كانَ ثابِت البُنانِيُّ وحُمَيْدٌ الطَّويلُ يَلبَسانِ أحسنَ ثيابِهما ويَتطيَّبانِ ويُطَيِّبونَ المسجدَ بالنَّضوحِ والدُّخنةِ[1] في الليلةِ التي تُرْجى فيها ليلةُ القدرِ.

وقالَ ثابتٌ البُنانِيُّ: كانَ لتَميمٍ الدَّاريِّ حلَّةٌ اشْتَراها بألفِ درهمٍ، كانَ يَلْبَسُها في الليلةِ التي يُرْجى فيها ليلةُ القدرِ.

فتَبَيّنَ بهذا أنَّهُ يُسْتَحَبُّ في الليالي التي تُرْجى فيها ليلةُ القدرِ التَّنظُّفُ والتَّزَيُّنُ والتَّطيُّبُ بالغسلِ والطِّيبِ واللباسِ الحسنِ، كما يُشْرَعُ ذلكَ في الجمعِ والأعيادِ. وكذلكَ يُشْرَعُ أخذُ الزِّينةِ بالثِّيابِ في سائرِ الصَّلواتِ، كما

(١) النَّضوح: طيب سائل يُرش على فرش المسجد وأرضيَّاته. والدُّخنة: هي الدخون أو البخور الذي يُطيَّب به البيت أو المسجد. وقد رأيت المداخن «المباخر» في رمضان الماضي ١٤٣٦هـ تجوب أرجاء المسجد النبوي الشريف في كل ليلة مرتين: الأولى قبل صلاة العشاء، والأخرى قبل صلاة قيام الليل بعد منتصف الليل في العشر الأواخر، وكان الناس يفرحون بدخول تلك المباخر، فإن الطيب سبب لانشراح الصدر وتجدد النشاط.

قالَ تعالَى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقالَ ابنُ عُمَرَ: اللهُ أحقّ أنْ يُتَزَيَّنَ لهُ. ويُرْوى عنهُ مرفوعًا.

ولا يَكْمُلُ التَّزَيُّنُ الظَّاهِرُ إلَّا بتزيُّنِ الباطنِ بالتَّوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ وتطهيرِهِ مِن أدناسِ الذُّنوبِ وأوضارِها؛ فإنَّ زينةَ الظَّاهِرِ معَ خرابِ الباطنِ لا تُغْني شيئًا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦]

إذا المَرْؤُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيابًا مِنَ التُّقى ... تَقَلَّبَ عُرْيانًا وَإنْ كانَ كاسِيا

لا يَصْلُحُ لمناجاةِ الملوكِ في الخلواتِ إلَّا مَن زَيَّنَ ظاهرَهُ وباطنَهُ وطَهَّرَهُما، خصوصًا ملكَ الملوكِ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى، وهوَ لا يَنْظُرُ إلى صورِكُم وإنَّما يَنْظُرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم، فمَن وَقَفَ بينَ يديهِ؛ فلْيُزَيِّنْ له ظاهرَهُ باللباسِ وباطنَهُ بلباسِ التَّقوى.

ومنها: الاعتكافُ

ففي الصَّحيحينِ: عن عائِشَةَ رضي الله عنها؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَعْتَكِفُ العشرَ الأواخرَ مِن رمضانَ حتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ[1].

وفي «صحيح البُخاريِّ»: عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْتَكِفُ في كلِّ رمضانَ عشرةَ أيَّامٍ، فلمَّا كانَ العامُ الذي قُبِضَ فيهِ، اعتكَفَ عشرينَ[2].

وإنَّما كانَ يَعْتَكِفُ ﷺ في هذهِ العشرِ التي يُطْلَبُ فيها ليلةُ القدرِ قطعًا لأشغالِهِ وتفريغًا لبالِهِ وتخلِّيًا لمناجاةِ ربِّهِ وذكرِهِ ودعائِهِ. وكانَ ﷺ يَحْتَجِرُ حصيرًا يَتَخَلَّى فيها عنِ النَّاسِ فلا يُخالِطُهُم ولا يَشْتَغِلُ بهِم.

ولهذا ذَهَبَ الإمامُ أحْمَدُ إلى أنَّ المعتكف لا يُسْتَحَبُّ لهُ مخالطةُ النَّاسِ،

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

حتَّى ولا لتعليمِ علمٍ وإقراءِ قرآنٍ، بلِ الأفضلُ لهُ الانفرادُ بنفسِهِ والتَّخلِّي بمناجاةِ ربِّهِ وذكرِهِ ودعائِهِ.

فالخلوةُ المشروعةُ لهذِهِ الأمَّةِ هيَ الاعتكافُ في المساجدِ، خصوصًا في شهرِ رمضانَ، خصوصًا في العشرِ الأواخرِ منهُ، كما كانَ النَّبيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ.

فمعنى الاعتكافِ وحقيقتُهُ: قطع العلائقِ عنِ الخلائقِ للاتِّصالِ بخدمةِ الخالقِ، وكلَّما قَوِيَتِ المعرفةُ باللهِ والمحبَّةُ لهُ والأُنسُ بهِ، أَوْرَثَتْ صاحبَها الانقطاعَ إلى اللهِ تَعالى بالكليَّةِ على كلِّ حالٍ.

* * *

يا ليلةَ القدرِ! للعابدينَ اشْهَدي، يا أقدامَ القانتينَ! اركَعي لربِّكِ واسْجُدِي، يا ألسنةَ السَّائلينَ! جُدِّي في المسألةِ واجْتَهِدِي.

يا رِجالَ اللَّيْلِ جدُّوا ... رُبَّ داعٍ لا يُردُّ

ما يَقومُ اللَّيْلَ إلَّا ... مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجِدُّ

يا مَن ضاعَ عمرُهُ في لا شيءٍ! اسْتَدرِكْ ما فاتَكَ في ليلةِ القدرِ؛ فإنَّها تُحْسَبُ بالعمرِ.

وَلَيْلَةِ وَصْلٍ باتَ مُنْجِزُ وَعْدِهِ شَفَيْتُ بِها قَلْبًا أُطيلَ عَليلُهُ

سَمِيرِيَ فيها بَعْدَ طولِ مَطالِ زَمانًا فَكانَتْ لَيْلَةً بِلَيالي

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١ - ٣].

قالَ مالِكٌ: بَلَغَني أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُرِيَ أعمارَ النَّاسِ قبلَهُ أو ما شاءَ اللهُ مِن ذلكَ، فكأنَّهُ تَقاصَرَ أعمارَ أُمَّتِهِ ألَّا يَبْلُغُوا مِن العملِ الذي بَلَغَ غيرُهُم في طولِ العمرِ، فأعْطاهُ اللهُ ليلةَ القدرِ خيرًا مِن ألفِ شهرٍ.

وفي الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**مَن قامَ ليلةَ**

القدرِ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنْبِهِ»[١].

فالمبادرةَ المبادرةَ إلى اغتنامِ العملِ فيما بَقِيَ مِن الشَّهرِ، فعسى أنْ يُسْتَدْرَكَ بهِ ما فاتَ مِن ضياعِ العمرِ.

تَـوَلَّـى الـعُـمْـرُ فـي سَـهْـوٍ	وَفـي لَـهْـوٍ وفـي خُـسْـرِ
فـيـا ضَـيْـعَـةَ ما أنْـفَـقْـ	ـتُ فـي الأيَّـامِ مِـنْ عُـمْـرِي
وَمـا لـي فـي الـذي ضَـيَّـعْـ	ـتُ مِـنْ عُـمْـرِيَ مِـنْ عُـذْرِ
فَـمـا أغْـفَـلَـنـا عَـنْ وا	جِـبـاتِ الـحَـمْـدِ وَالـشُّـكْـرِ
أمـا قَـدْ خَـصَّـنـا الـلَّـهُ	بِـشَـهْـرٍ أيَّـمـا شَـهْـرِ
بِـشَـهْـرٍ أنْـزَلَ الـرَّحْـمـا	نُ فـيـهِ أشْـرَفَ الـذِكْـرِ
وَهَـلْ يُـشْـبِـهُـهُ شَـهْـرٌ	وَفـيـهِ لَـيْـلَـةُ الـقَـدْرِ
فَـكَـمْ مِـنْ خَـبَـرٍ صَـحَّ	بِـمـا فـيـهـا مِـنَ الـخَـيْـرِ
رَوَيْـنـا عَـنْ ثِـقـاتٍ أنْـ	ـنَـهـا تُـطْـلَـبُ فـي الـوِتْـرِ
فَـطـوبـى لِامْـرِئٍ يَـطْـلُـ	ـبُـهـا فـي هـذِهِ الـعَـشْـرِ
فَـفِـيـهـا تَـنْـزِلُ الأمْـلا	كُ بِـالأنْـوارِ وَالـبِـرّ
وَقَـدْ قـالَ سَـلَامٌ هِـ	ـيَ حَـتَّـى مَـطْـلَـعِ الـفَـجْـرِ
ألا فَـادَّخِـروهـا إنْـ	ـنَـهـا مِـنْ أنْـفَـسِ الـذُخْـرِ
فَـكَـمْ مِـنْ مُـعْـتَـقٍ فـيـهـا	مِـنَ الـنَّـارِ وَلا يَـدْري



---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٨)، ومسلم (٧٥٩).

المجلس الخامس

في ذكر السبع الأواخر من رمضان

في الصَّحيحينِ: عنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما؛ أنَّ رجالًا مِن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ أُروا ليلةَ القدرِ في المنامِ في السَّبعِ الأواخِرِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أرى رؤياكُم قد تَواطَأَتْ في السَّبعِ الأواخِرِ، فمَن كانَ متحرِّيَها فليَتَحَرَّها في السَّبْعِ الأواخِرِ**»[1].

وفي «صحيح مسلم»: عنهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**التَمِسوها في العشرِ الأواخِرِ، فإنْ ضَعُفَ أحدُكُم أو عَجزَ، فلا يُغْلَبَنَّ على السَّبْعِ البواقي**».

قد ذَكَرنا فيما تَقَدَّمَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَجْتَهِد في شهرِ رمضانَ على طلبِ ليلةِ القدرِ، وأنَّهُ اعتَكَفَ مرَّةً العشرَ الأوَّلَ منهُ، ثمَّ طَلَبَها فاعتَكَفَ بعدَ ذلكَ العشرَ الأوسطَ في طلبِها، وأنَّ ذلكَ تَكَرَّرَ منهُ غيرَ مرَّةٍ، ثمَّ اسْتَقَرَّ أمرُهُ على اعتِكافِ العشرِ الأواخرِ في طلبِها وأمَرَ بطلبِها فيهِ.

ففي الصَّحيحينِ: عن عائِشَةَ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**تَحَرَّوْا ليلةَ القدرِ في العشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ**»[2].

والأحاديثُ في المعنى كثيرةٌ.

وكانَ يأمُرُ بالتماسِها في أوتارِ العشرِ الأواخِرِ:

ففي «صحيح البُخارِيِّ»: عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ قالَ: التَمِسوا ليلةَ القدرِ في العشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ؛ في تاسعةٍ تَبْقى، في سابعةٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).

تَبْقى، في خامسةٍ تَبْقى»[١].

ثمَّ بعدَ ذلكَ أمَرَ بطلبِها في السَّبْعِ الأواخِرِ.

وقال الجمهورُ: هيَ منحصرةٌ في العشرِ الأواخرِ، واختَلَفوا في أيِّ ليالي العشرِ أرجى:

وقالَ الأكثرونَ: بل بعض لياليهِ أرجى مِن بعضٍ، وقالوا: الأوتارُ أرجى في الجملةِ.

ثمَّ اخْتَلَفوا: في أيِّ أوتارِهِ أرجى:

فمنهُمْ مَن قالَ: ليلةُ إحدى وعشرينَ. وهوَ المشهورُ عنِ الشَّافِعيِّ.

وَحُكِيَ للشَّافِعِيِّ قولٌ آخرُ؛ أنَّ أرجاها ليلةُ ثلاثٍ وعشرينَ.

ورَجَّحَتْ طائفةٌ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ، وحَكاهُ الثَّوْرِيُّ عن أهلِ الكوفةِ، فقالَ: نحنُ نَقولُ: هيَ ليلةُ سبعٍ وعشرينَ؛ لما جاءَنا عن أُبَيٍّ بنِ كَعْبٍ.

ومِمَّنْ قالَ بهذا أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، وكانَ يَحْلِفُ على ذلك، وزِرّ بنُ حُبَيْشٍ، وعَبْدَةُ بنُ أبي لُبابَةَ.

ورُوِيَ عن قَنانِ بنِ عَبْدِ اللهِ النَّهْمِيِّ؛ قالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عن ليلةِ القدرِ. فقالَ: كانَ عُمَرُ وحُذَيْفَةُ وأُناسٌ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ لا يَشُكُّونَ أنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ. خَرَّجَهُ ابنُ شَيْبَةَ. وهوَ قولُ أحْمَدَ وإسحاقَ.

واسْتَدَلَّ مَن رَجَّحَ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ بأنَّ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ كانَ يَحْلِفُ على ذلكَ وَيَقولُ: بالآيةِ أو بالعلامةِ التي أخْبَرَنا بها رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الشَّمسَ تَطْلُعُ صبيحتَها لا شعاعَ لها. خرَّجَهُ مسلمٌ[٢].

وفي «مسند الإمام أحمدَ»: عنِ ابنِ عبَّاسٍ؛ أنَّ رجلًا قالَ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي شيخٌ كبيرٌ عليلٌ يَشُقُّ عليَّ القيامُ، فمُرني بليلةٍ لعلَّ اللهَ يُوَفِّقُني فيها لليلةِ

(١) تقدَّم تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم (٧٦٢).

القدرِ. قالَ: «عليكَ بالسَّابعةِ». وإسنادُهُ على شرطِ البُخاريِّ[(١)].

وأمَّا العملُ في ليلةِ القدرِ؛ فقد ثَبَت عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**مَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِهِ**»[(٢)]. وقيامها إنَّما هوَ إحياؤُها بالتَّهجُّدِ فيها والصَّلاةِ.

وقد أمَرَ عائِشَةَ بالدُّعاءِ فيها أيضًا.

قالَ سُفيانُ الثَّورِيُّ: الدُّعاءُ في تلكَ الليلةِ أحبُّ إليَّ مِن الصَّلاةِ. ومرادُهُ أنَّ كثرةَ الدُّعاءِ أفضلُ مِن الصَّلاةِ التي لا يَكْثُرُ فيها الدُّعاءُ، وإنْ قَرَأَ ودَعا كانَ حسنًا.

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَهَجّدُ في ليالي رمضانَ، ويَقْرأُ قراءة مرتَّلَةً، لا يَمُرُّ بآيَةٍ فيها رحمةٌ إلَّا سَألَ ولا بآيةٍ فيها عذابٌ إلَّا تَعوَّذَ، فيَجْمَعُ بينَ الصَّلاةِ والقراءةِ والدُّعاءِ والتَّفكُّرِ. وهذا أفضلُ الأعمالِ وأكملُها في ليالي العشرِ وغيرِها. واللهُ أعلمُ[(٣)].

رياحُ هذهِ الأسحارِ تَحْمِلُ أنينَ المذنبينَ وأنفاسَ المحبِّينَ وقصصَ التَّائبينَ.

لو قامَ المذنبونَ في هذهِ الأسحارِ، على أقدامِ الانكسارِ، ورَفَعوا قَصَصَ[(٤)] الاعتذار، مضمونُها ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]؛ لَبَرَزَ لهُم

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٩)، وهو حديث صحيح كما ذكر المؤلف ﷺ.

(٢) سيأتي تخريجه، وهو في الصحيحين.

(٣) صدق المؤلف ﷺ، فالصلاة تجمع ذلك كله: التلاوة والدعاء والذكر والركوع والسجود وغيرها، وعلى ذلك فينبغي للمسلم أن ينشغل بها أكثر من انشغاله بالدعاء أو الذِكر المجرد.

(٤) القصص جمع قصَّة وهي العريضة التي يرفعها المحتاج للحاكم أو للغني أو المسؤول ليطلب فيها مالًا أو شيئًا.

التَّوقيعُ عليها ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا للنَّبيِّ ﷺ: أرَأيْتَ إنْ وافقْتُ ليلةَ القدرِ؛ ما أقولُ فيها؟ قالَ: «**قولي: اللَّهُمَّ! إنَّكَ عفوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعْفُ عَنِّي**»[1].

العفوُّ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى، وهوَ المتجاوزُ عن سيِّئاتِ عبادِهِ، الماحي لآثارِها عنهُم.

وهوَ يُحِبُّ العفوَ، ويُحِبُّ أنْ يَعْفُوَ عن عبادِهِ، ويُحِبُّ مِن عبادِهِ أنْ يَعْفُوَ بعضُهُم عن بعضٍ، فإذا عَفا بعضهم عن بعضٍ؛ عامَلَهُم بعفوِهِ، وعفوُهُ أحبُّ إليهِ مِن عقوبتِهِ. وكانَ النَّبيُّ ﷺ يَقولُ: «**أعوذُ برضاكَ مِن سخطِكَ وعفوِكَ مِن عقوبَتِكَ**»[2].

لمَّا عَرَفَ العارفونَ جلالَهُ؛ خَضَعوا، ولمَّا سَمِعَ المذنبونَ بعفوِهِ، طمِعوا.

لولا طمعُ المذنبينَ في العفوِ؛ لاحْتَرَقَتْ قلوبُهُم باليأسِ مِن الرَّحمةِ، ولكنَّ القلوب إذا ذَكَرَتْ عفْوَ اللهِ؛ اسْتَرْوَحَتْ إلى بردِ عفوِهِ.

يا عظيمَ الذَّنْبِ عَفْـ ... ـوُ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أكْبَرْ
أكْبَرُ الأوْزارِ في ... جَنْبِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْغُرْ

وإنَّما أمَرَ بسؤالِ العفوِ في ليلةِ القدرِ بعدَ الاجتهادِ في الأعمالِ فيها وفي ليالي العشرِ؛ لأنَّ العارفينَ يَجْتَهِدونَ في الأعمالِ، ثمَّ لا يَرَوْنَ لأنفسِهِم عملًا صالحًا ولا حالًا ولا مقالًا، فيَرْجِعونَ إلى سؤالِ العفوِ كحالِ المذنبِ المقصِّرِ.

يا رَبِّ عَبْدُكَ قَدْ أتا ... كَ وَقَدْ أساءَ وَقَدْ هَفا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦).

يَـكْـفـيـهِ مِـنْـكَ حَـيـاؤُهُ ... مِـنْ سـوءِ مـا قَـدْ أسْـلَـفـا
حَـمَـلَ الـذُّنـوبَ عَـلـى الـذُّنـو ... بِ الـمـوبِـقـاتِ وَأسْـرَفـا
وَقَـدِ اسْـتَـجـارَ بِـذَيْـلِ عـفـ ... ـوِكَ مِـنْ عِـقـابِـكَ مُـلْـحِـفـا
يـا رَبِّ فَـاعْـفُ وَعـافِـهِ ... فَـلأنْـتَ أوْلـى مَـن عَـفـا





المجلس السادس

في وداع شهر رمضان

في الصَّحيحينِ مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ، ومَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ**»[1].

وفيهما أيضًا مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ أيضًا؛ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ**»[2].

وقد رُوِيَ أنَّ الصَّائمينَ يَرْجِعونَ يومَ الفطرِ مغفورًا لهُم، وأنَّ يومَ الفطرِ يُسَمَّى يومَ الجوائزِ، وفيه أحاديثُ ضعيفةٌ.

إذا كمَّلَ الصَّائمونَ صيامَ رمضانَ وقيامَهُ؛ فقد وَفَّوْا ما عليهِم مِن العملِ، وبَقِيَ ما لَهُمْ مِن الأجرِ، وهوَ المغفرةُ، فإذا خَرَجوا يومَ عيدِ الفطرِ إلى الصَّلاةِ، قُسِّمَتْ عليهِم أُجورُهُم، فرَجَعوا إلى منازِلِهِم وقدِ استَوْفَوا الأجرَ واسْتَكْمَلُوهُ.

مَن وَفَّى ما عليهِ مِن العملِ كاملًا؛ وُفِّيَ لهُ الأجرُ كاملًا، ومَن سَلَّمَ ما عليهِ موفَّرًا؛ تَسَلَّمَ ما لهُ نقدًا لا مؤخَّرًا.

قالَ سَلمانُ: الصَّلاةُ مكيالٌ، فَمن وَفَّى؛ وُفِّيَ لهُ، ومَن طَفَّفَ؛ فقد عَلِمتُمْ ما قيلَ في المطفِّفينَ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٨)، ومسلم (٧٥٩).

فالصِّيامُ وسائر الأعمالِ على هذا المنوالِ: مَن وَفَّاها؛ فهوَ مِن خيارِ عبادِ اللهِ الموفِّينَ، ومَن طَفَّفَ فيها؛ فويلٌ للمطفِّفينَ.

أما يَسْتَحيي مَن يَسْتَوْفي مكيالَ شهواتِهِ ويُطَفِّفُ في مكيالِ صيامِهِ وصلاتِهِ؟! ألا بعدًا لِمَدْيَنَ![1]

في الحديثِ: «أسوأُ النَّاسِ سرقةً الذي يَسْرِقُ صلاتَهُ»[2].

إذا كانَ الويلُ لِمَن طَفَّفَ مكيالَ الدُّنيا؛ فكيفَ حالُ مَن طَفَّفَ مكيالَ الدِّينِ! ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥].

غَدًا تُوَفَّى النُّفوسُ ما كَسَبَتْ إنْ أحْسَنوا أحْسَنوا لأنفُسِهِمْ

وَيَحْصُدُ الزَّارعونَ ما زَرَعوا وَإنْ أساؤوا فَبِئْسَ ما صَنَعوا

كانَ السَّلفُ الصَّالِحُ يَجْتَهِدونَ في إتمامِ العملِ وإكمالِهِ وإتقانِهِ، ثمَّ يَهْتَمُّونَ بعدَ ذلك بقبولِهِ ويَخافونَ مِن ردِّهِ، وهؤلاءِ الذين ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

رُوِيَ عن عَلِيٍّ؛ قالَ: كونوا لقبولِ العملِ أشدَّ اهتمامًا منكُم بالعملِ، ألَمْ تَسْمَعوا اللهَ ﷻ يَقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقالَ مالكُ دينارٍ: الخوفُ على العملِ أنْ لا يُتَقَبَّلَ أشدُّ مِن العملِ.

شهرُ رمضانَ تَكْثُرُ فيهِ أسبابُ الغفرانِ. فمِن أسبابِ المغفرةِ فيهِ صيامُهُ وقيامُهُ وقيامُ ليلةِ القدرِ فيهِ، كما سبَقَ. ومنها تفطيرُ الصُّوَّامِ والتَّخفيفُ عنِ المملوكِ[3]. ومنها الذِّكرُ. ومنها الاستغفارُ، والاستغفارُ طلبُ المغفرةِ، ودعاءُ

---

(١) هذه العبارة اقتباس من قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥] ومناسبتها الحديث عن التطفيف الذي اشتهر به أصحاب مدين قوم شعيب عليه السلام.

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٣٢)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٣) ومثل التخفيف عن المماليك التخفيف عن الخدم والعمال والموظفين، فينبغي مراعاتهم والتخفيف عليهم في كل الأوقات وفي رمضان خاصَّة.

الصَّائمِ يُسْتَجابُ في صيامِهِ وعندَ فطرِهِ، ولهذا كانَ ابنُ عُمَرَ إذا أَفْطَرَ يَقولُ: اللَّهُمَّ! يا واسعَ المغفرةِ! اغْفِرْ لي.

فلمَّا كَثُرَتْ أسبابُ المغفرةِ في رمضانَ؛ كانَ الذي تَفوتُهُ المغفرةُ فيهِ محرومًا غايةَ الحرمانِ.

في «صحيح ابنِ حِبَّان»: عن أبي هُرَيْرَةَ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ صَعِدَ المنبرَ فقالَ: «**آمينَ، آمينَ، آمينَ**». قيلَ: يا رسولَ اللهِ! إنَّكَ صَعِدْتَ المنبرَ فقُلْتَ آمينَ آمينَ آمينَ. قالَ: «**إنَّ جِبْريلَ أتاني فقالَ: مَن أدْرَكَ شهرَ رمضانَ فلمْ يُغْفَرْ لهُ فدَخَلَ النَّارَ فأبْعَدَهُ اللهُ، قلْ آمينَ، فقُلْتُ آمينَ. ومَن أدْرَكَ أبويهِ أو أحدَهُما فلم يَبَرَّهُما فماتَ فدَخَلَ النَّارَ فأبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ آمينَ، فقُلْتُ آمينَ. ومَن ذُكِرْتَ عندَهُ فلم يُصَلِّ عليكَ فماتَ فدَخَلَ النَّارَ فأبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ آمينَ، فقُلْتُ آمينَ**»[1].

تَرَحَّلَ الشَّهْرُ وا لَهْفاهُ وَانْصَرَما ... وَاخْتَصَّ بِالفَوْزِ في الجَنَّاتِ مَن خَدَما
وَأَصْبَحَ الغافِلُ المِسْكينُ مُنْكَسِرًا ... مِثْلي فيا وَيْحَهُ يا عُظْمَ ما حُرِما
مَن فاتَهُ الزَّرْعُ في وَقْتِ البِذارِ فَما ... تَراهُ يَحْصُدُ إلَّا الهَمَّ وَالنَّدَما

وإنَّما كانَ يومُ الفطرِ مِن رمضانَ عيدًا لجميعِ الأُمَّةِ؛ لأنَّهُ يُعْتَقُ فيهِ أهلُ الكبائرِ مِن الصَّائمينَ مِن النَّارِ فيَلْتَحِقُ فيهِ المذنبونَ بالأبرارِ، كما أنَّ يومَ النَّحرِ هوَ العيدُ الأكبرُ؛ لأنَّ قبلَهُ يومَ عرفةَ، وهوَ اليومُ الذي لا يُرى في يومٍ مِن الدُّنيا أكثرَ عتقًا مِن النَّارِ منهُ. فمَن أُعْتِقَ مِن النَّارِ في اليومينِ؛ فلهُ يومُ عيدٍ، ومَن فاتَهُ العتقُ في اليومينِ، فلهُ يومُ وعيدٍ.

لمَّا كانَتِ المغفرةُ والعتقُ مِن النَّارِ كلٌّ منهُما مرتَّبًا على صيامِ رمضانَ وقيامِهِ؛ أمَرَ اللهُ ﷻ عندَ إكمالِ العدَّةِ بتكبيرِهِ وشكرِهِ، فقالَ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٠٩)، وصحَّحه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٧).

فشُكرُ مَن أنْعَمَ على عبادِهِ بتوفيقِهِم للصِّيامِ وإعانتِهِم عليهِ ومغفرتِهِ لهُم بهِ وعتقِهِم بهِ مِن النَّارِ أنْ يَذْكُروهُ ويَشْكُروهُ ويَتَّقُوهُ حقَّ تقاتِهِ. وقد فَسَّرَ ابنُ مَسْعودٍ تقواهُ حقَّ تقاتِهِ بأنْ يُطاعَ فلا يُعْصى ويُذْكَرَ فلا يُنْسى ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ.

فيا أربابَ الذُّنوبِ العظيمةِ! الغنيمةَ الغنيمةَ في هذهِ الأيَّامِ الكريمةِ، فما منها عوضٌ ولا لها قيمة! فكم يُعْتَقُ فيها مِن النَّارِ مِن ذي جريرةٍ وجريمة! فمَن أُعْتِقَ فيها مِن النَّارِ فقد فازَ بالجائزةِ العميمةِ والمنحةِ الجسيمةِ.

يا مَن أعْتَقَهُ مولاهُ مِن النَّارِ! إيَّاكَ أنْ تَعودَ بعدَ أنْ صِرْتَ حُرًّا إلى رقّ الأوزارِ. أيُبْعِدُكَ مولاكَ عنِ النَّارِ وأنتَ تَتَقَرَّبُ منها، ويُنْقِذُكَ منها وأنتَ توقعُ نفسَكَ فيها ولا تَحيدُ عنها؟!

وإنَّ امْرَءًا يَنْجو مِنَ النَّارِ بَعْدَما تَـزَوَّدَ مِـن أعْـمـالِـهـا لَـسَـعـيـدُ

إنْ كانَتِ الرَّحمةُ للمحسنينَ؛ فالمسيءُ لا يَيْأسُ منها، وإنْ تَكُنِ المغفرةُ مكتوبةً للمتَّقينَ؛ فالظَّالِمُ لنفسِهِ غيرُ محجوبٍ عنها.

إنْ كانَ عَفْوُكَ لا يَرْجوهُ ذو خَطأٍ فَمَنْ يَجودُ على العاصينَ بِالكَرَمِ

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

إن كـانَ لا يَـرْجـوكَ إلَّا مُـحْـسِـنٌ فَمَنِ الذي يَرْجو ويَدْعو المُذْنِبُ

فيا أيُّها العاصي! وكلُّنا ذلك، لا تَقْنَطْ مِن رحمةِ اللهِ لسوءِ أعمالِك، فكم يُعْتَقُ مِن النَّارِ في هذهِ الأيَّامِ مِن أمثالِك! فأحْسِنِ الظَّنَّ بمولاكَ وتُبْ إليهِ؛ فإنَّهُ لا يَهْلِكُ على اللهِ إلَّا هالك.

إذا أوْجَـعَـتْـكَ الـذُّنـوبُ فَـداوِهـا بِرَفْعِ يَدٍ في اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ مُظْلِمُ
وَلا تَقْنِطَنْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّما قُنوطُكَ مِنْها مِنْ ذُنوبِكَ أعْظَمُ
فَـرَحْـمَـتُـهُ لِـلْـمُـحْـسِـنـيـنَ كَـرامَـةٌ وَرَحْـمَـتُـهُ لِـلْـمُـذْنِـبـيـنَ تَـكَـرُّمُ

يَنْبَغِي لمَن يَرْجو العتقَ مِن النَّارِ في شهرِ رمضانَ أنْ يَأتِيَ بأسبابٍ توجبُ العتقَ مِن النَّارِ، وهيَ متيسِّرةٌ في هذا الشَّهرِ.

وكانَ أبو قِلابَةَ يُعْتقُ في آخرِ الشَّهرِ جاريةً حسناءَ مزيَّنةً يَرْجو بعتقِها العتقَ مِن النَّارِ.

وفي حديثِ سَلْمَانَ المرفوعِ الذي في «صحيح ابنِ خُزَيْمَة»: «مَن فَطَّرَ فيهِ صائمًا؛ كانَ عتقًا لهُ مِن النَّارِ، ومَن خَفَّفَ فيهِ عن مملوكِهِ؛ كانَ عتقًا لهُ مِن النَّار»[١].

وفيهِ أيضًا: «فاسْتَكْثِروا فيهِ مِن خصلتينِ تُرْضونَ بِهِما ربَّكُم وخصلتينِ لا غنى بكُم عنهُما. فأمَّا الخصلتانِ اللتانِ تُرْضونَ بهِما ربَّكُم، فشهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ والاستغفارُ. وأمَّا اللتانِ لا غنى بكُم عنهُما؛ فتَسْألونَ اللهَ تعالَى الجنَّةَ وتَعُوذونَ بهِ مِن النَّارِ».

فهذِهِ الخصالُ الأربعُ المذكورةُ في هذا الحديثِ؛ كلٌّ منها سببٌ للعتقِ والمغفرةِ:

• فأمَّا كلمةُ التَّوحيدِ؛ فإنَّها تَهْدِمُ الذُّنوبَ وتَمْحوها محوًا ولا تُبْقي ذنبًا ولا يَسْبِقُها عملٌ[٢]، وهيَ تَعْدِلُ عتقَ الرِّقابِ الذي يوجبُ العِتقَ مِن النَّارِ. ومَن أتى بها أربعَ مرارٍ حينَ يُصْبِحُ وحينَ يُمْسي؛ أعْتَقَهُ اللهُ مِن النَّارِ، ومَن قالَها خالصًا مِن قلبِه؛ حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ.

• وأمَّا كلمةُ الاستغفارِ؛ فمِن أعظمِ أسبابِ المغفرةِ؛ فإنَّ الاستغفارَ دعاءٌ بالمغفرةِ، ودعاءُ الصَّائمِ مستجابٌ في حالِ صيامِهِ وعندَ فطرِهِ. وقد سَبَقَ حديثُ أبي هُرَيْرَةَ: «ويُغْفَرُ فيهِ (يعْنِي: شهرَ رمضانَ) إلَّا لمَن أبى». قالوا: يا أبا هُرَيْرَةَ! ومَن أبى؟ قالَ: مَن أبى أنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ ﷻ.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧) وهو حديث ضعيف.

(٢) المعنى: أنه لا يسبقها في الفضل شيء من الأعمال الصالحة، أي أنها أفضل الأعمال على الإطلاق.

قالَ الحَسَنُ أَكْثِروا مِن الاستغفارِ؛ فإنَّكُم لا تَدْرونَ متى تَنْزِلُ الرَّحمةُ. وقالَ لُقمانُ لابنِهِ: يا بنيَّ! عَوِّدْ لسانَكَ الاستغفارَ؛ فإنَّ للهِ ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهنَّ سائلًا.

وقد جَمَعَ اللهُ بينَ التَّوحيدِ والاستغفارِ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. وفي بعضِ الآثارِ؛ أنَّ إبليسَ قالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بالذُّنوبِ وأَهْلَكوني بلا إلهَ إلَّا اللهُ والاستغفار.

والاستغفارُ ختامُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها: فتُخْتَمُ بهِ الصَّلاةُ والحجُّ وقيامُ الليلِ. ويُخْتَمُ بهِ المجالسُ: فإنْ كانَتْ ذكرًا؛ كانَ كالطَّابعِ عليها، وإنْ كانَت لغوًا؛ كانَ كفَّارَةً لها. فكذلك ينبغي أنْ يُخْتَم صيامُ رمضانَ بالاستغفارِ.

كَتَبَ عُمَرُ بنُ عبْدِ العَزيزِ إلى الأمصارِ[1] يَأمُرُهُم بختمِ شهرِ رمضانَ بالاستغفارِ والصَّدقةِ؛ صدقةِ الفطرِ؛ فإنَّ صدقةَ الفطرِ طهرةٌ للصائمِ مِن اللغوِ والرَّفثِ، والاستغفارُ يَرْقَعُ ما تَخَرَّقَ مِن الصِّيامِ باللغوِ والرَّفثِ.

ولهذا قالَ بعضُ العلماءِ المتقدِّمينَ: إنَّ صدقةَ الفطرِ للصَّائمِ كسجدتيِ السَّهوِ للصَّلاةِ.

وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ في كتابِهِ: قولوا كما قالَ أبوكُم آدمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قالَ نوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وقولوا كما قالَ إبراهيمُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقولوا كما قالَ موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وقولوا كما قالَ ذو النُّونِ: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

---

(١) الأمصار هي البلدان، جمع مِصر وهو البلد.

الصِّيامُ جُنَّةٌ[١] مِن النَّارِ ما لَمْ يُخَرِّقْها، والكلامُ السَّيِّئُ يُخَرِّقُ هذهِ الجُنَّةَ، والاستغفارُ يُرَقِّعُ ما تَخَرَّقَ منها.

فصيامُنا هذا يَحتاجُ إلى استغفارٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ لهُ شافع! كم نُخَرِّقُ صيامَنا بسهامِ الكلامِ ثمَّ نرَقِّعُهُ وقدِ اتَّسَعَ الخرقُ على الرَّاقِعِ! كم نَرْفو خروقَهُ بِمخيَطِ الحسناتِ ثمَّ نَقْطعُهُ بحسامِ السَّيِّئاتِ القاطع!

كانَ بعضُ السَّلفِ إذا صَلَّى صلاةً استغْفَرَ مِن تقصيرِهِ فيها كما يَسْتَغْفِرُ المذنبُ مِن ذنبِهِ.

إذا كانَ هذا حالَ المحسنينَ في عباداتِهِم، فكيف حالُ المسيئينَ مثلِنا في عاداتِهِم؟!

وقريبٌ مِن هذا أمرُ النَّبيِّ ﷺ لعائِشَةَ في ليلةِ القدرِ بسؤالِ العفوِ؛ فإنَّ المؤمنَ يَجْتَهِدُ في شهرِ رمضانَ في صيامِهِ وقيامِهِ، فإذا قَرُبَ فراغُهُ وصادَفَ ليلةَ القدرِ؛ لم يَسْألِ اللهَ إلَّا العفوَ كالمسيءِ المقصِّرِ.

وأمَّا سؤالُ الجنَّةِ والاستعاذةُ مِن النَّارِ؛ فمِن أهمِّ الدُّعاءِ، وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**حولَها نُدَنْدِنُ**»[٢]. فالصَّائمُ يُرْجى استجابةُ دعائِهِ، فيَنْبَغي ألَّا يَدْعُو إلَّا بأهمِّ الأُمورِ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقالَ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠] وقالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾..) إلى قولِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨].

• عِبادَ اللهِ! إنَّ شهرَ رمضانَ قد عَزَمَ على الرَّحيلِ، ولم يَبْقَ منهُ إلَّا القليل. فمَن منكُم أحْسَنَ فيهِ فعليهِ التَّمام، ومَن كانَ فَرَّطَ فلْيَخْتِمْهُ بالحسنى

(١) الجُنَّة هي الساتر أو الواقي.
(٢) أخرجه أبو داود (٧٩٢).

فالعملُ بالختام. فاستَمْتِعوا منهُ بما بَقِيَ مِن الليالي اليسيرةِ والأيَّام، واسْتَودِعوهُ عملًا صالحًا يَشْهَدُ لكُم بهِ عندَ الملكِ العلَّام، ووَدِّعوهُ عندَ فراقِهِ بأزكى تحيَّةٍ وسلام.

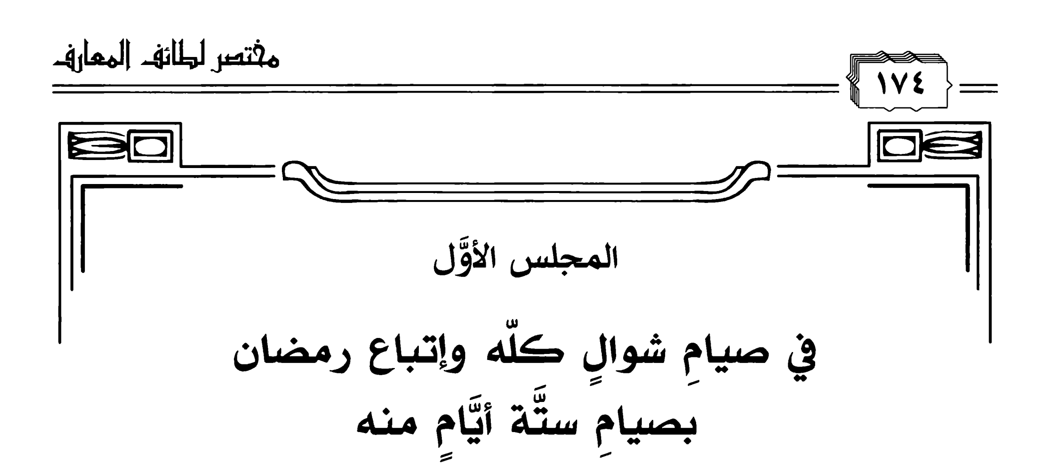
يا شهرَ رَمضانَ! تَرَفَّقْ، دموعُ المحبِّينَ لذهابِكَ تَدَفَّق، قلوبُهُم مِن ألمِ الفراقِ تَشَقَّق، عَسى وقفةٌ للوداعِ تُطْفِئُ مِن نارِ الشَّوقِ ما أحْرَق، عسى ساعةُ توبةٍ وإقلاعٍ تَرْفو مِن الصِّيامِ كلَّ ما تَخَرَّق، عَسى منقطعٌ عن ركبِ المقبولينَ يَلْحَقْ، عسى مَنِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ يُعْتَق، عسى أُسراء الأوزارِ تُطْلَق، عسى رحمةُ المولى لها العاصي يُوَفَّق.

عَسى وَعسى مِنْ قَبْلِ وَقْتِ التَّفَرُّقِ إلى كُلِّ ما نَرجُو مِنَ الخَيْرِ نَلْتَقي
فَيُجْبَرَ مَكْسورٌ وَيُعْتَقَ تائِبٌ وَيُقْبَلَ خَطَّاءٌ وَيَسْعَدَ مَنْ شَقِي

❁ ❁ ❁



وظائف شهر شوال



المجلس الأوَّل

في صيامِ شوالٍ كلّه وإتباع رمضان بصيامِ ستَّة أيَّامٍ منه

خَرَّجَ مسلم مِن حديثِ أبي أيُّوبَ الأنْصاريِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**مَن صامَ رمضانَ، ثمَّ أتْبَعَهُ ستًّا مِن شوَّالٍ؛ كان كصيامِ الدَّهرِ**»[(١)].

الذين استحبوا صيامَ الستّ من شوَّال اختلفوا في صفةِ صيامِها على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه يُسْتَحَبُّ صيامُها مِن أوَّلِ الشَّهرِ متتابعةً. وهوَ قولُ الشَّافعيِّ وابنِ المُبارَكِ.

والثَّاني: أنَّه لا فرقَ بينَ أنْ يُتابِعَها أو يُفرِّقَها مِن الشَّهرِ كلِّهِ، وهُما سواءٌ. وهوَ قولُ وَكيعٍ وأحْمَدَ.

والثَّالثُ: أنَّهُ لا يُصامُ عَقيبَ يومِ الفطر؛ فإنَّها أيَّامُ أكلٍ وشربٍ، ولكنْ يُصامُ ثلاثةُ أيَّامٍ قبلَ أيَّامِ البيضِ أو بعدَها وأيَّامُ البيضِ. وهذا قولُ مَعْمَرٍ وعَبْدِ الرَّزَّاقِ، ويُرْوى عن عَطاءٍ[(٢)].

وإنَّما كان صيامُ رمضانَ وإتباعُهُ بستٍّ مِن شوَّالٍ يَعْدِلُ صيامَ الدَّهرِ؛ لأنَّ الحسنةَ بعشرِ امثالِها.

وقد جاءَ ذلكَ مفسَّرًا مِن حديثِ ثوبانَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**صيامُ**

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٤).

(٢) المراد بهذا القول: أن لا يبدأ المسلم في صوم الست من شوال بعد يوم العيد مباشرة، بل عليه أن يتأخر عدَّة أيام ليستمتع بأيام العيد.

رمضانَ بعشرةِ أشهرٍ، وصيامُ ستَّةِ أيَّامٍ بشهرينِ، فذلكَ صيامُ سنةٍ»؛ يَعْني: رمضانَ وستَّةَ أيَّامٍ بعدَهُ. خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والنَّسائِيُّ - وهذا لفظُهُ - وابنُ حِبَّانَ في «صحيحِهِ»[1]، وصَحَّحَهُ أبو حاتِمٍ الرَّازِيُّ. وقالَ الإمامُ أحْمَدُ: ليسَ في أحاديثِ البابِ أصحُّ منهُ. وتَوَقَّفَ فيهِ في روايةٍ أُخرى.

وفي معاودةِ الصّيامِ بعدَ رمضانَ فوائدُ عديدةٌ:

• منها: أنَّ صيامَ ستَّةِ أيَّامٍ مِن شوَّالٍ بعدَ رمضانَ يُسْتَكْمَلُ بها أجرُ صيامِ الدَّهرِ كلِّهِ كما سَبَقَ.

• ومنها: أنَّ صيامَ شوَّالٍ وشعبانَ كصلاةِ السُّنَنِ الرَّواتِبِ قبلَ الصَّلاةِ المفروضةِ وبعدَها، فَيكْمُلُ بذلكَ ما حصَلَ في الفرضِ مِن خللٍ ونقصٍ. فإنَّ الفرائض تُكْمَلُ بالنَّوافلِ يومَ القيامةِ، كما وَرَدَ ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ مِن وجوهٍ متعدِّدَةٍ. وأكثرُ النَّاسِ في صيامِهِ للفرضِ نقصٌ وخللٌ، فيَحْتاجُ إلى ما يَجْبُرُهُ ويُكْمِلُهُ مِن الأعمالِ.

• ومنها: أنَّ معاودةَ الصِّيامِ بعدَ صيامِ رمضانَ علامةٌ على قبولِ صومِ رمضانَ؛ فإنَّ اللهَ إذا تَقَبَّلَ عملَ عبدٍ وَفَّقَهُ لعملٍ صالحٍ بعدَهُ، كما قالَ بعضُهُم: ثوابُ الحسنةِ الحسنةُ بعدَها، فمَن عمِلَ حسنةً ثمَّ أتْبَعَها بسيِّئَةٍ؛ كانَ ذلكَ علامةَ ردِّ الحسنةِ وعدمِ قبولِها.

• ومنها: أنَّ صيامَ رمضانَ يوجِبُ مغفرةَ ما تَقَدَّمَ مِن الذّنوبِ كما سَبَقَ ذكرُهُ، وأنَّ الصَّائمينَ لرمضانَ يُوَفَّوْنَ أجورَهُم في يومِ الفطرِ، وهوَ يومُ الجوائزِ. فيَكونُ معاودةُ الصِّيامِ بعدَ الفطرِ شكرًا لهذهِ النِّعمةِ، فلا نعمةَ أعظم مِن مغفرةِ الذُّنوبِ.

كانَ النَّبيُّ ﷺ يَقومُ حتَّى تَتورَّمَ قدماهُ، فيُقالُ لهُ: أتَفْعَلُ ذلكَ وقد غَفَرَ اللهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤١٢)، والنسائي في الكبرى (٢٨٧٣)، وابن حبان (٣٦٣٥)، وهو حديث صحيح كما ذكر المؤلف رحمه الله.

لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِكَ وما تأَخَّرَ؟ فيَقولُ: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟**»[(١)].

وقد أَمَرَ اللهُ سبحانَهُ عبادَهُ بشكرِ نعمةِ صيامِ رمضانَ بإظهارِ ذكرِهِ وغيرِ ذلكَ مِن أنواعِ شكرِهِ، فقالَ تَعالَى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فمِن جملةِ شكرِ العبدِ لربِّهِ على توفيقِهِ لصيامِ رمضانَ وإعانتِهِ عليهِ ومغفرةِ ذنوبِهِ أنْ يَصومَ لهُ شكرًا عقيبَ ذلكَ.

كانَ بعضُ السَّلفِ إذا وُفِّقَ لقيامِ ليلةٍ مِن الليالي؛ أَصْبَحَ في نهارِها صائمًا، ويَجْعَلُ صيامَهُ شكرًا للتوفيقِ للقيامِ.

وكانَ وُهَيْبُ بنُ الوَرْدِ يُسْأَلُ عن ثوابِ شيءٍ مِن الأعمالِ كالطَّوافِ ونحوِهِ، فيقولُ: لا تَسألوا عن ثوابِهِ، ولكنْ سَلوا ما الذي ينبغي على مَن وُفِّقَ لهذا العملِ مِن الشُّكرِ للتَّوفيقِ والإعانةِ عليهِ.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْدَدْ عَلى كُلِّ نِعْمَةٍ لِمُولِيكَها شُكْرًا فَلَسْتَ بِشاكِرِ

كُلُّ نعمةٍ على العبدِ مِن اللهِ في دينٍ أو دنيا تَحتاجُ إلى شكرٍ عليها، ثمَّ التَّوفيقُ للشُّكرِ عليها نعمةٌ أخرى تَحْتاجُ إلى شكرٍ ثانٍ، ثمَّ التَّوفيقُ للشُّكرِ الثَّاني نعمةٌ أخرى تَحتاجُ إلى شكرٍ آخرَ . . . وهكذا أبدًا.

وحقيقةُ الشُّكرِ الاعترافُ بالعجزِ عنِ الشُّكرِ، كما قيلَ:

إذا كانَ شُكري نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ في مِثْلِها يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

فأَمَّا مقابلةُ نعمةِ التَّوفيقِ لصيامِ رمضانَ بارتكابِ المعاصي بعدَهُ، فهوَ مِن فعلِ مَن بَدَّل نعمةَ اللهِ كفرًا. فإنْ كانَ قد عَزَمَ في صيامِهِ على معاودةِ المعاصي بعدَ انقضاءِ الصِّيامِ، فصيامُهُ عليهِ مردودٌ وبابُ الرَّحمةِ في وجهِهِ مسدودٌ.

قالَ كعبٌ: مَن صامَ رمضانَ وهوَ يُحدِّثُ نفسَهُ أَنَّهُ إذا أفطَرَ رمضانَ أن

---

(١) تقدم تخريجه وهو في الصحيحين.

لا يَعْصِيَ اللهَ، دَخَلَ الجنَّةَ بغيرِ مسألةٍ ولا حسابٍ، ومَن صامَ رمضانَ وهوَ يُحَدِّثُ نفسَهُ أنَّهُ إذا أفْطَرَ عَصى اللهَ، فصيامُهُ عليهِ مردودٌ.

عملُ المؤمنِ لا يَنْقَضِي حتَّى يَأتِيَهُ أجلُهُ.

قالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لعملِ المؤمنِ أجلًا دونَ الموتِ، ثمَّ قَرَأَ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩].

هذهِ الشُّهورُ والأعوامُ والليالي والأيَّامُ كلُّها مقاديرُ للآجالِ ومواقيتُ للأعمالِ، ثمَّ تَنْقَضِي سريعًا وتَمْضي جميعًا. والذي أوْجَدَها وابْتَدَعَها وخَصَّها بالفضائلِ وأوْدَعَها باقٍ لا يزول ودائمٌ لا يحول، هوَ في جميعِ الأوقاتِ إلٰهٌ واحدٌ ولأعمال عبادِهِ رقيبٌ مشاهد. فسبحانَ مَن قَلَّبَ عبادَهُ في اختلافِ الأوقاتِ بينَ وظائفِ الخِدَمِ؛ لِيُسْبِغَ عليهِم فيها فواضلَ النِّعم، ويُعاملَهُم بنهايةِ الجودِ والكرم.

لمَّا انْقَضَتِ الأشهرُ الثَّلاثةُ الكرام، التي أوَّلُها الشَّهرُ الحرامُ وآخرُها شهرُ الصِّيام؛ أقْبَلَتْ بعدَها الأشهرُ الثَّلاثةُ أشهرُ الحجِّ إلى البيتِ الحرام. فكما أنَّ مَن صامَ رمضانَ وقامَهُ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِه، فمَن حجَّ البيتَ ولم يَرْفُث ولمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِن ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. فما يَمْضِي مِن عمرِ المؤمنِ ساعةٌ مِن السَّاعاتِ إلَّا وللهِ عليهِ فيها وظيفةٌ مِن وظائفِ الطَّاعات، فالمؤمنُ يَتَقَلَّبُ بينَ هذهِ الوظائفِ ويَتَقَرَّبُ بها إلى مولاهُ وهوَ راجٍ خائف.

المحبُّ لا يَمَلُّ مِن التَّقَرُّبِ بالنَّوافلِ إلى مولاه، ولا يَأمَلُ إلا قربَهُ ورضاهُ.

مَن عَمِلَ طاعةً مِن الطَّاعاتِ وفَرَغَ منها، فعلامةُ قبولِها أنْ يَصِلَها بطاعةٍ أُخرى، وعلامةُ ردِّها أنْ يُعقِب تلكَ الطَّاعةَ بمعصيةٍ.

ما أحْسَنَ الحسنةَ بعدَ السَّيِّئةِ تَمْحُوها! وأحْسَنُ منها الحسنةُ بعدَ الحسنةِ تَتْلوها. وما أقبحَ السَّيِّئةَ بعدَ الحسنةِ تَمْحَقُها وتَعْفوها!

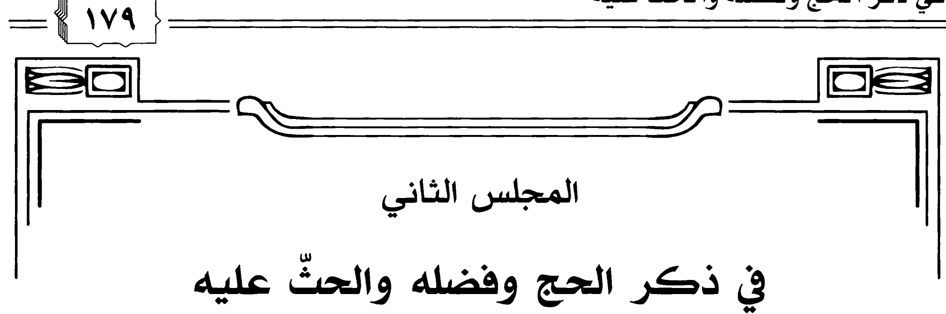
النَّكسةُ أصعبُ مِن المرضِ وربَّما أهْلَكتْ.

سَلُوا اللهَ الثَّباتَ على الطَّاعاتِ إلى المماتِ، وتَعَوَّذُوا بهِ مِن تقلُّبِ القلوبِ ومِنَ الحورِ بعدَ الكورِ.

ما أوحشَ ذُلَّ المعصيةِ بعدَ عزِّ الطَّاعة، وأفحش فقرَ الطَّمعِ بعدَ غنى القناعة!

يا شبابَ التَّوبةِ! لا تَرْجِعوا إلى ارتضاعِ ثديِ الهوى مِن بعدِ الفطامِ، فالرَّضاعُ إنَّما يَصْلُحُ للأطفالِ لا للرِّجال! ولكنْ لا بدَّ مِن الصَّبرِ على مرارةِ الفطامِ، فإن صَبَرْتُمْ، تَعَوَّضْتُم عن لذَّةِ الهوى بحلاوةِ الإيمانِ في القلوبِ. مَن تَرَكَ للهِ شيئًا؛ لم يَجِدْ فقدَهُ وعَوَّضَهُ اللهُ خيرًا منهُ. ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].





المجلس الثاني

في ذكر الحج وفضله والحثّ عليه

في الصَّحِيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**أفضلُ الأعمالِ: إيمانٌ باللهِ ورسولِهِ، ثمَّ جهادٌ في سبيلِ اللهِ، ثمَّ حجٌّ مبرورٌ**»(١).

وهذهِ الأعمالُ الثَّلاثةُ تَرْجِعُ في الحقيقةِ إلى عملينِ:

أحدُهُما: الإيمانُ باللهِ ورسولِهِ، وهوَ التَّصديقُ الجازمُ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، كما فَسَّرَ النَّبيُّ ﷺ الإيمانَ بذلكَ في حديثِ سؤالِ جِبْريلَ لهُ وفي غيرِهِ مِن الأحاديثِ. وقد ذَكَرَ اللهُ تَعالى الإيمانَ بهذِهِ الأُصولِ في مواضعَ كثيرةٍ مِن كتابِهِ كأوَّلِ البقرةِ ووسطِها وآخرِها.

والعملُ الثَّاني: الجهادُ في سبيلِ اللهِ.

وقد جَمَعَ اللهُ بينَ هذينِ الأصلينِ في مواضعَ مِن كتابِهِ: كقولِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [الصف: ١٠، ١١]. وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحُجرات: ١٥].

فالإيمانُ باللهِ ورسولِهِ وظيفةُ القلبِ واللسانِ، ثمَّ يَتْبَعُهُما عملُ الجوارحِ، وأفضلُها الجهادُ في سبيلِ اللهِ، وهوَ نوعانِ:

أفضلُهُما جهادُ المؤمنِ لعدوِّهِ الكافرِ وقتالُهُ في سبيلِ اللهِ، فإنَّ فيهِ دعوةً لهُ إلى الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، ليَدْخُلَ في الإيمانِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

قالَ تَعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. قالَ أبو هُرَيْرَةَ في هذهِ الآيةِ: يَجيئونَ بهِم في السَّلاسلِ حتَّى يُدْخِلوهُمُ الجنَّةَ. وفي الحديثِ المرفوعِ: «عَجِبَ ربُّكَ مِن قومٍ يُقادونَ إلى الجنَّةِ بالسَّلاسلِ»(١).

فالجهادُ في سبيلِ اللهِ دعاءُ الخلقِ إلى الإيمانِ باللهِ ورسولهِ بالسَّيْفِ واللسانِ بعدَ دعائِهِم إليهِ بالحجَّةِ والبرهانِ.

فالجهادُ بهِ تَعْلو كلمةُ الإيمانِ، وتَتَّسِعُ رقعةُ الإسلامِ، ويَكْثُرُ الدَّاخلونَ فيهِ، وهوَ وظيفةُ الرُّسلِ وأتباعِهِم، وبهِ تَصيرُ كلمةُ اللهِ هيَ العليا، والمقصودُ منهُ أنْ يَكونَ الدِّينُ كلُّهُ للهِ والطَّاعةُ لهُ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. والمجاهدُ في سبيلِ اللهِ هوَ المقاتلُ لِتَكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا.

والنَّوعُ الثَّاني مِن الجهادِ جهاد النَّفسِ في طاعةِ اللهِ: كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: **«المجاهدُ مَن جاهدَ نفسَهُ في اللهِ»(٢). وقالَ بعضُ الصَّحابَةِ لمَن سَأَلَهُ عنِ الغزوِ: ابْدَأْ بنفسكَ فاغْزُها، وابدأْ بنفسِكَ فجاهِدْها.**

وأعظمُ مجاهدةِ النَّفس على طاعةِ اللهِ عمارةُ بيوتِهِ بالذِّكرِ والطَّاعةِ:

قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقالَ تعالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٥١)، والترمذي (١٦٢١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقد دَلَّ حديثُ أبي هُرَيْرَةَ على أنَّ أفضلَ الأعمالِ بعدَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ عمارة المساجدِ بذكرِ اللهِ وطاعتِهِ، فدَخلَ في ذلكَ الصَّلاةُ والذِّكرُ والتِّلاوةُ والاعتكافُ وتعليمُ العلمِ النَّافعِ واستماعُهُ.

وأفضلُ ذلكَ عمارةُ أفضلِ المساجدِ وأشرفِها ـ وهوَ المسجدُ الحرامُ ـ بالزِّيارةِ والطَّوافِ. فلهذا خَصَّهُ بالذِّكرِ وجَعَلَ قصدَهُ للحجِّ أفضلَ الأعمالِ بعدَ الجهادِ.

وقد ذكَرَ اللهُ تَعَالَى هذا البيتَ في كتابِهِ بأعظمِ ذكرٍ وأفخمِ تعظيمٍ وثناءٍ: قالَ تعالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ الآيات [البقرة: ١٢٥]. وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وقالَ تعالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٦].

فعمارةُ سائرِ المساجدِ سوى المسجدِ الحرامِ وقصدُها للصَّلاةِ فيها وأنواعُ العباداتِ، مِن الرِّباطِ في سبيلِ اللهِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في إسباغِ الوضوءِ على المكارهِ وكثرةِ الخطا إلى المساجدِ وانتظارِ الصلاةِ بعدَ الصَّلاةِ: «**فذلكُمُ الرِّباطُ، فذلكُمُ الرّباطُ، فذلكُمُ الرِّباطُ**»[1].

فأمَّا المسجدُ الحرامُ بخصوصِهِ، فقصدُهُ لزيارتِه وعمارتِهِ بالطَّوافِ الذي خَصَّهُ اللهُ بهِ نوع من الجهادِ في سبيلِ اللهِ ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).

وفي «صحيح البُخاريِّ»: عن عائشةَ؛ قالَتْ: يا رسولَ اللهِ! نَرى الجهادَ أفضلَ العملِ، أفلا نُجاهِدُ؟ قالَ: «**لكِن أفضل الجهادِ حجٌّ مبرورٌ**»(١).

وإنَّما كانَ الحجُّ والعمرةُ جهادًا؛ لأنَّه يُجْهِدُ المالَ والنَّفسَ والبدنَ، كما قالَ أبو الشَّعثاءِ: نَظَرْتُ في أعمالِ البرِّ، فإذا الصَّلاةُ تُجهِدُ البدنَ دونَ المالِ، والصِّيامُ كذلكَ، والحجُّ يُجْهِدُهُما، فرَأَيْتُهُ أفضلَ.

وقدِ اختَلَفَ العلماءُ في تفضيلِ الحجِّ تطوُّعًا على الصَّدقةِ:

فمنهُم مَن رَجَّحَ الحجَّ، كما قالَ طاووسٌ وأبو الشّعثاءِ وقالهُ الحَسَنُ أيضًا.

ومنهُم مَن رَجَّحَ الصَّدقَةَ، وهوَ قولُ النَّخعِيِّ.

ومنهُم مَن قالَ: إنْ كانَ هناك رحمٌ محتاجةٌ أو زمنُ مجاعةٍ، فالصَّدقةُ أفضلُ، وإلَّا فالحجُّ. وهوَ نصُّ أحْمَدَ. ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ معناهُ وأنَّ صلةَ الرَّحمِ والتَّنفيسَ عنِ المكروبِ أفضلُ مِن التَّطوُّعِ بالحجِّ.

وفي الحديثِ الصحيحِ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «**الحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلَّا الجنَّة**»(٢).

وفي «المسند»؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ؛ سُئِلَ: أيُّ الأعمالِ أفضل؟ قالَ: «**إيمانٌ باللهِ وحدَهُ، ثمَّ الجهادُ، ثمَّ حجَّةٌ برَّةٌ تَفْضُلُ سائرَ الأعمالِ ما بينَ مطلعِ الشَّمسِ إلى مغربِها**»(٣).

وثَبَتَ عنهُ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**مَن حجَّ هذا البيتَ فلمْ يَرْفُثْ ولمْ يَفسُقْ؛ خَرَجَ مِن ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠١٠)، قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

فمغفرةُ الذُّنوبِ بالحجِّ ودخولُ الجنَّةِ بِهِ مرتَّبٌ على كونِ الحجِّ مبرورًا.

وإنَّما يكونُ مبرورًا باجتماعِ أمرينِ فيهِ:

- **أحدُهما: الإتيانُ فيهِ بأعمالِ البرِّ.**

والبرُّ يُطْلَقُ بمعنيينِ:

أحدُهُما: بمعنى الإحسانِ إلى النَّاسِ، كما يُقالُ: البرُّ والصِّلةُ، وضدُّهُ العقوقُ.

وفي «صحيح مسلم»؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عنِ البرِّ، فقالَ: «**البرُّ حسنُ الخلقِ**»[1].

وكانَ ابنُ عُمَرَ يَقولُ: إنَّ البرَّ شيءٌ هيِّن؛ وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّن.

وهذا يُحْتاجُ إليهِ في الحجِّ كثيرًا؛ أعني: معاملةَ النَّاسِ بالإحسانِ بالقولِ والفعلِ.

قالَ بعضُهُم: إنَّما سُميَ السَّفرُ سفرًا؛ لأنَّهُ يُسْفِرُ عن أخلاقِ الرِّجالِ.

وسُئِلَ سَعيدُ بنُ جُبيْرٍ: أيُّ الحاجِّ أفضل؟ قالَ: مَن أطْعَمَ الطَّعامَ وكَفَّ لسانَهُ. قالَ الثَّورِيُّ: سَمعْتُ أنَّهُ مِن بِرِّ الحجِّ.

فهذِهِ الثَّلاثَةُ يُحْتاجُ إليها في الأسفارِ كلِّها، خصوصًا في سفرِ الحجِّ، فمَن كَمَّلَها؛ فقد كَمَلَ حجُّهُ وبَرَّ.

ومِن أجْمعِ خصالِ البرِّ التي يَحْتاجُ إليها الحاجُّ ما وَصَّى بِهِ النَّبيُّ ﷺ أبا جُرَيٍّ الهُجَيْمِيَّ، فقالَ لهُ: «**لا تَحْقِرَنَّ مِن المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تُفْرِغَ مِن دلوِكَ في إناءِ المستسقي، ولو أنْ تُعْطِيَ صلةَ الحبلِ، ولو أنْ تُعْطِيَ شسع النَّعلِ، ولو أنْ تُنَحِّيَ الشَّيءَ مِن طريقِ النَّاسِ يُؤذيهِم، ولو أنْ تَلْقى أخاكَ ووجهُكَ إليهِ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

منطلقٌ، ولو أنْ تَلقى أخاكَ المسلمَ فتُسَلِّمَ عليهِ، ولو أنْ تُؤنِسَ الوحشانَ في الأرضِ»(١).

وفي الجملةِ؛ فخيرُ النَّاسِ أنفعُهُم للنَّاسِ وأصبرهُم على أذى النّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ المتَّقينَ بذلكَ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والحاجُّ يَحْتاجُ إلى مخالطةِ النَّاسِ، والمؤمنُ الذي يُخالِطُ النَّاسَ ويَصْبِرُ على أذاهُم أفضلُ ممَّن لا يُخالِطُهُم ولا يَصْبِرُ على أذاهُم.

قالَ ربيعَةُ: المروءةُ في السَّفرِ: بذلُ الزَّادِ، وقلَّةُ الخلافِ على الأصحابِ، وكثرةُ المزاحِ في غيرِ مساخطِ اللهِ ﷻ.

والإحسانُ إلى الرِّفقةِ في السَّفرِ أفضلُ مِن العبادةِ القاصرةِ، لا سيَّما إنِ احتاجَ العابدُ إلى خدمةِ إخوانِهِ.

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ في سفرٍ في حرٍّ شديدٍ، ومعَهُ مَن هوَ صائمٌ ومفطرٌ، فسَقَطَ الصُّوَّامُ وقامَ المفطرونَ فضرَبوا الأبنيةَ وسَقَوا الرِّكابَ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«ذَهَبَ المفطرونَ اليومَ بالأجرِ»**(٢).

وقالَ مُجاهِدٌ: صَحِبْتُ ابنَ عُمَرَ في السَّفرِ لأَخْدُمَهُ فكانَ يَخْدُمُني.

وكانَ كثيرٌ مِن السَّلفِ يَشْتَرِطُ على أصحابِهِ في السَّفرِ أنْ يَخْدُمَهُمُ اغتنامًا لأجرِ ذلكَ، منهُم عامِرُ بنُ قَيسٍ وعَمْرُو بنُ عُتْبَةَ بنِ فَرْقَدٍ، معَ اجتهادِهِما في العبادةِ في أنفسِهِما. وكذلكَ كانَ إبراهيمُ بنُ أدْهَمَ يَشْتَرِطُ على أصحابِهِ في السَّفرِ الخدمةَ والأذانَ.

وكانَ ابنُ المُباركِ يُطْعِمُ أصحابَهُ في الأسفارِ أطيبَ الطَّعامِ وهوَ صائمٌ، وكانَ إذا أرادَ الحجَّ مِن بلدِهِ مَرْوَ؛ جَمَعَ أصحابَهُ وقالَ: مَن يُريدُ منكُمُ الحجَّ؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٨٤)، والترمذي (٢٧٢١)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٠)، ومسلم (٧٠٠).

فيأخُذُ منهُم نفقاتِهِم فيَضَعُها عندَهُ في صندوقٍ ويُقْفِلُ عليهِ، ثمَّ يَحمِلُهُمْ ويُنْفِقُ عليهِم أوسَعَ النَّفَقَةِ ويُطْعِمُهُم أطيبَ الطَّعامِ، ثمَّ يَشْتَرِي لهُم مِن مَكَّةَ ما يُريدونَ مِن الهدايا والتّحفِ، ثمَّ يَرْجِعُ بهِم إلى بلدِهِ، فإذا وَصَلوا صَنَعَ لهُم طعامًا، ثمَّ جَمَعَهُم عليهِ، ودَعا بالصُّندوقِ الذي فيهِ نَفقاتُهُم، فرَدَّ إلى كلِّ واحدٍ نفقتَهُ.

• **المعنى الثّاني ممَّا يُرادُ بالبرِّ:** فعلُ الطّاعاتِ كلِّها؛ وضدُّهُ الإثمُ.

وقد فَسَّرَ اللهُ تعالى البرَّ بذلكَ في قولهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ . .) إلى آخر الآية [البقرة: ١٧٧].

فتَضَمَّنَتِ الآيةُ أنَّ أنواعَ البرِّ ستَّةُ أنواعٍ، مَنِ استَكْمَلَها؛ فقدِ استَكْمَلَ البرَّ: **أوَّلها**: الإيمانُ بأصولِ الإيمانِ الخمسةِ. **وثانيها**: إيتاءُ المالِ المحبوبِ لذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ والسَّائلينَ وفي الرِّقابِ. **وثالثُها**: إقامُ الصَّلاةِ. **ورابعُها**: إيتاءُ الزَّكاةِ. **وخامسُها**: الوفاءُ بالعهدِ. **وسادسُها**: الصَّبرُ على البأساءِ والضَّرَّاءِ وحينَ البأسِ. وكلُّها يَحْتاجُ الحاجُّ إليها؛ فإنَّهُ لا يَصِحُّ حجُّهُ بدونِ الإيمانِ، ولا يَكْمُلُ حجُّهُ ويَكونُ مبرورًا بدون إقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ فإنَّ أركانَ الإسلامِ بعضُها مرتبطٌ ببعضٍ، فلا يَكْمُلُ الإيمانُ والإسلامُ حتَّى يُؤتى بها كلِّها، ولا يكْمُلُ برُّ الحجِّ بدونِ الوفاءِ بالعهودِ في المعاقداتِ والمشاركاتِ المحتاجِ إليها في سفرِ الحجِّ وإيتاءِ المالِ المحبوبِ لمَن يُحِبُّ اللهُ إيتاءَهُ، ويَحْتاجُ معَ ذلكَ إلى الصَّبرِ على ما يصيبُهُ مِن المشاقِّ في السَّفرِ.

فهذهِ خصالُ البرِّ، ومِن أهمِّها للحاجِّ إقامُ الصَّلاةِ، فمَن حجَّ مِن غيرِ إقامِ الصَّلاةِ ـ لا سيَّما إنْ كانَ حجُّهُ تطوُّعًا ـ، كانَ بمنزلةِ مَن سَعى في ربحِ درهمٍ وضَيَّعَ رأسَ مالِهِ، وهوَ أُلوفٌ كثيرةٌ.

وقد كانَ السَّلفُ يُواظِبونَ في الحجِّ على نوافلِ الصَّلاةِ.

وكانَ النَّبيُّ ﷺ يواظِبُ على قيامِ الليلِ على راحلتِهِ في أسفارِهِ كلِّها ويوتِرُ عليها.

وحَجَّ مَسْروقٌ فما نامَ إلَّا ساجدًا.

وكانَ المُغيرَةُ بنُ حَكيمٍ الصَّنْعانِيُّ يَحُجُّ مِن اليمنِ ماشيًا، وكانَ لهُ وردٌ بالليلِ يَقْرأُ فيهِ كلَّ ليلةٍ ثلثَ القرآنِ، فيقِفُ فيُصَلِّي حتَّى يَفْرَغَ مِن وردِهِ ثمَّ يَلْحَقُ بالرَّكبِ متى لَحِقَ، فربَّما لم يَلْحَقْهُم إلَّا في آخرِ النَّهارِ.

سلامُ اللهِ على تلكَ الأرواحِ، رحمةُ اللهِ على تلكَ الأشباحِ، ما مثلُنا ومثلُهُم إلَّا كما قالَ القائلُ:

نَزَلوا بِمَكَّةَ في قَبائِلِ هاشِمٍ   وَنَزَلْتَ بِالبَيْداءِ أبْعَدَ مَنْزِلِ

ومِن أعظمِ أنواعِ برِّ الحجِّ كثرةُ ذكرِ اللهِ تَعالَى فيهِ. وقد أمَرَ اللهُ تَعالَى بكثرةِ ذكرِهِ في إقامةِ مناسكِ الحجِّ مرَّةً بعدَ أُخرى.

وخصوصًا كثرةَ الذِّكرِ في حالِ الإحرامِ بالتَّلبيةِ والتَّكبيرِ. وفي التِّرمِذِيِّ وغيرِهِ: عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «**أفضلُ الحجِّ العجُّ والثَّجُّ**»[1]. فالعجُّ رفعُ الصَّوتِ بالتَّكبيرِ والتَّلبيةِ، والثَّجُّ إراقةُ دماءِ الهدايا والنُّسكِ.

والهديُ مِن أفضلِ الأعمالِ: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦]. وقالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج: ٣٢]. وأهْدى النَّبيُّ ﷺ في حجَّةِ الوداعِ مئةَ بدنةٍ. وكانَ يَبْعثُ بالهديِ إلى منى فتُنْحَرُ عنهُ وهو مقيمٌ بالمدينةِ.

الأمرُ الثَّاني ممَّا يَكْمُلُ بِهِ برُّ الحجِّ: اجتنابُ أفعالِ الإثمِ فيهِ مِن الرَّفثِ والفسوقِ والمعاصي.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، والحاكم (١/٦٢٠)، وقال: صحيح الإسناد.

خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «مَن حجَّ هذا البيتَ فلمْ يَرْفُثْ ولمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كيومَ وَلدَتْهُ أُمُّهُ»[١].

فما تَزَوَّدَ حاجٌّ أفضَل مِن زادِ التَّقوى، ولا دُعِيَ للحاجِّ عندَ توديعِهِ بأفضلَ مِن التَّقوى.

ومن أعظمِ ما يَجِبُ على الحاجِّ اتِّقاؤهُ مِن الحرامِ؛ أن يُطَيِّبَ نفقتَهُ في الحجِّ، وأنْ لا يَجْعَلَها مِن كسبٍ حرامٍ.

وممَّا يجِبُ اجتنابُهُ على الحاجِّ وبهِ يَتِمُّ برُّ حجِّهِ أنْ لا يَقْصِدَ بحجِّهِ رياءً ولا سمعةً ولا مباهاةً ولا فخرًا ولا خيلاءَ ولا يَقْصِدَ بهِ إلَّا وجهَ اللهِ ورضوانَهُ ويَتَواضَعَ في حجِّهِ ويَسْتَكينَ ويَخْشَعَ لربِّهِ.

* * *

سُبحانَ مَن جَعَلَ بيتَهُ الحرام مثابةً للنَّاسِ وأمنًا يَتَرَدَّدون إليهِ ويَرْجِعونَ عنهُ ولا يَرَوْنَ أنَّهم قَضَوْا منهُ وطرًا!

لمَّا أضافَ تعالَى ذلكَ البيتَ إلى نفسِهِ ونَسَبَهُ إليهِ بقولِهِ ﷻ لخليلِهِ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]؛ تعَلَّقَتْ قلوبُ المحبِّينَ ببيتِ محبوبِهِم، فكلَّما ذُكِرَ لهُم ذلكَ البيتُ الحرامُ؛ حَنُّوا، وكلَّما تَذَكَّروا بعدَهُم عنهُ؛ أَنُّوا.

رأى بعضُ الصَّالحينَ الحاجَّ في وقتِ خروجِهِم، فوقَفَ يَبْكي ويَقولُ: واضعفاهُ! ويُنْشِدُ على أثرِ ذلكَ:

فَقُلْتُ دَعوني وَاتِّباعِي رِكابكُم ... أكُنْ طَوْعَ أيْديكُم كَما يَفْعَلُ العَبْدُ

ثمَّ تَنَفَّسَ وقالَ: هذهِ حسرةُ مَنِ انقطَعَ عنِ الوصولِ إلى البيتِ، فكيفَ تكونُ حسرةُ مَنِ انقطَعَ عنِ الوصولِ إلى ربِّ البيتِ؟!

---

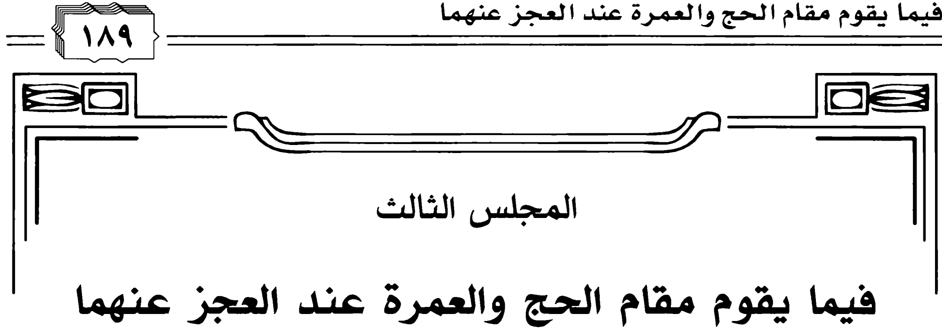
(١) تقدَّم تخريجه وهو في الصحيحين.

على أنَّ المتخلِّفَ لعذرٍ شريكٌ للسَّائرِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ لمَّا رَجَعَ مِن غزوةِ تَبُوكَ: «**إنَّ بالمدينةِ أقوامًا ما سِرتُم مسيرًا ولا قَطَعْتُمْ واديًا إلَّا كانوا معَكُم، حَبَسَهم العذرُ**»[١].

يا سائِرينَ إلى البَيْتِ العتيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُسُومًا وَسِرْنا نَحْنُ أرْواحًا

إنَّا أقَمْنا عَلى عُذْرٍ وَقَدْ رَحَلوا وَمَنْ أقامَ عَلى عُذْرٍ كَمَنْ راحا





المجلس الثالث

فيما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما

في «صحيح البُخارِيِّ»: عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: جاءَ الفقراءُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: ذَهَبَ أهلُ الدُّثورِ مِن الأموالِ بالدَّرجاتِ العلى والنَّعيمِ المقيمِ؛ يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصومونَ كما نَصومُ، ولهُم فضلُ أموالٍ يَحُجُّونَ بها ويَعْتَمِرونَ ويُجاهِدونَ ويَتَصَدَّقونَ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ألا أُحَدِّثُكم بما إنْ أخَذْتُم بهِ لَحِقْتُم مَن سَبَقَكُم ولم يُدْرِكْكُم أحدٌ بعدَكُم، وكُنتُم خيرَ مَن أنتُم بينَ ظهرانَيْهِ، إلَّا مَن عَمِلَ مثلَهُ؟ تُسَبِّحونَ وتَحْمَدونَ وتُكَبِّرونَ خلفَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ»**[1].

المالُ لمَنِ اسْتَعانَ بهِ على طاعةِ اللهِ وأنْفَقَهُ في سبلِ الخيراتِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تَعالَى سببٌ موصلٌ إلى اللهِ ﷻ، وهوَ لمَن أنْفَقَهُ في معاصي اللهِ ﷻ واسْتَعَانَ بهِ على نيلِ أغراضِهِ المحرَّمةِ أو اشْتَغَلَ بهِ عن طاعةِ اللهِ سببٌ قاطعٌ عنِ اللهِ. كما قالَ أبو سُلَيْمانَ الدَّارانِيُّ: الدُّنيا حجابٌ عنِ اللهِ لأعدائِهِ، ومطيَّةٌ موصلةٌ إليه لأوليائِهِ، فسبحانَ مَن جَعَلَ شيئًا واحدًا سببًا للاتِّصال بِهِ والانقطاعِ عنهُ!

وقد مَدَحَ اللهُ في كتابِهِ القسمَ الأوَّلَ وذَمَّ القسمَ الثَّانيَ:

فقالَ في مدحِ الأوَّلينَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]. وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]. والآياتُ في المعنى كثيرةٌ جدًّا.

وقالَ في ذمِّ الآخرينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١٠]. وقد قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: ليسَ أحدٌ لا يُؤتي زكاةَ مالِهِ إلَّا سألَ الرَّجعةَ عندَ الموتِ، ثمَّ تَلا هذهِ الآيةَ.

وأخْبَرَ اللهُ عن أهلِ النَّارِ الَّذينَ يُؤتى أحدُهُم كتابَهُ بشمالِهِ أنَّهُ يقولُ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٨].

والأحاديثُ في مدحِ مَن أنْفَقَ مالَهُ في سبيلِ الطَّاعاتِ وفي ذمِّ مَن لم يُؤَدِّ حقَّ اللهِ منهُ كثيرةٌ جدًّا.

وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ**»[1].

وكانَ عامَّةُ أهلِ الأموالِ مِن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ مِن هذا القسم.

ورأسُ المنفقينَ أموالَهُم في سبيلِ اللهِ مِن هذهِ الأُمَّةِ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وفيهِ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١].

وفي «صحيح الحاكم»: عنِ ابنِ الزُّبَيْرِ، قالَ: قالَ أبو قُحافَةَ لأبي بكْرٍ: أراكَ تُعْتِقُ رقابًا ضعافًا! فلو أنَّكَ إذ فَعَلْتَ أعْتَقْتَ رجالًا جلدًا يَمْنَعونَكَ ويَقومونَ دونَكَ. فقالَ أبو بَكْرٍ: يا أبتِ! إنِّي إنَّما أُريدُ ما أُريدُ. قالَ: وإنَّما

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وهو حديث صحيح.

نَزَلَتْ هذهِ الآياتُ فيهِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾..) [الليل: ٥] إلى آخرِ السُّورةِ[١].

وخَرَّجَ أبو داودَ والتِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ عُمَرَ؛ قالَ: أمَرنا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نَتَصَدَّقَ، ووافَقَ ذلكَ عندي مالًا، فقُلْتُ: اليومَ أَسْبِقُ أبا بَكْر. قالَ: فجِئتُ بنصفِ مالي. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ما أَبْقَيْتَ لأهلِكَ؟** قلتُ: مثلَهُ. وإنَّ أبا بَكْرٍ أتى بكلِّ ما عندَهُ، فقالَ: **«يا أبا بَكْرٍ! ما أبقَيْتَ لأهلِكَ؟»** قالَ: أبْقَيْتُ لهُمُ اللهَ ورسولَهُ. فقُلْتُ: لا أُسابِقُهُ إلى شيءٍ أبدًا[٢].

وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ والنّسائِيُّ وابنُ ماجَهْ مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: **«ما نَفَعَني مالٌ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ»**. فبَكَى أبو بكرٍ وقالَ: وهل أنا ومالي إلَّا لكَ يا رسولَ اللهِ؟[٣] وخَرَّجَهُ التِّرمِذِيُّ بدونِ هذهِ الزِّيادةِ في آخرِهِ.

وكانَ مِن المنفقينَ أموالَهُم في سبيلِ اللهِ عُثْمانُ بنُ عفَّانَ:

ففي التِّرْمِذيِّ عن عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ خَبَّابٍ؛ قالَ: شَهِدْتُ النَّبيَّ ﷺ وهوَ يَحُثُّ على جيشِ العسرةِ، فقامَ عُثْمانُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ! عليّ مئةُ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيلِ اللهِ. ثمَّ حَضَّ على الجيشِ، فقامَ عُثْمانُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيلِ اللهِ. ثمَّ حَضَّ على الجيشِ، فقامَ عُثْمانُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ! عليَّ ثلاثُ مئةِ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابِها في سبيلِ اللهِ. قالَ: فرَأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَنْزِلُ من المنبرِ وهوَ يَقولُ: **«ما على عُثْمانَ ما فَعَلَ بعدَ هذهِ، ما على عُثْمانَ ما فَعَلَ بعدَ هذِهِ»**[٤].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٥٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.
(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٠٠).

وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ والتِّرمِذيُّ مِن حديثِ عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ سَمُرَةَ، أنَّ عُثمانَ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ بألفِ دينارٍ حينَ جَهَّزَ جيشَ العسرةِ، فنَثَرَها في حجرِهِ. قالَ: فرأيْتُ النَّبيَّ ﷺ يُقَلِّبُها في حجرِهِ ويَقولُ: «**ما ضَرَّ عُثمانَ ما عَمِلَ بعدَ هذا اليومِ**»؛ مرَّتَينِ[١].

وكانَ منهُم أيضًا عَبْدُ الرَّحمٰنِ بنُ عَوْفٍ.

وخَرَّجَ التِّرمِذِيُّ مِن حديثِ: أبي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ عَوْفٍ، عن عائِشَةَ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقولُ (تَعْني: لأزواجِهِ): «**إنَّ أمْرَكُنَّ لَمِمَّا يُهِمُّني بعدي، ولن يَصْبِرَ عليكُنَّ إلَّا الصَّابرونَ**». قالَ: ثمَّ تَقولُ عائشَةُ لأبي سَلَمَةَ: سَقى اللهُ أباكَ مِن سلسبيلِ الجنَّةِ. وكانَ قَد وَصَلَ أزواجَ النَّبيِّ ﷺ بحديقةٍ بيعَتْ بأربعينَ ألفًا. وقالَ: حسنٌ غريبٌ. وخَرَّجَهُ الحاكِمُ وصَحَّحَهُ. وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ أوَّلَهُ[٢].

وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ أيضًا والحاكِمُ مِن حديثِ أُمِّ بَكْرٍ بنتِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ؛ أنَّ عَبْدَ الرَّحمٰنِ بنَ عَوْفٍ باعَ أرضًا لهُ مِن عُثمانَ بأربعينَ ألفَ دينارٍ، فقَسَمَها في فقراءِ بني زُهْرَةَ، وفي المهاجرينَ وأُمَّهاتِ المؤمنينَ. قالَ المِسْوَرُ: فأُتِيَتْ عائشَةُ بنصيبِها مِن ذلكَ المالِ، فقالَتْ لنا: إنِّي سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**لا يَحْنو عليكُنَّ بعدي إلَّا الصَّابرونَ، سَقى اللهُ ابنَ عوْفٍ مِن سلسبيلِ الجنَّةِ**»[٣].

وأخبارُ الأجوادِ المنفقينَ أموالَهُم في سبيلِ اللهِ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يَطُولُ ذكرُها جدًا.

---

(١) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٨٤٦)، والترمذي (٣٧٠١)، وحسَّنه الشيخ الألباني في المشكاة (٣/ ١٧١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٨٥)، والترمذي (٣٧٤٩)، والحاكم (٣/٣٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٧٢٤)، والحاكم (٣/٣٥١)، وقال: صحيح الإسناد.

وكانَ الفقراءُ مِن الصَّحابةِ كلَّما رَأَوْا أصحابَ الأموالِ منهُم يُنْفِقونَ أموالَهُم فيما يُحِبُّهُ اللهُ مِن الحجِّ والاعتمارِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ والعتقِ والصَّدقةِ والبرِّ والصِّلةِ وغيرِ ذلكَ مِن أنواعِ البرِّ والطَّاعاتِ والقرباتِ؛ حَزِنوا لِما فاتَهُم مِن مشاركتِهِم في هذهِ الفضائلِ.

وقد ذَكَرَهُمُ اللهُ في كتابِهِ بذلكَ، فقالَ تَعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ بسببِ قومٍ مِن فقراءِ المسلمينَ أَتَوا النَّبيَّ ﷺ وهوَ يَتَجَهَّزُ إلى غزوةِ تَبوكَ، فطَلَبوا منهُ أنْ يَحْمِلَهُم، فقالَ لهُم: «**لا أجِدُ ما أحْمِلُكُمْ عليهِ**». فرجَعوا وهُم يَبْكُونَ حزنًا على ما فاتَهُم مِن الجهادِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ.

قالَ بعضُ العلماءِ: هذا واللهِ بكاءُ الرِّجالِ، بَكَوا على فقدِهِم رواحلَ يَتَحَمَّلونَ عليها إلى الموتِ في مواطنَ تُراقُ فيها الدِّماءُ في سبيلِ اللهِ وتُنْزَعُ فيها رؤوسُ الرِّجالِ عن كواهِلِها بالسُّيوفِ. فأمَّا مَن يَبْكي على فقدِ حظِّهِ مِن الدُّنيا وشهواتِهِ العاجلةِ؛ فذلكَ شبيهٌ ببكاءِ الأطفالِ والنِّساءِ على فقدِ حظوظِهِمُ العاجلةِ.

سَهَرُ العيونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ باطِلٌ ... وَبُكاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضائِعُ

إنَّما يَحْسُنُ البكاءُ والأسفُ على فواتِ الدَّرجاتِ العلى والنَّعيمِ المقيمِ.

لمَّا سَمِعَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم قولَ اللهِ عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقولَهُ: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ فهِموا مِن ذلكَ أنَّ المرادَ أنْ يَجْتَهِدَ كلُّ واحدٍ منهُم أنْ يَكونَ هوَ السَّابقَ لغيرِهِ إلى هذهِ الكرامةِ

والمسارعَ إلى بلوغِ هذهِ الدَّرجةِ العاليةِ، فكانَ أحدُهُم إذا رأى مَن يَعْمَلُ عملًا يَعْجزُ عنهُ؛ خَشِيَ أنْ يَكونَ صاحبُ ذلكَ العملِ هوَ السَّابق لهُ، فيَحْزَنُ لفواتِ سبقِهِ، فكانَ تنافسُهُم في درجاتِ الآخرةِ واستباقُهُم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفِّفين: ٢٦]. ثمَّ جاءَ مَن بعدَهُم فعَكَسَ الأمرَ، فصارَ تنافسُهُم في الدُّنيا الدَّنيَّةِ وحظوظِها الفانيةِ.

قالَ الحسَنُ: إذا رَأيْتَ الرَّجُلَ يُنافِسُكَ في الدُّنيا؛ فنافِسْهُ في الآخرةِ.

وقالَ وُهَيْبُ بنُ الوَرْدِ: إنِ اسْتَطَعْتَ ألَّا يَسْبِقَكَ أحدٌ إلى اللهِ فافْعَلْ.

كانَ رأْسَ السَّابقينَ إلى الخيراتِ مِن هذهِ الأُمَّةِ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه. قالَ عُمَرُ: ما استَبَقْنا إلى شيءٍ مِن الخيرِ إلَّا سَبَقَنا أبو بَكْرٍ، وكانَ سَبَّاقًا بالخيراتِ.

ثمَّ كانَ السّابقُ بعدَهُ إلى الخيراتِ عُمَر.

صاحبُ الهمَّةِ العاليةِ والنَّفسِ الشَّريفةِ التَّوَّاقةِ لا يَرْضى بالأشياءِ الدَّنيَّةِ الفانيةِ، وإنَّما همَّتُهُ المسابقةُ إلى الدَّرجاتِ الباقيةِ الزَّكيةِ التي لا تَفْنى، ولا يَرْجِع عن مطلوبِهِ ولو تَلِفَتْ نفسُهُ في طلبِهِ. ومَن كانَ في اللهِ تلفُهُ؛ كانَ على اللهِ خلفُهُ.

قيلَ لبعضِ المجتهدينَ في الطاعاتِ: لمَ تُعَذِّبُ هذا الجسدَ؟ قالَ: كرامتَهُ أُريدُ.

وَإذا كـانَـتِ الـنُّـفـوسُ كِـبـارًا ... تَـعِـبَـتْ فـي مُـرادِهـا الأجْـسـامُ

قالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ: إنَّ لي نفسًا تَوَّاقةً، ما نالَتْ شيئًا إلَّا تاقَتْ إلى ما هوَ أفضلُ منهُ، وإنَّها لمَّا نالَتْ هذِهِ المنزلةَ (يَعْني: الخلافة) وليسَ في الدُّنيا منزلةٌ أعلى منها؛ تاقَتْ إلى ما هوَ أعلى مِن الدُّنيا (يعْنِي: الآخرةَ).

عَلَى قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأْتي العَزائِمُ ... وَتَأْتي عَلى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

قيمةُ كلِّ إنسانٍ ما يَطْلُبُ، فمَن كانَ يَطْلُبُ الدُّنيا، فلا أدنى منهُ؛ فإنَّ

الدُّنيا دنيَّةٌ، وأدنى منها مَن يَطْلُبُها، وهيَ خسيسةٌ، وأخسُّ منها مَن يَخْطُبُها.

قالَ بعضُهُم: القلوبُ جوَّالةٌ، فقلبٌ يَجولُ حولَ العرشِ، وقلبٌ يجولُ حولَ الحُشِّ[١].

الدُّنيا كلُّها حُشٌّ، وكلُّ ما فيها مِن مطعمٍ ومشربٍ يَؤولُ إلى الحشِّ، وما فيها مِن أجسامٍ ولباسٍ يَصيرُ ترابًا، كما قيلَ: وكلُّ الذي فوقَ التُّرابِ تُرابُ.

العالي الهمَّةِ يَجْتَهِدُ في نيلِ مطلوبِهِ، ويَبْذُلُ وسعَهُ في الوصولِ إلى رضى محبوبِهِ. فأمَّا خسيسُ الهمَّةِ، فاجتهادُهُ في متابعةِ هواهُ، ويَتَّكِلُ على مجرَّدِ العفوِ فيَفوتُهُ ـ إنْ حَصَلَ لهُ العفوُ ـ منازلُ السَّابقينَ المقرَّبينَ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: هَبْ أنَّ المسيءَ عُفِيَ عنهُ، أليسَ قد فاتَهُ ثوابُ المحسنين؟

فَيَا مُذْنِبًا يَرْجو مِنَ اللَّهِ عَفْوَهُ أَتَرْضَى بِسَبْقِ المُتَّقينَ إلى اللَّهِ

لمَّا تَنَافَسَ المتنافسونَ في نيلِ الدَّرجاتِ، غَبَطَ بعضُهُم بعضًا بالأعمالِ الصَّالحاتِ.

قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لا حسدَ إلَّا في اثنتينِ: رجلٌ أتاهُ اللهُ مالًا فهوَ يُنْفِقُهُ في سبيلِ اللهِ آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهوَ يَقومُ بهِ آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ**». وفي روايةٍ: «**لا تحاسدَ إلَّا في اثنتينِ: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهوَ يَقومُ بهِ آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ يَقولُ: لو أُوتِيتُ مثلَ ما أُوتِيَ هذا لَفَعَلْتُ كما يَفْعَلُ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالًا فهوَ يُنْفِقُهُ في حقِّهِ، يقولُ: لو أُوتِيتُ مثلَ ما أُوتِيَ هذا لَفَعَلْتُ كما يَفْعَلُ**». وهذا الحديثُ في الصَّحيحين[٢].

وفي التِّرمذِيِّ وغيرِهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إنَّما مثلُ هذهِ الأُمَّةِ كأربعةِ نفرٍ: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالًا وعلمًا، فهوَ يَعْمَلُ بعلمِهِ في مالِهِ يُنْفِقُهُ في حقِّهِ. ورجل**

---

(١) الحُش: مكان قضاء الحاجة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥).

آتاهُ اللهُ علمًا ولم يُؤْتِهِ مالًا، وهوَ يَقولُ: لو كانَ لي مثلُ هذا؛ لعَمِلْتُ فيهِ مثلَ الذي يَعْمَلُ». قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فهما في الأجرِ سواءٌ. ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالًا ولم يُؤتِهِ علمًا، فهوَ يَخْبِطُ في مالِهِ يُنْفِقُهُ في غيرِ حقِّهِ. ورجل لمْ يُؤتِهِ اللهُ علمًا ولا مالًا، فهوَ يَقولُ: لو كانَ لي مالُ هذا؛ عَمِلْتُ فيه مثلَ الذي يَعْمَلُ**». قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فهُما في الوزرِ سواءٌ**»(١).

فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ تأسُّفَ أصحابِهِ الفقراءِ وحزنَهُم على ما فاتَهُم مِن إنفاقِ إخوانِهِمُ الأغنياءِ أموالَهُم في سبيلِ اللهِ تقرُّبًا إليهِ وابتغاءً لمرضاتِهِ؛ طيَّبَ قلوبَهُم ودَلَّهُم على عملٍ يسيرٍ يُدْرِكونَ بهِ مَن سَبَقَهُم ولا يَلْحَقُهُم معَهُ أحدٌ بعدَهُم ويَكونونَ بهِ خيرًا ممَّن هُم معَهُ؛ إلَّا مَن عمِلَ عملهم، وهوَ الذِكرُ عقيبَ الصَّلواتِ المفروضاتِ.

وقد دَلَّ على ذلكَ أيضًا ما خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والتِّرمِذِيُّ مِن حديثِ أبي الدَّرداءِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**ألا أُنَبِّئُكُم بخيرِ أعمالِكُم، وأزكاها عندَ مليكِكُم، وأرفعِها في درجاتِكُم، وخيرٍ لكُم مِن إنفاقِ الذَّهبِ والورقِ، وخيرٍ لكُم مِن أنْ تَلْقَوْا عدوَّكُم فتَضْرِبوا أعناقَهُم ويَضْرِبوا أعناقَكُم؟**». قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ! قالَ: «**ذكرُ اللهِ ﷻ**»(٢). وخَرَّجَهُ مالِكٌ في «الموطَّأ» موقوفًا.

وقيلَ لأبي الدَّرداءِ: رجلٌ أعْتَقَ مئةَ نسمةٍ. قالَ: إنَّ مئةَ نسمةٍ مِن مالِ رجلٍ كثيرٌ، وأفضلُ مِن ذلكَ إيمانٌ ملزومٌ بالليلِ والنَّهارِ وأنْ لا يَزالَ لسانُ أحدِكُم رطبًا مِن ذكرِ اللهِ ﷻ.

وعنهُ قالَ: لأنْ أقولَ لا إلَهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ مئة مرَّةٍ أحبُّ إليَّ مِن أنْ أتَصَدَّقَ بمئةِ دينارٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٢٥)، والترمذي (٣٣٧٧)، والحاكم (١/ ٦٧٣)، وقال: صحيح الإسناد.

ويُرْوى مرفوعًا وموقوفًا مِن غيرِ وجهٍ: «مَن فاتَهُ الليلُ أنْ يُكابِدَهُ، وبَخِلَ بمالِهِ أنْ يُنْفِقَهُ، وجَبُنَ عن عدوِّهِ أن يُقاتِلَهُ؛ فلْيُكْثِرْ مِن «سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ»، فإنَّها أحبُّ إلى اللهِ مِن جبلِ ذهبٍ أو فضَّةٍ يُنْفِقُهُ في سبيلِ اللهِ ﷻ».

واعْلَمْ أنَّ مَن عَجَزَ عن عملِ خيرٍ وتأسَّفَ عليهِ وتَمَنَّى حصولَهُ؛ كانَ شريكًا لفاعلِهِ في الأجرِ، كما تقَدَّم في الذي قالَ لو كانَ لي مالٌ لَعَمِلْتُ فيهِ ما عَمِلَ فلانٌ أنَّهُما سواءٌ في الأجرِ والوزرِ. وقد قيلَ: إنَّهُما سواءٌ في أصلِ الأجرِ دونَ المضاعفةِ؛ فإنَّها تَخْتَصُّ بالعاملِ، فمِن هاهنا كانَ أربابُ الهممِ العاليةِ لا يَرْضَوْنَ بمجرَّدِ هذهِ المشاركةِ، ويَطْلُبونَ أنْ يَعْمَلوا أعمالًا تُقاوِمُ الأعمالَ التي عَجَزوا عنها؛ لِيَفوزوا بثوابٍ يُقاوِمُ ثوابَ تلكَ الأعمالِ ويُضاعَفُ لهُم كما يُضاعَفُ لأُولئِكَ فيَسْتَووا هُم وأُولئكَ العمَّالُ في الأجرِ كلِّهِ.

وقد كانَ بعضُ مَن يَقْعُدُ عنِ الجهادِ مِن امرأةٍ وضعيفٍ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ عن عملٍ يَعْدِلُ الجهادَ.

وفاتَ بعضَ النِّساءِ الحجُّ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا قَدِمَ؛ سأَلَتْهُ عمَّا يُجْزِئُ مِن تلكَ الحجَّةِ، قالَ: «**اعْتَمِري في رمضانَ؛ فإنَّ عمرةً في رمضانَ تَعْدِلُ حجَّةً (أو: حجَّةً معي)**»[1].

وقالَتْ عائِشَةُ: يا رسولَ اللهِ! نَرى الجهادَ أفضلَ العملِ، أفلا نُجاهِدُ؟ قالَ: «لكنْ جِهادُكُنَّ الحجُّ والعمرةُ»[2].

تَصَدَّقَ بعضُ الأغنياءِ بمالٍ كثيرٍ، فبَلَغَ ذلكَ طائفةً مِن الصَّالحينَ، فاجْتَمَعوا في مكانٍ، وحَسَبوا ما تَصَدَّقَ بهِ مِن الدَّراهمِ، وصَلَّوا بدلَ كلِّ درهمٍ تَصَدَّقَ بهِ للهِ تَعالى ركعةً.

هكذا يَكونُ استباقُ الخيراتِ والتَّنافسُ في علوِّ الدَّرجاتِ.

---

(١) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين. (٢) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين.

كَذاكَ الفَخْرُ يا هِمَمَ الرِّجالِ　　　تَعالَيْ فَانْظُري كَيْفَ التَّغالي

فسبحانَ مَن فَضَّلَ هذهِ الأُمَّةَ وفَتَحَ لها على يدي نبيِّها نبيِّ الرَّحمةِ أبوابَ الفضائلِ الجمَّةِ، فما مِن عملٍ عظيمٍ يَقومُ بهِ قومٌ ويَعْجِزُ عنهُ آخرونَ إلَّا وقد جَعَلَ اللهُ عملًا يُقاوِمُهُ أو يَفْضُلُ عليهِ، فتَتَساوى الأُمَّةُ كلُّها في القدرةِ عليهِ.

لمَّا كانَ الجهادُ أفضلَ الأعمالِ ولا قدرةَ لكثيرٍ مِن النَّاسِ عليهِ؛ كانَ الذِّكرُ الكثيرُ الدَّائمُ يُساويهِ ويَفْضُلُ عليهِ، وكانَ العملُ في عشرِ ذي الحجَّةِ يَفْضُلُ عليهِ؛ إلَّا مَن خَرَجَ بنفسِهِ ومالِهِ ولم يَرْجِعْ منهُما بشيءٍ.

لمَّا كانَ الحجُّ مِن أفضلِ الأعمالِ، والنُّفوسُ تَتوقُ إليهِ لِما وَضَعَ اللهُ في القلوبِ مِن الحنينِ إلى ذلكَ البيتِ العظيمِ، وكانَ كثيرٌ مِن النَّاسِ يَعْجِزُ عنهُ، ولا سيما كلَّ عامٍ؛ شَرَعَ اللهُ ﷻ لعبادِهِ أعمالًا يَبْلُغُ أجرُها أجرَ الحجِّ، فيَتَعَوَّضُ بذلكَ العاجزونَ عنِ التَّطوُّعِ بالحجِّ.

أداءُ الواجباتِ كلِّها أفضلُ مِن التَّنَفُّلِ بالحجِّ والعمرةِ وغيرِهِما؛ فإنَّهُ ما تَقَرَّبَ العبادُ إلى اللهِ بأحبَّ إليهِ مِن أداءِ ما افترَضَ عليهِم. وكثيرٌ مِن النَّاسِ يَهونُ عليهِ التَّنفُّلُ بالحجِّ والصَّدقةِ ولا يَهوُنُ عليهِ أداءُ الواجباتِ مِن الدُّيونِ ورَدِّ المظالمِ، وكذلكَ يَثْقُلُ على كثيرٍ مِن النُّفوسِ التَّنَزُّهُ عن كسبِ الحرامِ والشُّبهاتِ ويَسْهُلُ عليها إنفاقُ ذلكَ في الحجِّ والصَّدقة.

كفُّ الجوارحِ عنِ المحرَّماتِ أفضلُ مِن التَّطوُّعِ بالحجِّ وغيرِهِ، وهوَ أشَقُّ على النُّفوسِ.

قالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: ما حَجٌّ ولا رباطٌ ولا جهادٌ أشدَّ مِن حبسِ اللسانِ، ولو أصبَحْتَ يَهُمُّكَ لسانُكَ؛ أصْبَحْتَ في همٍّ شديدٍ.

إخوانِي! إنْ حُبِسْتُمُ العامَ عنِ الحجِّ، فارْجِعوا إلى جهادِ النُّفوسِ فهوَ الجهادُ الأكبرُ. أو أُحصِرْتُمْ عن أداءِ النُّسكِ؛ فأريقوا على تخلُّفِكُم مِن الدُّموعِ ما تَيَسَّرَ؛ فإنَّ إراقةَ الدِّماءِ لازمةٌ للمحصَر. ولا تَحْلِقوا رؤوسَ أديانِكُم

بالذُّنوبِ؛ فإنَّ الذُّنوبَ حالقةُ الدِّينِ ليستْ حالقةَ الشَّعر. وقوموا للهِ باستشعارِ الرَّجاءِ والخوفِ مقامَ القيامِ بأرجاءِ الخيفِ والمشعر. ومَن كانَ قد بَعُدَ عن حرمِ اللهِ؛ فلا يُبْعِدُ نفسَهُ بالذُّنوبِ عن رحمةِ اللهِ؛ فإنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ ممَّن تابَ إليهِ واستَغْفَرَ. ومَن عَجَزَ عن حجِّ البيتِ لأن البيت منهُ بعيد؛ فلْيَقْصِدْ ربَّ البيتِ، فإنَّهُ ممَّن دَعاهُ ورَجاهُ أقربُ مِن حبلِ الوريد.

إلَيْكَ قَصْدِيَ رَبَّ البَيْتِ والحَجَرِ ... فأنْتَ سُؤْلِيَ مِن حَجِّي ومِن عُمَرِي
وَفيكَ سَعْيي وَتَطْوافي ومُزْدَلِفي ... وَالهَدْيُ جِسْمي الذي يُغْني عنِ الجُزُرِ
وَمَسْجِدُ الخَيْفِ خوْفي مِن تَباعُدِكُمْ ... ومَشْعَري ومَقامي دونَكُم خَطَري
زادي رَجائي لَكُمْ والشَّوْقُ راحِلتي ... وَالماءُ مِنْ عَبَراتي وَالهوى سَفَري





وظيفة شهر ذي القعدة

وظيفة شهر ذي القعدة

خَرَّجَ الإمامُ أحمدُ بإسنادِهِ: عن رجلٍ مِن باهِلَةَ؛ قالَ: أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ لحاجةٍ، فقالَ: «**مَن أنتَ؟**». قُلْتُ: أما تَعْرِفُني؟ قالَ: «**وَمَن أنتَ؟**». قالَ: أنا الباهِليِ الذي أَتَيْتُكَ عامَ أوَّلَ. فقالَ: «**إنَّكَ أتَيْتَني وجسمُكَ ولونُكَ وهيئتُكَ حسنةٌ، فما بَلَغَ بكَ ما أرى؟** قُلْتُ: واللهِ؛ ما أفْطَرْتُ بعدَكَ إلَّا ليلًا. قالَ: «**مَن أَمَرَكَ أنْ تُعَذِّبَ نفسَكَ؟ مَن أمَرَكَ أن تُعَذِّبَ نفسَكَ؟ (ثلاثَ مرَّاتٍ). صُمْ شهرَ الصَّبرِ (رمضان)**». قُلْتُ: إنِّي أجِدُ قوَّةً، وإنِّي أُحِبُّ أنْ تَزيدَني. قالَ: «**صُمْ يومًا مِن الشَّهرِ**». قُلْتُ: إنِّي أجِدُ قوَّةً، وإنِّي أُحِبُّ أنْ تَزيدَني. قالَ: «**فيومينِ مِن الشَّهرِ**». قُلْتُ: إنِّي أجِدُ قوَّةً، وإنِّي أُحِبُّ أنْ تَزيدَني. قالَ: «**فثلاثَة أيَّامٍ مِن الشَّهرِ**». قالَ: وألَحَّ عندَ الرَّابعةِ فما كادَ. فقال: إنِّي أجِدُ قوَّةً، وإنِّي أُحِبُّ أنْ تَزيدَني. قالَ: «**فمِن الحُرُمِ وأفْطِرْ**»[1]. وخَرَّجَهُ أبو داودَ والنَّسائِيُّ وابنُ ماجَه بمعناهُ، وفي ألفاظِهِم زيادةٌ ونقصٌ.

في هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ مَن تَكَلَّفَ مِن العبادةِ ما يَشُقُّ عليهِ حتَّى تأذَّى بذلكَ جسدُهُ؛ فإنَّهُ غيرُ مأمورٍ بذلكَ، ولذلكَ قالَ ﷺ لهُ: «**مَن أمَرَكَ أنْ تُتعبَ نفسَكَ؟**»، وأعادَها عليهِ ثلاثَ مرارٍ.

وهذا كما قالَ لمَن رآهُ يَمْشي في الحجِّ وقد أجْهَدَ نفسَهُ: «**إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن تعذيبِ هذا نفسَهُ، فمُروهُ فلْيَرْكَبْ**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٣٢٣)، ومعنى قوله: (فمن الحُرُم وأفطر) أي: صم شيئًا من أيام الأشهر الحُرُم وأفطر شيئًا منها.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٧٨)، ومسلم (٣/ ١٢٦٣).

وقالَ لعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ حيثُ كانَ يَصومُ النَّهارَ ويَقومُ الليلَ ويَخْتِمُ القرآنَ في كلِّ ليلةٍ ولا يَنامُ معَ أهلِهِ، فأمَرَهُ أنْ يَصومَ ويُفْطِرَ ويَقرأ القرآنَ في كلِّ سبعٍ. وقالَ لهُ: «**إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقًّا، فآتِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ**»[١].

وَسَببُ هذا أنَّ اللهَ تَعالى خَلَقَ ابنَ آدَمَ محتاجًا إلى ما يقومُ بهِ بدنُهُ مِن مأكلٍ ومشربٍ ومنكحٍ وملبسٍ، وأباحَ لهُ مِن ذلكَ كلِّهِ ما هو طيِّبٌ حلالٌ تقوى بهِ النَّفسُ ويَصِحُّ بهِ الجسدُ ويَتَعاونانِ على طاعةِ الله ﷻ، وحَرَّمَ مِن ذلكَ ما هوَ ضارٌّ خبيثٌ يوجِبُ للنَّفسِ طغيانَها وعماها وقسوتَها وغفلَتها وأشرَها وبطرَها، فمَن أطاعَ نفسَهُ في تناولِ ما تشتهيهِ ممَّا حَرَّمَهُ اللهُ عليهِ، فقد تَعَدَّى وطَغى وظَلَمَ نفسَهُ، ومَن مَنَعها مِن المباحِ حتَّى تَضَرَّرَتْ بذلكَ، فقد ظلَمَها ومَنَعها حقَّها، فإنْ كان ذلكَ سببًا لضعفِها وعجزِها عن أداءِ شيءٍ مِن فرائضِ اللهِ عليهِ ومِن حقوقِ الله ﷻ أو حقوقِ عبادِهِ، كانَ بذلكَ عاصيًا، وإنْ كانَ ذلكَ سببًا للعجزِ عن نوافلَ هيَ أفضلُ ممَّا فَعَلَهُ؛ كانَ بذلك مفرِّطًا مغبونًا خاسرًا.

وقد كانَ ﷺ يَنْهى عنِ التَّعسِيرِ ويأْمُرُ بالتَّيسيرِ، ودينُهُ الذي بُعِثَ بهِ يُسْرٌ.

ولم يَكُنْ أكثرُ تطوُّعِ النَّبيِّ ﷺ وخواصِّ أصحابِهِ بكثرةِ الصَّومِ والصَّلاةِ، بل ببرِّ القلوبِ وطهارتِها وسلامتِها وقوَّةِ تعلُّقِها باللهِ خشيةً لهُ ومحبَّةً وإجلالًا وتعظيمًا ورغبةً فيما عندَه وزهدًا فيما يَفْنَى.

ولهذا المعنى كانَ فضلُ العلمِ النَّافِعِ الدَّالِّ على معرفةِ اللهِ وخشيتهِ

---

(١) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين.

ومحبَّتِهِ ومحبَّةِ ما يُحِبُّهُ وكراهةِ ما يَكْرَهُهُ ـ لا سيَّما عندَ غلبةِ الجهلِ والتَّعبُّدِ بهِ ـ أفضلَ مِن التَّطوُّعِ بأعمالِ الجوارحِ.

مَن سارَ على طريقِ الرَّسولِ ﷺ ومنهاجِهِ وإنِ اقْتَصَدَ فإنَّهُ يَسْبِقُ مَن سارَ على غيرِ طريقِه وإنِ اجْتَهَدَ.

مَنْ لي بِمِثْلِ سَيرِكَ المُدَلَّلِ   تَمْشي رُوَيْدًا وتَجي في الأوَّلِ

والمقصودُ أنَّ هذا الباهِلِيّ لمَّا رآهُ النَّبيُّ ﷺ وقد أنْهَكَهُ الصَّومُ وغَيَّرَ هيئتَهُ وأضَرَّ بهِ في جسدِهِ؛ أمَرَهُ أوَّلًا أنْ يَقْتَصِرَ على صيامِ شهرِ الصَّبرِ، وهوَ شهرُ رمضانَ؛ فإنَّهُ الشَّهرُ الذي افْتَرَضَ اللهُ صيامَهُ على المسلمينَ، واكْتَفى منهُم بصيامِهِ مِن السَّنةِ كلِّها، وصيامُهُ كفَّارةٌ لِما بينَ الرَّمضانينِ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ. فَطَلَبَ منهُ الباهِلِيُّ أنْ يَزيدَهُ مِن الصِّيامِ ويأْمُرَهُ بالتَّطوُّعِ وأخْبَرَهُ أنَّه يَجِدُ قوَّةً على الصِّيامِ، فقالَ لهُ: «صُمْ يومًا مِن الشَّهرِ»، فاستَزادَهُ، وقالَ: إنِّي أجِدُ قوَّةً، فقالَ: «صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ مِن الشَّهرِ». قالَ: وألَحَّ عندَ الثَّالثةِ فما كادَ؛ يَعْني: ما كادَ يَزيدُهُ على الثَّلاثةِ أيَّامٍ مِن الشَّهرِ.

ففي هذا أنَّ صيامَ يومٍ مِن الشَّهرِ يَحْصُلُ بهِ أجرُ صيامِ الشَّهرِ كلِّهِ، وكذلكَ صيامُ يومينِ منه. ووجهُ ذلكَ أنَّ الصِّيامَ يُضاعَفُ ما لا يُضاعَفُ غيرُهُ مِن الأعمالِ، وقد سَبَقَ ذكرُ ذلكَ عندَ الكلامِ على حديثِ «كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ لهُ الحسنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ، قالَ اللهُ ﷻ: إلَّا الصِّيامَ؛ فإنَّهُ لي وأنا أجزي بهِ»، فالصِّيامُ لا يَعْلَمُ منتهى مضاعفتِهِ إلَّا اللهُ ﷻ، وكُلَّما قَوِيَ الإخلاصُ فيهِ وإخفاؤُهُ وتنزيهُهُ عنِ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، كَثُرَتْ مضاعفتُهُ. فلا يُسْتَنْكَرُ أنْ يَصومَ الرَّجلُ يومًا مِن الشَّهرِ فيُضاعَفَ لهُ بثوابِ ثلاثينَ يومًا فيُكْتَبُ لهُ صيامُ الشَّهرِ كلِّهِ. وكذلكَ إذا صامَ يومينِ مِن الشَّهرِ. وأمَّا إذا صامَ منهُ ثلاثةَ أيَّامٍ؛ فهوَ ظاهرٌ؛ لأنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالِها.

وفي الصَّحيحينِ: عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**صُمْ مِن الشَّهرِ ثلاثة أيَّامٍ؛ فإنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالِها، وذلكَ مثلُ صيامِ الدَّهرِ**»(١).

وقد وَصَّى النَّبيُّ ﷺ جماعةً مِن أصحابِهِ بصيامِ ثلاثةِ أيَّامٍ مِن كلِّ شهرٍ، منهُم أبو هُرَيْرَةَ وأبو الدَّرْداءِ وأبو ذَرٍّ وغيرُهُم(٢).

وفي حديثِ الباهِليِّ أنَّهُ قالَ للنَّبيِّ ﷺ بعدَ ذلكَ: إنِّي أجِدُ قوَّة وإنِّي أحِبُ أنْ تَزيدَني. فقالَ لهُ: «**فمِن الحُرُمِ وأفطِرْ**». وفي روايةٍ: «**صُمِ الحُرُمَ وأفْطِر**». وفي روايةٍ قالَ: «**صُمِ الأشهرَ الحُرُمَ**».

فهذا دليلٌ على فضلِ صيامِ الأشهرِ الحرمِ الأربعةِ التي ذَكَرها اللهُ تَعالى في كتابِهِ بقولِهِ: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ [التَّوبة: ٣٦]، وقد فَسَّرَها النَّبيُّ ﷺ في حديثِ أبي بَكْرَةَ بأنَّها ثلاثةٌ متوالياتٌ؛ ذو القعدةِ وذو الحجَّةِ والمحرَّمُ وشهرُ رجبٍ. وقد ذَكَرْناهُ في وظيفةِ شهرِ رجبٍ.

وذَكَرْنا عنِ ابنِ عَبَّاسٍ أنَّ العملَ الصَّالحَ والأجرَ في هذهِ الأشهر الحُرُمِ أعظمُ.

وذَكَرْنا في وظائفِ المحرَّمِ قولَ النَّبيّ ﷺ: «**أفضلُ الصِّيامِ بعدَ رمضانَ شهرُ اللهِ الذي تَدْعونَهُ المحرَّمَ**».

وسيأتي في وظائفِ ذي الحجة ذكرُ فضلِ صيام عشرِ ذي الحجَّةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وذو القَعْدَةِ مِن الأشهرِ الحرمِ بغيرِ خلافٍ، وهوَ أوَّلُ الأشهرِ الحرمِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) ثبت ذلك في عدَّة أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما.

المتواليةِ. وهل هوَ أوَّلُ الحُرُمِ مطلقًا أم لا؟ فيهِ اختلافٌ ذَكَرْناهُ في وظيفةِ رجب.

وهو أيضًا مِن أشهرِ الحجِّ التي قالَ اللهُ تَعالى فيها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقيلَ: إنَّ تحريمَ ذي القَعْدَةِ كانَ في الجاهليَّةِ لأجلِ السَّيرِ إلى الحجِّ، وسُمِّيَ ذا القَعْدَةِ لقعودِهِم فيهِ عنِ القتالِ، وتحريمُ المحرَّمِ لرجوعِ النَّاسِ فيهِ.

ومن خصائص ذي القَعْدةِ: أنَّ عُمَرَ النَّبيِّ ﷺ كلَّها كانَتْ في ذي القَعْدَةِ سوى عمرتِهِ التي قَرَنَها بحجَّتِهِ، مع أنَّه ﷺ أحْرَمَ بها أيضًا في ذي القَعْدَةِ وفَعَلَها في ذي الحجَّةِ مع حجَّتِهِ.

وكانَتْ عُمَرُهُ ﷺ أربعًا: عمرةُ الحُدَيْبِيةِ، ولمْ يُتِمَّها، بل تَحَلَّلَ منها ورَجَعَ. وعمرةُ القضاءِ مِن قابلٍ. وعمرةُ الجِعْرَانَةِ عامَ الفتحِ لمَّا قَسَم غنائمَ حُنَيْنٍ، وقيلَ إنَّها كانَتْ في آخرِ شوَّال، والمشهورُ أنَّها كانَتْ في ذي القَعْدَةِ، وعليهِ الجمهورُ. وعمرتُهُ في حجَّةِ الوداعِ كما دَلَّتْ عليهِ النُّصوصُ الصَّحيحةُ وعليهِ جمهورُ العلماءِ أيضًا.

وقد رُوِيَ عن طائفةٍ مِن السَّلفِ ـ منهُمْ ابنُ عُمَرَ وعائِشَةُ وعَطاء ـ تفضيلُ عمرةِ ذي القَعْدَة وشوَّال على عمرةِ رمضانَ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ اعْـتَمَرَ في ذي القَعْدَةِ.

* * *

يا مَن لا يُقْلعُ عنِ ارتكابِ الحرامِ لا في شهرٍ حلالٍ ولا في شهرٍ حرام!

يا مَن هوَ في الطَّاعاتِ إلى وراءَ وراءَ وفي المعاصي إلى قدَّام!

يا مَنْ هوَ في كلِّ يومٍ مِن عمرِهِ شرٌّ ممَّا كانَ قبلَهُ مِن الأيَّام!

متى تَسْتَفيق مِن هذا المنام؟!

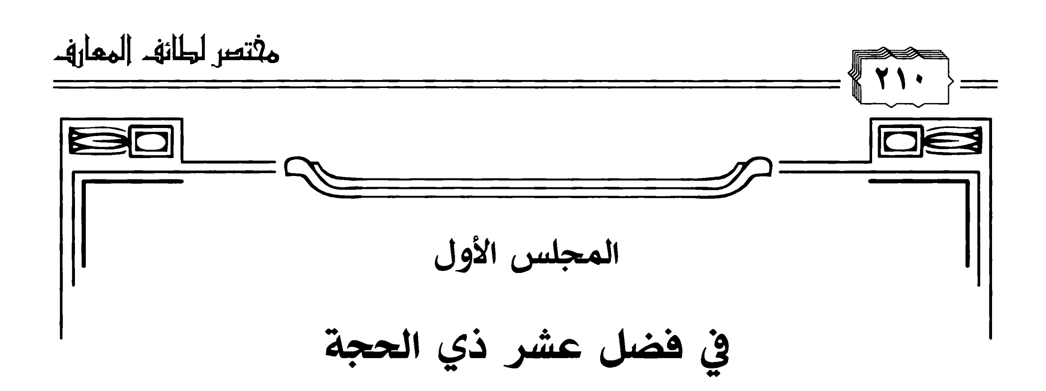
متى تَتوبُ مِن هذا الإجرام؟!

يا مَن أَنْذَرَهُ الشَّيبُ بالموتِ وهوَ مقيمٌ على الآثام! أما كفاكَ واعظُ الشَّيبِ معَ واعظِ القرآنِ والإسلامِ؟!

الموتُ خيرٌ لكَ مِن الحياةِ على هذهِ الحالِ والسَّلام.



وظائف شهر ذي الحجة



المجلس الأول

في فضل عشر ذي الحجة

خَرَّج البخاريُّ مِن حديثِ: ابنِ عبَّاسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: **«ما مِن أيَّامٍ العملُ الصَّالحُ فيها أحبُّ إلى الله مِن هذهِ الأيَّامِ (يعْني: أيَّامَ العشرِ»**). قالوا: يا رسولَ اللهِ! ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ. قالَ: **ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؛ إلَّا رجلًا خَرَجَ بنفسِهِ ومالِهِ ثمَّ لمْ يَرجِعْ مِن ذلكَ بشيءٍ»**[(١)].

الكلامُ في فضلِ عشرِ ذي الحجَّةِ في فصلينِ:

- في فضلِ العملِ فيهِ، وعليهِ دَلَّ هذا الحديثُ.
- وفي فضلِهِ في نفسهِ.

الفصل الأول

في فضل العمل فيه

وقد دَلَّ هذا الحديثُ على أنَّ العملَ في أيَّامِهِ أحبُّ إلى اللهِ مِن العملِ في أيَّامِ الدُّنيا مِن غيرِ استثناءِ شيءٍ منها، وإذا كانَ أحبَّ إلى اللهِ فهوَ أفضلُ عندَهُ. وقد وَرَدَ هذا الحديثُ بلفظِ «ما مِن أيَّامٍ العملُ فيها أفضلُ مِن أيَّامِ العشرِ»، ورُوِيَ بالشَّكِّ في لفظةِ «أحبُّ» و«أفضلُ».

وإذا كانَ العملُ في أيَّامِ العشرِ أفضلَ وأحبَّ إلى اللهِ مِن العملِ في غيرِهِ مِن أيَّامِ السَّنةِ كلِّها؛ صارَ العملُ فيهِ ـ وإنْ كانَ مفضولًا ـ أفضلَ مِن العملِ في

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩).

غيرِهِ وإنْ كانَ فاضلًا[(١)]. ولهذا قالوا: يا رسولَ اللهِ! ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؟ قالَ: «ولا الجهادُ».

ثمَّ استثنى جهادًا واحدًا هوَ أفضلُ الجهادِ: فإنَّهُ ﷺ سُئِل أيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قالَ: **«مَن عُقِرَ جوادُهُ وأُهْرِيقَ دمُهُ»**[(٢)]، **وصاحبُهُ أفضلُ النَّاسِ درجةً عندَ اللهِ. سَمِعَ النَّبيُّ رجلًا يَدْعو يقولُ: اللهمَّ! أعْطِني أفضلَ ما تُعْطي عبادَكَ الصَّالحينَ. فقالَ لهُ: «إذن يُعْقَرَ جوادُكَ وتُسْتَشْهَدَ»**[(٣)]. فهذا الجهادُ بخصوصِهِ يَفْضُلُ على العملِ في العشرِ.

وأمَّا بقيَّةُ أنواعِ الجهادِ؛ فإنَّ العملَ في عشرِ ذي الحجَّةِ أفضلُ وأحبُّ إلى اللهِ ﷻ منها، وكذلكَ سائرُ الأعمالِ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ العملَ المفضولَ في الوقتِ الفاضلِ يَلْتَحِقُ بالعملِ الفاضلِ في غيرِهِ ويَزيدُ عليهِ بمضاعفةِ ثوابِه وأجرِهِ.

وقد رُوِيَ في حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ هذا زيادة «والعمل فيهنَّ يُضاعَفُ بسبعِ مئةٍ»، وفي إسنادِها ضعفٌ.

وقد دَلَّ حديثُ ابنِ عَبَّاس على مضاعفةِ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ في العشرِ من غيرِ استثناءِ شيءٍ منها.

ومن الأعمال الصالحة: صوم عشر ذي الحجة.

وكانَ ابنُ سِيرِينَ يَكْرَهُ أنْ يُقالَ: صامَ العشرَ؛ لأنَّهُ يوهِمُ دخولَ يومِ النَّحرِ فيهِ، وإنَّما يُقالُ: صامَ التِّسعَ، ولكنَّ الصِّيامَ إذا أُضيفَ إلى العشرِ فالمرادُ صيامُ ما يَجوزُ صومُهُ منهُ.

---

(١) العمل الفاضل: هو الأكثر فضلًا، والعمل المفضول: هو الأقل فضلًا.
(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٣٣).
(٣) أخرجه ابن خزيمة (٤٥٣)، وابن حبان (٤٦٤٠)، والحاكم (١/ ٣٢٥)، وقال: صحيح.

وأمَّا قيامُ ليالي العشرِ؛ فمستحبٌّ.

وكانَ سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ـ وهوَ الذي رَوى هذا الحديثَ عنِ ابنِ عَبَّاس ـ إذا دَخَلَ العشرُ؛ اجْتَهَدَ اجتهادًا حتَّى ما يَكادُ يُقْدَرُ عليهِ. ورُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ: لا تُطْفِئوا سرجَكُم لياليَ العشرِ؛ تُعْجِبُهُ العبادةُ.

وأمَّا استحبابُ الإكثارِ مِن الذِّكرِ فيها؛ فقد دَلَّ عليهِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨]؛ فإنَّ الأيَّامَ المعلوماتِ هيَ أيَّامُ العشرِ عندَ جمهورِ العلماءِ.

الفصل الثاني

في فضل عشر ذي الحجة على غيره من أعشار الشهور

قد سَبَقَ حديثُ ابنِ عُمَرَ المرفوعُ: «ما مِن أَيَّامٍ أعظَمَ عندَ اللهِ ولا أحبَّ إليهِ العملُ فيهنَ مِن هذهِ الأيَّامِ العشرِ».

وقالَ مَسْروقٌ في قولِهِ تَعالى ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ٢]: هيَ أفضلُ أيَّامِ السَّنةِ. خَرَّجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاق وغيرُهُ.

وأيضًا؛ فأيَّامُ هذا العشرِ يتشتَمِلُ على يومِ عرفة، وقد رُوِيَ أنَّهُ أفضلُ أيامِ الدُّنيا، كما جاءَ في حديثِ جابرِ الذي ذَكَرناهُ.

فأمَّا لياليهِ؛ فمِن المتأخِّرينَ مَن زَعَمَ أنَّ لياليَ عشرِ رمضانَ أفضلُ مِن لياليهِ لاشتمالِها على ليلةِ القدر. وهذا بعيدٌ جدًّا.

والتَّحقيقُ ما قالَهُ بعضُ أعيانِ المتأخِّرين مِن العلماءِ؛ أنْ يُقالَ: مجموعُ هذا العشرِ أفضلُ مِن مجموعِ عشرِ رمضانَ، وإنْ كانَ في عشرِ رمضانَ ليلةٌ لا يَفْضُلُ عليها غيرُها. واللهُ أعلم.

ولعشرِ ذي الحجَّةِ فضائلُ أُخَرُ غيرُ ما تَقَدَّمَ:

فمِن فضائِلِهِ أنَّ اللهَ تعالى أَقْسَمَ بِهِ جملةً وببعضِهِ خصوصًا: قالَ تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١، ٢].

والليالي العشرِ؛ هي عشرُ ذي الحجَّةِ. هذا الصَّحيحُ الذي عليهِ جمهورُ المفسِّرينَ مِن السَّلفِ وغيرِهِم.

ومن فضائِلِه: أنَّهُ خاتمةُ الأشهرِ المعلوماتِ أشهرِ الحجَّ، التي قال اللهُ فيها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهيَ شوَّالٌ وذو القعدةِ وعشرٌ مِن ذي الحجَّةِ.

ومِن فضائلِهِ: أنَّهُ الأيَّامُ المعلوماتُ التي شَرَعَ اللهُ تَعالى ذكرَهُ فيها على ما رَزَقَ مِن بهيمةِ الأنعام. قالَ تَعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

وجمهور العلماءِ على أنَّ هذه الأيَّام المعلومات هيَ عشرُ ذي الحجَّة.

ويَخْتَصُّ عشرُ ذي الحجَّةِ في حقّ الحاجّ بأنَّهُ زمنُ سوقِهِم للهدي الذي بهِ يَكْمُلُ الحجّ ويَأْكُلونَ مِن لحومِهِ في آخر العشرِ، وهوَ يومُ النَّحرِ. وأفضلُ سوقِ الهدي مِن الميقاتِ في الأيَّامِ المعلوماتِ.

وفي الحديث: «أفضلُ الحجِّ العجُّ والثَّجُّ»(١).

فيكونُ كثرةُ ذكرِ اللهِ في أيَّامِ العشرِ شكرًا على هذهِ النِّعمِ المختصَّةِ ببهيمةِ الأنعام التي بعضُها يَتَعَلَّقُ بدينِ الحاجِّ وبعضُها يَتَعَلَّقُ بدنياهُم، وأفضلُ الأعمالِ ما كَثُرَ ذكرُ اللهِ تَعالى فيهِ، خصوصًا الحجَّ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بذكرِهِ كثيرًا في الحجِّ: قالَ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وهذا

---

(١) تقدَّم تخريجه.

الذِّكرُ يَكونُ في عشرِ ذي الحجَّةِ. ثم قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وهذا يقعُ في يوم النَّحرِ، وهوَ خاتمةُ العشرَ أيضًا. ثمَّ أمَرَ بذكرِهِ بعدَ العشرِ في الأيَّامِ المعدوداتِ، وهي أيَّامُ التَّشريقِ.

وفي «السُّنن»: عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قال: «**إنَّما جُعِلَ الطَّوافُ بالبيتِ والسَّعيُ بينَ الصَّفا والمروةِ ورميُ الجمارِ لإقامةِ ذكرِ اللهِ ﷻ**»(١).

فهذا كلُّهُ بالنِّسبةِ إلى الحاجِّ.

فأمَّا أهلُ الأمصارِ؛ فإنَّهُم يُشارِكونَ الحاجَّ في عشرِ ذي الحجَّةِ في الذِّكرِ وإعدادِ الهدي.

فأمَّا إعدادُ الهدي؛ فإنَّ العشرَ تُعَدُّ فيهِ الأضاحي كما يَسوقُ أهلُ الموسمِ الهديَ، ويُشارِكونَهُم في بعضِ إحرامِهِم؛ فإنَّ من دَخَلَ عليهِ العشرُ وأرادَ أنْ يُضحي فلا يَأْخُذُ مِن شعرِهِ ولا مِن أظفارِهِ شيئًا كما رَوَتْ ذلكَ أُمُّ سَلَمَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ. خَرَّجَ حديثها مسلمٌ(٢)، وأخذَ بذلكَ الشَّافِعِيُّ وأحْمَدُ وعامَّةُ فقهاءِ الحديثِ.

وأمَّا مشاركتُهُم لهُم في الذِّكرِ في الأيَّامِ المعلوماتِ؛ فإنَّه يُشْرَعُ للنَّاسِ كلِّهِم الإكثارُ مِن ذكرِ اللهِ في أيَّامِ العشرِ خصوصًا.

وقد ذَكَرَ البُخارِيُّ في «صحيحه» عنِ ابنِ عُمَرَ وأبي هرَيْرَةَ أنَّهُما كانا يَخْرُجانِ إلى السُّوقِ في العشرِ فيُكَبِّرانِ ويُكَبِّرُ النَّاسُ بتكبيرِهِما(٣).

ورَوى جَعْفَرٌ الفِرْيابِيُّ في «كتاب العيدين»: حَدَّثَنا إسْحاقُ بنُ راهَوَيْه، أَخْبَرَنا جَريرٌ، عن يَزيدَ بنِ أبي زِيادٍ؛ قالَ: رَأيتُ سَعيدَ بنَ جُبَيْرٍ ومُجاهِدًا وعَبْدَ الرَّحْمٰنِ بنَ أبي لَيْلَى أوِ اثنينِ مِن هؤلاءِ الثَّلاثَةِ ومَنْ رأينا مِن فقهاءِ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٧).
(٣) تقدَّم تخريجه.

النَّاسِ يَقولونَ في أيَّامِ العشرِ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

لمَّا كانَ اللهُ سبحانَهُ قد وَضَعَ في نفوسِ المؤمنينَ حنينًا إلى مشاهدةِ بيتِهِ الحرامِ، وليسَ كلُّ أحدٍ قادرًا على مشاهدتِهِ في كلِّ عامٍ؛ فَرَضَ على المستطيع الحجَّ مرَّة واحدة في عمرِهِ، وجَعَلَ موسمَ العشرِ مشتركًا بينَ السَّائرينَ والقاعدينَ، فمَن عَجَزَ عنِ الحجِّ في عامٍ؛ قَدَرَ في العشرِ على عملٍ يَعْمَلُهُ في بيتِهِ يكونُ أفضلَ مِن الجهادِ الذي هوَ أفضلُ مِن الحجِّ.

لَيالي العَشْرِ أوْقاتُ الإجابَة فَبادِرْ رَغْبَةً تَلْحَق ثوابَهُ
ألا لا وَقْتَ لِلْعُمَّالِ فيهِ ثوابُ الخَيْرِ أقْرَبُ لِلإصابَة
مِن أوقاتِ الليالي العَشْرِ حَقًّا فَشمِّر وَاطْلُبَنْ فيها الإنابَة

المعاصي سببُ البعدِ والطَّردِ كما أنَّ الطَّاعاتِ أسبابُ القربِ والودّ.

إخوانُكُم في هذهِ الأيَّامِ قد عَقدوا الإحرام، وقصَدوا البيتَ الحرام، ومَلؤوا الفضاءَ بالتَّلبيةِ والتَّكبيرِ والتَّهليلِ والتَّحميدِ والإعظام. لقد ساروا وقَعَدْنا، وقَرُبوا وبَعُدْنا، فإنْ كانَ لنا معَهُم نصيبٌ سَعِدْنا.

أتُراكُمْ في النَّقا والمُنْحَنى أهْلَ سَلْعٍ تَذْكُرونا ذِكرَنا
انْقَطعْنا ووَصَلْتُمْ فَاعْلَموا واشْكُروا المُنْعِم يا أهْلَ مِنى
قَدْ خَسِرْنا وَرَبِحْتُمْ فَصِلوا بِفُضولِ الرِّبْحِ مَنْ قَدْ غُبنا
سارَ قَلْبي خَلْفَ أحْمالِكُمُ غَيْرَ أنَّ العُذْرَ عاقَ البَدَنا
ما قَطَعْتُمْ وادِيًا إلّا وِقَدْ جِئْتُهُ أسْعى بإقْدامِ المُنى
أنا مُذْ غِبْتُمْ عَلى تَذْكارِكُمْ أتُرى عِنْدَكُمُ ما عِنْدَنا

القاعد لعذرٍ شريكُ السَّائِر، وربَّما سَبقَ السَّائرُ بقلبِهِ السَّائرينَ بأبدانِهِم.

يا سائِرينَ إلى البَيْتِ العَتيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُسومًا وَسِرْنا نَحْنُ أرْواحا
إنَّا أقَمنا على عُذْرٍ وَقَدْ رَحَلوا ومَن أقامَ على عُذْرٍ كَمَنْ راحا

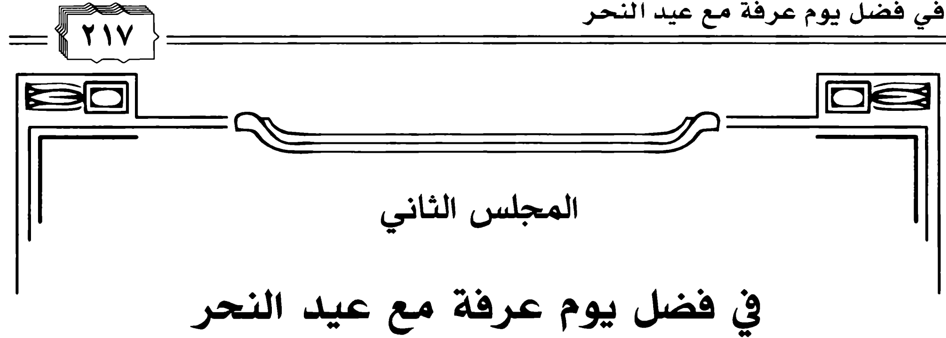
الغنيمةَ الغنيمة، بانتهازِ الفرصةِ في هذهِ الأيام العظيمة، فما منها عوضٌ ولا لها قيمة.

المبادرةَ المبادرةَ بالعمل، والعجلَ العجلَ قبلَ هجومِ الأجل، قبلَ أنْ يندَمَ المفرِّطُ على ما فَعَل، قبلَ أنْ يَسْأل الرَّجعة لِيَعْمَلَ صالحًا فلا يُجاب إلى ما سَأل، قبلَ أنْ يَحولُ الموتُ بينَ المؤمِّلِ وبلوغِ الأمل، قبلَ أنْ يَصيرَ المرءُ مرتهنًا في حفرتِهِ بما قَدَّمَ مِن عمل.

يا مَنْ طَلَع فجرُ شيبِهِ بعدَ بلوغ الأربعين! يا مَنْ مَضى عليهِ بعدَ ذلك عشر سنينَ حتَّى بَلَغَ الخمسين! يا مَنْ هوَ في معتركِ المنايا ما بينَ السِّتينَ إلى السَّبعين! ما تَنْتَظِرُ بعدَ هذا الخبرِ إلَّا أن يَأتِيَكَ اليقين. يا مَنْ ذنوبُهُ بعددِ الشَّفعِ والوترِ! أما تَسْتَحي مِن الكرام الكاتبين؟ أم أنتَ ممَّن يُكَذِّبُ بالدِّين؟ يا مَن ظلمةُ قلبِهِ كالليلِ إذا يَسْري! أما آنَ لقلبِكَ أَنْ يَسْتَنيرَ أو يَلين؟ تَعَرَّضْ لنفحاتِ مولاكَ في هذا العشر؛ فإنَّ للهِ فيهِ نفحاتٍ يُصيبُ بها مَنْ يَشاءُ، فمن أصابَتْهُ سَعِدَ بها آخرَ الدَّهر.

جَنَحَتْ شَمْسُ حَياتي ... وَتَدَلَّتْ لِلغُروبِ
وَتَوَلَّى لَيْلُ رَأْسي ... وَبَدا فَجْرُ المَشيبِ
رَبِّ خَلِّصْني فَقَدْ لَجْـ ... ـجَجْتُ في بَحْرِ الذنوبِ
وَأَنِلْني العَفْوَ يا أقْـ ... ـرَبَ مِنْ كُلِّ قَريبِ





المجلس الثاني

في فضل يوم عرفة مع عيد النحر

في الصَّحيحين: عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه؛ أنَّ رجلًا مِن اليهودِ قالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ! آيةٌ في كتابِكُم، لو علينا معشرَ اليهودِ نَزَلَتْ؛ لاتَّخَذْنا ذلكَ اليومَ عيدًا. فقالَ: أيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فقالَ عُمَرُ: إنِّي لأعلمُ اليومَ الذي نَزَلَتْ فيهِ والمكانَ الذي نَزَلَتْ فيهِ، نَزَلَت ورسولُ اللهِ ﷺ قائمٌ بعرفةَ يومَ جمعةٍ[١].

وخَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ نحوَهُ، وقالَ فيهِ: نَزَلتْ في يومِ عيدٍ مِن يومِ جمعةٍ ويومِ عرفة.

العيدُ هو موسمُ الفرحِ والسُّرورِ، وأفراحُ المؤمنينَ وسرورُهُم في الدُّنيا إنَّما هوَ بمولاهُم إذا فازوا بإكمالِ طاعتِهِ وحازوا ثوابَ أعمالِهِم بوثوقِهِم بوعدِه لهم عليها بفضلِهِ ومغفرته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

لمَّا قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ؛ كانَ لهم يومان يَلْعَبونَ فيهما، فقالَ: «**إنَّ اللهَ قد أَبْدَلَكُم يومينِ خيرًا منهُما؛ يومَ الفطرِ والأضحى**»[٢]. فأَبْدَلَ اللهُ هذهِ الأُمَّة بيومي اللعبِ واللهوِ يومي الذِّكر والشُّكرِ والمغفرة والعفوِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٠٦)، والنسائي (١٥٥٦)، والحاكم (١/٤٣٤)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.

ففي الدُّنيا للمؤمنينَ ثلاثةُ أعيادٍ: عيدٌ يَتكَرَّر كلَّ أُسبوعٍ، وعيدانِ يَأتِيان في كلّ عامٍ مرَّةً مرَّة.

فأمَّا العيدُ المتكرِّرُ؛ فهوَ يومُ الجمعةِ، وهوَ عيدُ الأسبوعِ، وهوَ مترتبٌ على إكمالِ الصَّلواتِ المكتوباتِ؛ فإنَّ الله تعالى فَرَض على المؤمنينَ في كلِّ يومٍ وليلةٍ خمسَ صلواتٍ، وأيَّامُ الدُّنيا تدورُ على سبعةِ أيامٍ، فكلَّما كَمَلَ دورُ أسبوعٍ مِن أيامِ الدُّنيا واستكْمَلَ المسلمونَ صلواتِهم فيهِ، شُرِعَ لهُم في يومِ استكمالِهِم وهو اليومُ الذي كَمَلَ فيه الخلقُ، وفيه خُلِقَ آدَمُ وأُدْخِلَ الجنّة وأُخْرِجَ منها، وفيهِ يَنْتَهي أمدُ الدنيا فتَزولُ وتقومُ السَّاعةُ، وسُمِّيَ يومَ الجمعةِ للاجتماع على سماع الذِّكرِ والموعظةِ وصلاةِ الجمعةِ، وجُعِلَ ذلكَ لهم عيدًا، ولهذا نُهِيَ عن إفرادِهِ بالصِّيام.

وفي شهودِ الجمعةِ شبهٌ من الحجّ.

والتَّبكيرُ إليها يَقومُ مقامَ الهديِ على قدرِ السَّبقِ، فأوَّلُهُم كالمُهدي بدنةً ثمَّ بقرة ثمَّ كبشًا ثم دجاجةً ثمَّ بيضةً.

وشهودُ الجمعةِ يوجِبُ تكفيرَ الذُّنوبِ إلى الجمعةِ الأُخرى إذا سَلِمَ ما بينَ الجمعتينِ مِن الكبائرِ كما أنَّ الحجَّ المبرورَ يُكَفِّرُ ذنوبَ تلك السَّنةِ إلى الحجَّةِ الأخرى.

وفي الحديثِ الصحيح: عنِ النبيِّ ﷺ؛ أنه قالَ: «**ما طَلَعَتِ الشَّمسُ ولا غَرَبَتْ على يومٍ أفضلَ مِن يومِ الجمعةِ**»[1].

فهذا عيدُ الأُسبوعِ، وهو متعلِّقٌ بإكمالِ الصَّلاةِ المكتوبةِ، وهيَ أعظمُ أركانِ الإسلامِ ومبانيهِ بعدَ الشّهادتينِ.

وأمَّا العيدانِ اللذانِ لا يَتكَرَّرانِ في كلِّ عامٍ، وإنَّما يأتِي كلٌّ واحدٍ منهما في العامِ مرةً واحدةً:

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٧٢٢)، والترمذي (٣٣٣٩)، وقد حكم المؤلف بصحته كما ترى.

فأحدُهُما: عيدُ الفطرِ مِنْ صومِ رمضانَ، وهوَ مرتَّبٌ على إكمالِ صيامِ رمضانَ، وهو الرُّكن الثَّالثُ مِن أركانِ الإسلامِ ومبانيهِ، فإذا استكمَلَ المسلمونَ صيامَ شهرِهِم المفروض عليهم واسْتَوْجَبوا مِن اللهِ المغفرةَ والعتقَ مِن النَّارِ ـ فإنَّ صيامَهُ يوجِبُ مغفرةَ ما تَقَدَّم مِن الذنوبِ، وآخرُهُ عتقٌ من النَّارِ يُعْتَقُ فيهِ مِن النَّارِ مَن اسْتَحَقَّها بذنوبِهِ ـ فشَرَعَ اللهُ تَعالى لهُم عقيبَ إكمالِهِم لصيامِهِم عيدًا يَجْتَمِعونَ فيهِ على شكرِ اللهِ وذكرِهِ وتكبيرِهِ على ما هَداهُم لهُ، وشَرَعَ لهُم في ذلكَ العيدِ الصَّلاةَ والصَّدقةَ، وهوَ يومُ الجوائزِ يَسْتَوْفي الصَّائمونَ فيهِ أجرَ صيامِهِم ويَرْجِعونَ مِن عيدِهِم بالمغفرةِ.

والعيد الثاني: عيدُ النَّحرِ، وهوَ أكبرُ العيدينِ وأفضلُهُما، وهوَ مترتبٌ على إكمالِ الحجِّ، وهو الرُّكنُ الرَّابعُ مِن أركانِ الإسلامِ ومبانيهِ. فإذا أكْمَلَ المسلمونَ حجَّهُم؛ غُفِرَ لهم. وإنما يكملُ الحجُّ بيوم عرفةَ والوقوفِ فيه بعرفة؛ فإنه ركنُ الحجِّ الأعظمُ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**الحجُّ عرفةُ**». ويومُ عرفة هوَ يومُ العتقِ مِن النَّارِ، فيُعْتِقُ اللهُ فيهِ مِن النَّارِ مَن وَقَفَ بعرفةَ ومَنْ لمْ يَقِفْ بها مِنْ أهلِ الأمصارِ مِن المسلمينَ، فلذلكَ صارَ اليومُ الذي يَليهِ عيدًا لجميعِ المسلمينَ في جميع أمصارِهِم، مَن شَهِدَ الموسمَ منهُم ومَن لم يَشْهَدهُ؛ لاشتراكِهِم في العتقِ والمغفرةِ يومَ عرفةَ. وإنَّما لم يَشْتَرِكِ المسلمونَ كلُّهُم في الحجِّ كلَّ عامٍ رحمة مِن اللهِ وتخفيفًا على عبادِهِ، فإنَّهُ جَعَلَ الحجَّ فريضةَ العمرِ لا فريضةَ كل عامٍ، وإنَّما هوَ في كلّ عامٍ فرضُ كفايةٍ، بخلافِ الصِّيامِ؛ فإنَّهُ فريضةُ كلِّ عام على كلِّ مسلم.

فإذا كَمَلَ يومُ عرفةَ، وأعْتَقَ اللهُ عبادهُ المؤمنينَ مِن النَّارِ، اشترَكَ المسلمونَ كلُّهُم في العيدِ عقيبَ ذلك، وشُرِعَ للجميعِ التَّقرُّبُ إليهِ بالنُّسكِ، وهو إراقةُ دماءِ القرابينِ. فأهلُ الموسمِ يَرْمونَ الجمرَة، فيَشْرَعونَ في التَّحلُّلِ مِن إحرامِهِم بالحجِّ ويَقْضونَ تفثَهُم ويوفونَ نذورَهُم ويُقَرِّبونَ قرابينَهُم مِن

الهدايا ثمَّ يطوفونَ بالبيتِ العتيقِ، وأهلُ الأمصارِ يَجْتَمِعونَ على ذكرِ اللهِ وتكبيرِهِ والصَّلاةِ لهُ.

ثمَّ يَنْسِكونَ عقيبَ ذلكَ نسكَهُم ويُقَرِّبون قرابينَهُم بإراقةِ دماءِ ضحاياهُم، فيَكونُ ذلكَ شكرًا منهُم لهذهِ النِّعمِ.

والصّلاةُ والنَّحرُ الذي يَجْتَمعُ في عيدِ النَّحرِ أفضلُ مِن الصَّلاةِ والصَّدقةِ الذي في عيدِ الفطرِ، ولهذا أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ أنْ يَجْعَلَ شكرَهُ لربِّهِ على إعطائِهِ الكوثرَ أنْ يُصَلِّيَ لربِّهِ ويَنْحَرَ، وقيلَ لهُ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. ولهذا ورَدَ الأمرُ بتلاوةِ هذهِ الآيةِ عندَ ذبحِ الأضاحي، والأضاحي سنَّةُ إبْراهيمَ ومُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِما وسَلَّمَ؛ فإنَّ اللهَ شَرَعَها لإبْراهيمَ حينَ فَدى ولدَهُ الذي أمَرَهُ بذبحِهِ بِذِبْحٍ عظيم.

فهذهِ أعيادُ المسلمينَ في الدُّنيا، وكلُّها عندَ إكمالِ طاعةِ مولاهُمُ الملكِ الوهَّاب، وحيازتِهِم لِما وَعَدَهُم مِن الأجرِ والثَّواب.

وأمَّا أعيادُ المؤمنينَ في الجنَّةِ؛ فهيَ أيَّامُ زيارتِهِم لربِّهِم ﷻ، فيَزورونَهُ ويُكْرِمُهُم غايةَ الكرامةِ ويَتَجَلَّى لهُم فيَنْظُرونَ إليهِ، فما أعْطاهُم شيئًا هوَ أحبّ إليهِم مِن ذلكَ، وهوَ الزِّيادةُ التي قالَ اللهُ فيها: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ليسَ للمحبِّ عيدٌ سوى قربِ محبوبِهِ.

إنَّ يومًا جامِعًا شَمْلي بِهِمْ ذاكَ عيدٌ لَيْسَ لي عيدٌ سِواهُ

كلُّ يومٍ كانَ للمسلمينَ عيدًا في الدُّنيا؛ فإنَّهُ عيدٌ لهم في الجنَّةِ؛ يَجْتَمِعونَ فيهِ على زيارةِ ربِّهِم، ويَتَجَلَّى لهُم فيهِ. ويومُ الجمعةِ يُدْعى في الجنَّةِ يومَ المزيدِ، ويومُ الفطرِ والأضحى يجتمع أهل الجنَّة فيهما للزيارة، ورُويَ أنَّه يشارك النساءُ الرجالَ فيهما كما كُنَّ يَشْهَدْنَ العيدينِ معَ الرِّجالِ دونَ الجمعةِ. فهذا لعمومِ أهلِ الجنَّةِ. فأَمَّا خواصُّهُم؛ فكلُّ يومٍ لهُم عيدٌ يَزورونَ ربَّهُم كلَّ يومٍ مرَّتينِ؛ بكرةً وعشيًّا.

ولمَّا كانَ عيدُ النَّحرِ أكبرَ العيدينِ وأفضلَهُما، ويَجْتَمعُ فيهِ شرفُ المكانِ والزَّمانِ لأهلِ الموسمِ؛ كانَتْ لهُم فيهِ معَهُ أعيادٌ قبلَهُ وبعدَهُ، فقبلَه يومُ عرفةَ وبعدَهُ أيامُ التَّشريقِ، وكلُّ هذِهِ الأيَّامِ أعيادٌ لأهلِ الموسمِ، كما في حديثِ عقبةَ بنِ عامرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**يومُ عرفةَ ويومُ النَّحرِ وأيَّامُ التَّشريقِ عيدُنا أهلَ الإسلام، وهيَ أيَّامُ أكلٍ وشربٍ**». خَرَّجَهُ أهلُ «السُّننِ» وصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ[1].

ولهذا لا يُشْرَعُ لأهلِ الموسمِ صومُ يومِ عرفةَ؛ لأَنَّهُ أوَّلُ أعيادِهِم وأكبرُ مجامعِهِم، وقد أفْطَرَهُ النَبيُّ ﷺ بعرفةَ والنَّاسُ يَنْظُرونَ إليه.

وأيَّامُ التَّشريقِ الثَّلاثةُ هيَ أيَّامُ عيدٍ أيضًا، ولهذا بَعثَ النَّبيُّ ﷺ مَن يُنادي بمكَّةَ أنَّها أيَّامُ أكلٍ وشربٍ وذكرِ اللهِ ﷻ، فلا يَصومَنَّ أحدٌ.

وقد يَجْتَمعُ في يومٍ واحدٍ عيدانِ، كما إذا اجْتَمَعَ يومُ الجمعةِ معَ يومِ عرفةَ أو يومِ النَّحرِ، فيَزْدادُ ذلكَ اليومُ حرمةً وفضلًا لاجتماعِ عيدينِ فيهِ.

وقد كانَ ذلكَ؛ اجْتَمَعَ للنَّبيِّ ﷺ في حجَّتِهِ يوم عرفة فكانَ يومَ جمعةٍ، وفيهِ نَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وإكمالُ الدِّينِ في ذلكَ اليوم حَصَلَ مِن وجوهٍ:

منها: أنَّ المسلمينَ لم يَكونوا حَجُّوا حجَّةَ الإسلامِ بعدَ فرضِ الحجِّ قبلَ ذلكَ ولا أحدٌ منهُم، هذا قولُ أكثرِ العلماءِ أو كثيرٍ منهُم، فكَمَلَ بذلكَ دينُهُم لاستكمالِهِم عمَل أركانِ الإسلامِ كلِّها.

ومنها: أنَّ اللهَ تَعالى أعادَ الحجَّ على قواعدِ إبْراهيمَ عليه السلام ونَفى الشِّركَ وأهلَهُ فلم يَخْتَلِطْ بالمسلمينَ في ذلكَ الموقفِ منهُم أحدٌ. قالَ الشَّعْبِيُّ: نَزَلَتْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٣٠٠٤)، وابن ماجه (١٠٠٤)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

هذه الآيةُ على النَّبيِّ ﷺ وهوَ واقفٌ بعرفةَ حينَ وَقَفَ موقفَ إبْراهيمَ واضْمَحَلَّ الشِّركُ وهُدِّمَتْ منارُ الجاهليَّةِ ولم يَطُفْ بالبيتِ عُريانٌ. وكذا قالَ قَتادَةُ وغيرُهُ. وقد قيلَ: إنَّهُ لم يَنْزِلْ بعدَها تحليلٌ ولا تحريمٌ. قالَهُ أبو بَكْرِ بنُ عَيَّاش.

وأمَّا إتمامُ النِّعمةِ؛ فإنَّما حَصَلَ بالمغفرةِ، فلا تَتِمُّ النِّعمةُ بدونِها، كما قالَ اللهُ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ٢]، وقالَ في آيةِ الوضوءِ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. ومن هنا استنبطَ مُحَمَّدُ بنُ كَعْب القُرَظِيُّ أنَّ الوضوءَ يُكَفِّرُ الذُّنوبَ، كما وَرَدَتِ السُّنَّةُ بذلكَ صريحًا.

فيومُ عرفةَ لهُ فضائلُ متعدِّدةٌ:

منها: أنَّهُ يومُ إكمالِ الدِّينِ وإتمامِ النِّعمةِ.

ومنها: أنَّهُ عيدٌ لأهلِ الإسلامِ، كما قالَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وابنُ عَبَّاس.

ومنها: أنَّهُ قد قيلَ: إنَّهُ الشَّفعُ الذي أقْسَمَ اللهُ بهِ في كتابِهِ وإنَّ الوترَ هو يومُ النَّحرِ.

وقيلَ: إنَّهُ الشَّاهدُ الذي أقْسَمَ اللهُ بهِ في كتابهِ، قال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج: ٣].

ومنها: أنَّهُ رُوِيَ أنَّهُ أفضلُ الأيَّام. خَرَّجَهُ ابنُ حِبَّان في «صحيحه» مِن حديثِ جابرٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**أفضلُ الأيَّامِ يومُ عرفة**»[1]. وذَهَبَ إلى ذلكَ طائفةٌ مِن العلماءِ. ومنهُم مَن قالَ: يومُ النَّحرِ أفضلُ الأيَّام لحديث عَبْدِ اللهِ بنِ قُرْطٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قال: «**أعظمُ الأيَّامِ عندَ اللهِ يومُ النَّحرِ ثمَّ يومُ القرِّ**». خَرَّجَهُ الإمام أحْمَدُ وأبو داودَ والنَّسائِيُّ وابنُ حِبَّانَ في «صحيحه»، ولفظُهُ: «**أفضلُ الأيَّامِ**»[2].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

ومنها: أنَّهُ يومُ مغفرةِ الذُنوبِ والتَّجاوزِ عنها والعتقِ مِن النَّارِ والمباهاةِ بأهلِ الموقفِ كما في «صحيح مسلم»: عن عائشةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**ما مِن يومٍ أكثرَ مِن أنْ يُعْتِقَ اللهُ فيهِ عبيدًا مِن النَّارِ مِن يومِ عرفةَ، وإنَّهُ لَيَدْنو، ثمَّ يُباهي بِهِمُ الملائكة، فيقولُ: ما أرادَ هؤلاءِ؟**»[١].

وفي «المسند» عن: عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إنَّ اللهَ يُباهي ملائكتَهُ عشيَّة عرفةَ بأهلِ عرفة، فيقولُ: انْظُروا إلى عبادي، أَتَوْني شعثًا غبرًا**»[٢].

فمَنْ طَمَع في العتقِ مِن النَّارِ ومغفرةِ ذنوبِهِ في يومِ عرفة، فلْيُحافِظْ على الأسبابِ التي يُرْجى بها العتقُ والمغفرةُ.

فمنها: صيامُ ذلكَ اليومِ. ففي «صحيح مسلم» عن أبي قَتادة، عن النَّبيِّ ﷺ؛ قال: «**صيامُ يومِ عرفةَ؛ أَحْتَسِبُ على اللهِ أنْ يُكَفِّرَ السَّنةَ التي قبلَهُ والتي بعدَهُ**»[٣].

ومنها: حفظُ جوارحِهِ عنِ المحرَّماتِ في ذلكَ اليومِ.

ومنها: الإكثارُ مِن شهادةِ التَّوحيدِ بإخلاصٍ وصدقٍ؛ فإنَّها أصلُ دينِ الإسلامِ الذي أكْمَلَهُ اللهُ في ذلكَ اليومِ وأساسُهُ.

وفي «المسند»: عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو؛ قال: كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبيِّ ﷺ يومَ عرفةَ: «**لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ، ولهُ الحمدُ، بيدِهِ الخيرُ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قدير**».

وخَرَّجَهُ التِّرْمِذيُّ، ولفظُهُ: «**خيرُ الدُّعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ، وخيرُ ما قُلْتُ أنا والنَّبيُّونَ مِن قبلي: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ،**

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٧٠٨٩)، وقال المنذري: إسناد أحمد لا بأس به.

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢).

وهوَ على كلِّ شيءٍ قدير»(١).

فتحقيقُ كلمةِ التَّوحيدِ يوجِبُ العتقَ مِن النَّارِ؛ فإنَّها تَعْدِلُ عتقَ الرِّقابِ، وعتقُ الرِّقابِ يوجِبُ العتقَ مِن النَّار:

كما ثَبَتَ في الصَّحيح أنَّ مَن قالَها مئةَ مرَّةٍ؛ كانَتْ لهُ عدلَ عشرِ رقابٍ.

وثَبَتَ أيضًا أنَّ مَنْ قالَها عشرَ مرَّاتٍ؛ كانَ كَمَن أعتَقَ أربعةً مِن ولدِ إسْماعيلَ(٢).

ومنها: كثرةُ الدُّعاءِ بالمغفرةِ والعتقِ؛ فإنَّهُ يُرْجى إجابةُ الدُّعاءِ فيهِ.

* * *

يا مَنْ يَطْمَعُ في العتقِ مِن النَّار ثُمَّ يَمْنَعُ نفسَهُ الرَّحمةَ بالإصرارِ على كبائرِ الإثمِ والأوزار! تاللهِ؛ ما نَصَحْتَ نفسَك، ولا وَقَفَ في طريقِكَ غيرُك. توبِقُ نفسَكَ بالمعاصي، فإذا حُرِمْتَ المغفرةَ؛ قُلْتَ أنَّى هذا؟ قُلْ هوَ مِن عندِ أنفسِكُمْ.

فَنَفسَكَ لُمْ وَلا تَلُمِ المَطايا وَمُتْ كَمَدًا فَلَيْسَ لَكَ اعتِذارُ

إنْ كُنْتَ تَطْمَعُ في العتقِ؛ فاشْتَرِ نفسَكَ مِن اللهِ، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

مَن كَرُمَتْ عليهِ نفسُهُ؛ هانَ عليهِ كلُّ ما يَبْذُلُ في افتكاكِها مِن النَّارِ.

اشْتَرى بعضُ السَّلفِ نفسَهُ مِن اللهِ ثلاثَ مرار أو أربعًا؛ يَتَصَدَّقُ كلَّ مَرةٍ بوزنِ نفسِهِ فضَّةً.

واشْتَرى عامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ نفسَهُ مِن اللهِ بديتِهِ ستّ مرَّاتٍ يَتَصَدَّقُ بها(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٦٠)، والترمذي (٣٥٨٥)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله موثَّقون.

(٢) أخرجهما البخاري (٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١).

(٣) الدِّية: هي المال الذي يُعطاه وليُّ المقتول.

واشْتَرَى حبيب العَجَمِيُّ نفسَهُ مِن اللهِ بأربعينَ ألف درهمٍ تَصَدَّقَ بها.

وكانَ أبو هُرَيْرَةَ يُسبِّحُ كلَّ يومٍ اثنتي عشرَ ألف تسبيحةٍ بقدرِ ديتِهِ يَفْتَكُّ بذلكَ نفسَهُ.

كانَتْ أحوالُ الصَّادقينَ في المواقِف بعرفةَ تَتَنَوَّعُ:

فمنهُم مَن كانَ يَغْلِبُ عليهِ الخوفُ أوِ الحياءُ:

وَقَفَ مُطَرِّفُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ الشخِّير وبَكْر المُزَنِيُّ بعرفةَ، فقالَ أحدُهُما: اللَّهُمَّ! لا تَرُدَّ أهلَ الموقفِ مِن أجلي. وقالَ الآخرُ: ما أشْرَفَهُ مِن موقفٍ وأرجاهُ لأهلِهِ لولا أنِّي فيهِم!

وَقَف الفضَيْلُ بعرفة والنَّاسُ يَدْعونَ وهوَ يَبْكي بكاءَ الثَّكلى المحترقةِ قد حالَ البكاءُ بينَهُ وبينَ الدُّعاءِ، فلمَّا كادَتِ الشَّمسُ أنْ تَغْرُبَ؛ رَفَعَ رأْسَهُ إلى السَّماءِ وقالَ: وا سوأتاهُ منكَ وإنْ عَفَوْتَ!

وَقَفَ بعضُ الخائفينَ بعرفةَ إلى أن قَرُبَ غروبُ الشَّمسِ، فنادى: الأمانَ الأمانَ! قد دَنا الانصرافُ، فلَيْتَ شعري ما صَنَعْتَ في حاجةِ المساكين!

وَإِنِّـيَ مِـنْ خَـوْفِـكُـمْ وَالـرَّجـا ... أرى المَوْتَ وَالعَيْشَ فيكُم عِيانا
فَـمُـنُّـوا عـلـى تـائِـبٍ خـائِـفٍ ... أتـاكُـمْ يُـنـادي الأمـانَ الأمـانـا

إذا طَلَب الأسيرُ الأمانَ مِن الملكِ الكريمِ؛ أمَّنَهُ.

الأمـانَ الأمـانَ وِزْري ثَـقـيـلُ ... وَذُنـوبـي إذا عُـدِدْنَ تَـطـولُ
أوْبَـقَـتْـنـي وَأوْثَـقَـنـي ذُنـوبـي ... فترى لي إلى الـخَلاصِ سَبيلُ؟

ومِن العارفينَ مَن كانَ في الموقفِ يَتَعَلَّقُ بأذيالِ الرَّجاءِ:

قالَ ابنُ المُبارَكِ: جِئْتُ إلى سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ عشيَةَ عرفةَ، وهوَ جاثٍ على ركبتيهِ، وعيناهُ تَهْمُلانِ، فالْتَفَتَ إليَّ، فقُلْتُ لهُ: مَن أسْوأُ هذا الجمعِ حالًا؟ قالَ: الذي يَظُنُّ اللهَ لا يَغْفِر لهُم.

ورُوِيَ عنِ الفضَيْلِ أنَّهُ نَظَرَ إلى نشيجِ النَّاسِ وبكائِهِم عشيَّةَ عرفةَ، فقالَ:

أرَأيْتُمْ لو أنَّ هؤلاءِ صاروا إلى رجلٍ فسَألوهُ دانقًا (يَعْني: سدسَ درهمٍ)، أكانَ يَرُدُّهُم؟ قالوا: لا، قالَ: واللهِ؛ للمغفرةُ عندَ اللهِ أهونُ مِن إجابةِ رجلٍ لهُم بدانقٍ.

وَإنِّـي لأدْعـو الـلَّـهَ أسْـألُ عَـفْـوَهُ   وأعـلَـمُ أنَّ الـلَّـهَ يَـعْـفـو وَيَـغْـفِـرُ
لَئِنْ أعْظَمَ النَّاسُ الذُّنوبَ فَإنَّها   وإن عَظُمَتْ في رَحْمَةِ اللَّهِ تَصْغُرُ

وعمَّا قليلٍ يَقِفُ إخوانُكُم بعرفةَ في ذلكَ الموقفِ، فهنيئًا لمَن رُزِقَهُ، يَجْأرونَ إلى اللهِ بقلوبٍ محترقةٍ ودموعٍ مستبقةٍ، فكم فيهِم مِن خائفٍ أزْعَجَهُ الخوفُ وأقْلَقَه، ومحبٍّ ألْهَبَهُ الشَّوقُ وأحْرَقَه، وراج أحْسَنَ الظَّنَّ بوعدِ اللهِ الكريم وصَدَّقَه، وتائبٍ نَصَح للهِ في التَّوبةِ وصَدَقه، وهاربٍ لَجَأ إلى بابِ اللهِ وطَرَقَه، فكم هنالِكَ مِن مستوجبٍ للنَّار أنْقَذَهُ وأعْتَقَه، ومِن أسير للأوزارِ فَكَّهُ وأطْلَقَه. وحينئذٍ يَطَّلعُ عليهِم أرْحَمُ الرُّحماء، ويُباهي بجمعِهِم أهلَ السَّماء، ويدْنو ثمَّ يَقولُ: ما أرادَ هؤلاء؟.

مَن فاتَهُ في هذا العامِ القيامُ بعرفة؛ فليَقُمْ للهِ بحقِّهِ الذي عَرَفَه.

مَن عَجَزَ عنِ المبيتِ بمزدلفة؛ فَلْيَبُتَّ عزمَهُ على طاعةِ اللهِ وقد قَرَّبَهُ اللهُ وأزْلَفَه.

مَنْ لم يُمْكِنْهُ القيامُ بأرجاءِ الخَيْفِ؛ فلْيَقُمْ للهِ بحقّ الرَّجاءِ والخوف.

مَنْ لم يَقْدِر على نحرِ هديِهِ بمنى؛ فلْيَذْبَح هواهُ هنا وقد بَلَغَ المنى.

مَنْ لَمْ يَصِلْ إلى البيتِ لأنَّهُ منه بعيد؛ فليقصِدْ ربَّ البيتِ؛ فإنَّهُ أقربُ إلى مَنْ نَادَاهُ ورَجاهُ مِن حبلِ الوريد.

نَفَحَتْ في هذهِ الأيَّامِ نفحةٌ من نفحاتِ الأُنسِ مِنْ رياضِ القدسِ على كلِّ قلبٍ أجابَ إلى ما دُعِي.

يا هممَ العارفينَ! بغيرِ اللهِ لا تَقْنَعي.

يا عزائمَ النَّاسكينَ! لجميعِ أنْساكِ السَّالكينَ اجمعي، لحبِّ مولاكِ أفْرِدي وبينَ خوفِهِ ورجائِهِ اقْرُني وبذكرِهِ تَمَتَّعي.

يا أسرارَ المحبِّينَ! بكعبةِ الحبِّ طوفي وارْكَعي، وبينَ صفاءِ الصَّفا ومروةِ المروةِ اسْعَي وأسْرِعي، وفي عرفاتِ العرفانِ قِفِي وتَضَرَّعي، ثمَّ إلى مزدلفةِ الزُّلْفى فادْفَعي، ثمَّ إلى منى نيلِ المنى فارْجعي. فإذا قَرَّبوا القرابينَ فقَرِّبي الأرواحَ ولا تَمْنَعي. لقد وَضَحَ اليومَ الطريقُ ولكنْ قَلَّ السَّالكُ على التَّحقيقِ وكَثُرَ المدَّعي.

لَئِنْ لَمْ أَحُجَّ البَيْتَ إذْ شَطَّ رَبْعُهُ ... حَجَجْتُ إلى مَنْ لا يَغيبُ عَنِ الذِّكْرِ
فَأَحْرَمْتُ مِنْ وَقْتي بِخلْعِ شَمائِلي ... أطوفُ وَأَسْعَى في اللّطائِفِ وَالبِرِّ
صَفايَ صَفائي عَنْ صِفاتي ومَرْوَتي ... مُروءَةُ قَلْبٍ عَنْ سِوى حُبِّهِ قَفْرِ
وَفي عَرَفاتِ الأُنْسِ بِاللهِ مَوْقِفي ... وَمُزْدَلِفي الزُّلْفى لَدَيْهِ إلى الحَشْرِ
وَبَتُّ المُنى مِنِّي مَبيتِيَ في مِنى ... وَرَمْيُ جِماري جَمْرُ شَوْقِيَ في صَدْري
وَإشْعارُ هَدْيي ذَبحُ نَفْسي بِقَهْرِها ... وَحَلْقي بِمَحْقِ الكائِناتِ عنِ الشَّرِّ
وَمَنْ رامَ نَفْرًا بَعْدَ نُسْكٍ فَإنَّني ... مُقيمٌ عَلى نُسْكِي حَياتي بلا نَفْرِ

❁ ❁ ❁



المجلس الثالث

في أيام التشريق

خَرَّجَ مُسْلِمٌ في «صحيحه» مِن حديثِ: نُبَيْشَةَ الهُذَلِيِّ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أيَّامُ مِنَى أيَّامُ أكل وشربٍ وذِكْرِ اللهِ ﷻ»[١].

وخَرَّجَهُ أهلُ السُّننِ والمسانيدِ مِن طرقٍ متعدِّدةٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ:

وفي روايةٍ للدَّارَقُطْنِيِّ بإسنادٍ فيهِ ضعفٌ: «أيَّامُ أكلٍ وشربٍ وبعالٍ»[٢].

أيَّامُ مِنَى هيَ الأيَّامُ المعدوداتُ التي قالَ اللهُ تَعالى فيها: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وهي ثلاثةُ أيَّامٍ بعدَ يومِ النَّحرِ وهيَ أيامُ التَّشريق. هذا قولُ ابنِ عُمَرَ وأكثرِ العلماءِ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ وعَطاءٍ أنَّها أربعةُ أيَّامٍ: يومُ النَّحرِ، وثلاثةُ أيَّامٍ بعدَهُ، وسَمَّاها عَطاءٌ أيَّامَ التَّشريقِ، والأوَّل أظْهَرُ.

وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أيَّامُ منى ثلاثةٌ، فمَن تَعَجَّلَ في يومينِ فلا إثمَ عليهِ ومَنْ تَأخَّرَ فلا إثمَ عليهِ**». خَرَّجَهُ أهلُ السُّننِ الأربعةِ مِن حديث عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ يَعْمَرَ عنِ النَّبيِّ ﷺ. وهذا صريحٌ في أنَّها أيَّامُ التَّشريقِ[٣].

وأفضلُها أوَّلُها، وهوَ يومُ القرِّ؛ لأنَّ أهلَ منى يَسْتَقِرُّونَ فيهِ ولا يَجوزُ فيهِ النَّفرُ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١١٤١).

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/٢٠٧)، والبِعال هو الجِماع.

(٣) سُمِّيَتْ أيام التشريق بذلك؛ لأنَّ الناس كانوا يُقدِّدون اللحم ويجفِّفونه وينشرونه لتُشرق عليه الشمس، وهو نوع من أنواع حفظ اللحم، وقيل غير ذلك.

(٤) أي: لا يجوز فيه الخروج من منى لأداء طواف الوداع.

وفي حديثِ: عَبْدِ اللهِ بنِ قُرْطٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: **«أعظمُ الأيَّامِ عندَ اللهِ يومُ النَّحرِ ويومُ القرّ»**(١).

ثمَّ يومُ النَّفرِ الأوَّلِ وهوَ أوسطُها.

ثمَّ يومُ النَّفرِ الثَّاني وهوَ آخرُها.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] قالَ كثيرٌ من السَّلفِ: يُريدُ أنَّ المتعجِّلَ والمتأخِّرَ يُغْفَرُ لهُ ويَذْهَبُ عنهُ الإثمُ الذي كانَ عليهِ قبلَ حجِّهِ إذا حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ ويَرْجِعُ مِن ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتهُ أُمّهُ. ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فتكونُ التَّقوى شرطًا لذهابِ الإثمِ على هذا التقديرِ، وتَصيرُ الآيةُ دالّةً على ما صَرّح بهِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: **«مَن حَجَّ فلمْ يَرْفُث ولمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِن ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتهُ أمّهُ»**.

وقد أمَرَ اللهُ تَعالى بذكرِهِ في هذهِ الأيَّامِ المعدوداتِ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: **«إنَّها أيَّامُ أكلٍ وشربٍ وذكرِ اللهِ تَعالى»**(٢).

فذكرُ اللهِ المأمورُ بِهِ في أيَّامِ التَّشريقِ أنواعٌ متعددةٌ:

منها: ذكرُ اللهِ تعالى عقيبَ الصَّلواتِ المكتوباتِ بالتَّكبير في أدبارها. وهوَ مشروعٌ إلى آخر أيَّام التَّشريقِ عندَ جمهورِ العلماءِ.

ومنها: ذكرُهُ بالتَّسميةِ والتَّكبيرِ عندَ ذبحِ النُسكِ؛ فإنَّ وقتَ ذبح الهدايا والأضاحي يَمْتَدُّ إلى آخرِ أيَّامِ التَّشريقِ عندَ جماعةٍ مِن العلماء.

ومنها: ذكرُ اللهِ على الأكلِ والشُّربِ؛ فإنَّ المشروعَ في الأكلِ والشُّربِ أنْ يُسَمِّيَ اللهَ في أوَّلِهِ ويَحْمَدَهُ في آخرِهِ. وفي الحديث عنِ النَّبيِّ ﷺ: **«إنَّ اللهَ ﷻ يَرْضى عنِ العبدِ أنْ يأكُلَ الأكلةَ فيَحْمَدَهُ عليها ويشْرَبَ الشَّربةَ**

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه، وهو في صحيح مسلم.

فيحْمَدَهُ عليها»[١].

ومنها: ذكرُهُ بالتَّكبيرِ عندَ رميِ الجمارِ في أيَّامِ التَّشريقِ. وهذا يَخْتَصُّ بهِ أهلُ الموسمِ[٢].

ومنها: ذكرُ اللهِ تَعالى المطلقُ؛ فإنَّهُ يُسْتَحَبُّ الإكثارُ منهُ في أيَّامِ التَّشريقِ، وقد كانَ عُمَرُ يُكَبِّرُ بمنى في قبَّتِهِ[٣] فيَسْمَعُهُ النَّاسُ فيُكَبِّرونَ فَترتَجُّ منى تكبيرًا. وقد قالَ عَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠، ٢٠١]. وقدِ اسْتَحَبَّ كثيرٌ مِن السَّلفِ الدُّعاءَ بهذا في أيَّامِ التَّشريقِ.

قالَ عكْرِمَةُ: كانَ يُسْتَحَبُّ أنْ يُقالَ في أيَّامِ التَّشريقِ: رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النَّار.

وعن عطاءٍ؛ قالَ: يَنْبَغي لكلِّ مَنْ نَفَرَ أنْ يَقولَ حينَ يَنْفِرُ متوجِّهًا إلى أهلِهِ: رَبَّنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النَّارِ.

وهذا الدعاءُ مِن أجمعِ الأدعيةِ للخير، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ منه، ورُوِي أنَّهُ كانَ أكثرَ دعائِهِ، وكانَ ﷺ إذا دَعا بدعاءٍ جَعَلَهُ معَهُ[٤]؛ فإنَّهُ يَجْمَعُ خيري الدُّنيا والآخرةِ.

قالَ الحَسَنُ: الحسنةُ في الدُّنيا العلمُ والعبادةُ وفي الآخرةِ الجنَّة.

وقالَ سُفْيانُ: الحسنةُ في الدُّنيا العلمُ والرزقُ الطَّيِّبُ.

وفي الأمرِ بِالذِّكرِ عندَ انقضاءِ النُّسكِ معنًى، وهوَ أنَّ سائرَ العباداتِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤). (٢) يعني: الحُجَّاج.
(٣) أي: في خيمته.
(٤) روى ذلك البخاري (٤٥٢٢)، ومسلم (٢٦٩٠).

تَنْقَضي ويُفْرَغُ منها وذكرُ اللهِ باقٍ لا يَنْقَضي ولا يُفْرَغُ منه بل هوَ مستمرٌّ للمؤمنينَ في الدُّنيا وفي الآخرةِ.

وقد أمرَ اللهُ تَعالى بذكرِهِ عندَ انقضاءِ الصَّلاةِ: قالَ تَعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. وقالَ في صلاة الجمعةِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]. وقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨].

والأعمالُ كلُّها يُفْرَغُ منها، والذّكرُ لا فراغَ لهُ ولا انقضاءَ، والأعمالُ تَنْقَطعُ بانقطاعِ الدُّنيا ولا يَبْقى منها شيءٌ في الآخرة، والذِّكرُ لا يَنْقَطعُ. المؤمنُ يعيشُ على الذِّكرِ، ويَموتُ عليهِ، وعليهِ يُبْعَثُ.

فأيَّامُ التَّشريق يَجْتَمعُ فيها للمؤمنينَ نعيمُ أبدانِهم بالأكلِ والشُّربِ، ونعيمُ قلوبِهِم بالذِّكرِ والشُّكرِ، وبذلكَ تَتِمُّ النعمةُ، وكلَّما أَحْدَثوا شكرًا على النِّعمةِ؛ كانَ شكرُهُم نعمةً أُخرى، فيَحْتاجُ إلى شكرٍ آخرَ، ولا يَنْتهي الشُّكْرُ أبدًا.

إذا كانَ شُكْري نِعْمَة اللَّهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ في مِثْلِها يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلوغُ الشُّكْرِ إلّا بِفَضلِهِ ... وَإنْ طالَتِ الأيّامُ واتَّصَلَ العُمْرُ

وفي قولِ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّها أيَّامُ أكلٍ وشربٍ وذكرِ اللهِ ﷻ**» إشارة إلى أنَّ الأكلَ في أيَّامِ الأعيادِ والشُّربَ إنَّما يُسْتَعانُ بهِ على ذكرِ اللهِ وطاعتِهِ، وذلكَ مِن تمامِ شكرِ النِّعمةِ أنْ يُسْتَعانَ بها على الطَّاعاتِ.

وقد أمرَ اللهُ في كتابِهِ بالأكلِ مِن الطَّيِّباتِ والشُّكرِ لهُ، فمَنِ استْعانَ بنعمِ اللهِ على معاصيهِ؛ فقد كَفَرَ نعمةَ اللهِ وبَدَّلَها كفرًا، وهوَ جديرٌ أنْ يُسْلَبَها، كما قيلَ:

إذا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فَارْعَها ... فَإنَّ المَعاصي تُزيلُ النِّعَمْ
وَداوِمْ عَلَيْها بِشُكْرِ الإلهِ ... فَشُكْرُ الإلهِ يُزيلُ النِّقَمْ

وخصوصًا نعمةَ الأكلِ مِنْ لحومِ بهيمةِ الأنعام، كما في أيَّامِ التَّشريقِ؛ فإنَّ هذهِ البهائمَ مطيعةٌ للهِ لا تَعْصيهِ، وهيَ مسبِّحةٌ لهُ قانتةٌ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وإنَّها تَسْجُدُ لهُ، كما أخْبَرَ اللهُ بذلكَ في سورةِ النَّحلِ وسورة الحجِّ. وربَّما كانَتْ أكثرَ ذكرًا للهِ مِن بعضِ بني آدَمَ. وفي «المسند» مرفوعًا: «**رُبَّ بهيمةٍ خيرٌ مِن راكبِها وأكثرُ للهِ منهُ ذكرًا**»[1]. وقد أخْبَرَ اللهُ في كتابِهِ أنَّ كثيرًا مِن الجنِ والإنسِ كالأنعامِ بل هم أضلُّ سبيلًا.

فأباحَ اللهُ تَعالى ذبحَ هذه البهائمِ المطيعةِ الذَّاكرةِ لهُ لعبادِهِ المؤمنينَ حتَّى تَتقوَّى بها أبدانُهُم وتَكْمُلَ لذَّاتُهُم في أكلِهِمُ اللحومَ؛ فإنَّها مِن أجلِّ الأغذيةِ وألذِّها، معَ أنَّ الأبدانَ تقومُ بغيرِ اللحمِ مِن النَّباتاتِ وغيرِها، لكنْ لا تَكْمُلُ القوَّةُ والعقلُ واللذَّةُ إلَّا باللحم، فأباحَ للمؤمنينَ قتلَ هذه البهائمِ والأكلَ مِن لحومِها، لِيُكْمِلَ بذلكَ قوَّةَ عبادِهِ وعقولَهُم، فيَكونَ ذلكَ عونًا لهُم على علومٍ نافعةٍ وأعمالٍ صالحةٍ يَمْتازُ بها بنو آدَمَ على البهائمِ، وعلى ذكرِ اللهِ ﷻ وهوَ أكبرُ مِن ذكرِ البهائمِ، فلا يَليقُ بالمؤمنِ معَ هذا إلَّا مقابلة هذه النِّعَم بالشكر والاستعانة بها على طاعة الله وذِكره حيث فضَّل ابن آدَمَ على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ وسَخَّرَ لهُ هذه الحيواناتِ. قالَ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وفي النَّهيِ عن صيامِ هذهِ الأيامِ والأمرِ بالأكلِ فيها والشُّربِ سرٌّ حسنٌ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالى لمَّا عَلِمَ ما يُلاقي الوافدون إلى بيتِهِ مِن مشاقِّ السَّفرِ وتعبِ الإحرامِ وجهادِ النُّفوسِ على قضاءِ المناسكِ؛ شَرَعَ لهُمُ الاستراحةَ عقيبَ ذلكَ بالإقامةِ بمنى يومَ النَّحرِ وثلاثةَ أيامِ التَّشريقِ بعدَهُ، وأمَرَهُم بالأكلِ فيها مِن لحومِ نسكِهِم، فهُم في ضيافةِ اللهِ ﷻ فيها؛ لطفًا مِن اللهِ بهِم ورأفةً ورحمةً.

(١) أخرجه أحمد (١٥٦٢٩)، قال الهيثمي: إسناده حسن.

وشارَكَهُم أيضًا أهلُ الأمصارِ في ذلكَ؛ لأنَّ أهلَ الأمصارِ شارَكوهُم في النَّصبِ للهِ والاجتهادِ في عشرِ ذي الحجَّةِ بالصَّومِ والذِّكرِ والاجتهادِ في العباداتِ، وشارَكوهُم في حصولِ المغفرةِ وفي التَّقرُّبِ إلى اللهِ تَعالى بإراقةِ دماء الأضاحي، فشارَكوهُم في أعيادِهِم، واشْتَرَكَ الجميعُ في الرَّاحةِ في أيَّامِ الأعيادِ بالأكلِ والشّربِ كما اشْتَرَكوا جميعًا في أيَّامِ العشرِ في الاجتهادِ في الطَّاعةِ والنَّصبِ، وصارَ المسلمونَ كلُّهُم في ضيافةِ اللهِ تعالى في هذه الأيامِ، يَأْكُلونَ مِن رزقِهِ ويَشْكُرونَهُ على فضلِهِ. ونُهُوا عن صيامِها؛ لأنَّ الكريمَ لا يَليقُ بهِ أنْ يُجيعَ أضيافَهُ، فكأنَّهُ قيلَ للمؤمنين في هذه الأيَّامِ: قد فَرَغَ عملُكُمُ الذي عَمِلْتُموهُ، فما بَقِيَ لكُم إلّا الرَّاحةُ، فهذهِ الرَّاحةُ بذلكَ التَّعبِ، كما أُريحَ الصَّائمونَ للهِ شهرَ رمضانَ بأمرِهِم بإفطارِ يومِ عيدِ الفطرِ.

ويُؤخَذ مِن هذا الإشارة إلى حالِ المؤمنِ في الدُّنيا؛ فإنَّ الدُّنيا كلَّها أيَّامُ سفرٍ كأيَّامِ الحجِّ، وهيَ زمانُ إحرامِ المؤمنينَ عمَّا حَرَّمَ اللهُ عليهِم مِن الشَّهواتِ، فمَن صَبَرَ في مدَّةِ سفرِهِ على إحرامِهِ وكَفَّ عن الهوى، فإذا انتهى سفرُ عمرِهِ ووَصَلَ إلى مِنى المُنى فقد قضى تفثَهُ ووَفَّى نذرَهُ، فصارَتْ أيَّامُهُ كلُّها كأيَّامِ منى أيَّامَ أكلٍ وشربٍ وذكرِ الله ﷻ، وصارَ في ضيافة اللهِ في جوارِهِ أبدَ الأبدِ. ولهذا يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]. وقد قيلَ: إنَّها نَزلَتْ في الصُّوَّامِ في الدُّنيا.

مَنْ صامَ اليومَ عن شهواتِه؛ أفْطَرَ عليها غدًا بعدَ وفاتِه، ومَنْ تَعجَّلَ ما حُرِّمَ عليهِ مِن لذَّاتِهِ؛ عوقِبَ بحرمانِ نصيبِهِ مِن الجنَّةِ وفواتِه. شاهدُ ذلك: «مَن شَرِبَ الخمرَ في الدُّنيا لم يَشْرَبْها في الآخرةِ»، و«ومَنْ لَبِسَ الحريرَ في الدُّنيا لَمْ يَلْبَسْهُ في الآخرةِ»[١].

(١) أخرجهما البخاري (٥٨٣٠)، ومسلم (٢٠٦٩).

الجنَّة ضيافةُ اللهِ أعَدَّها لعبادِهِ المؤمنينَ نزلًا، فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ. وبُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدْعو إليها بالإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، فمَن أجابَهُ؛ دَخَلَ الجنَّةَ وأكَلَ مِن تلكَ الضِّيافةِ، ومَن لمْ يُجِبْ؛ حُرِمَ.

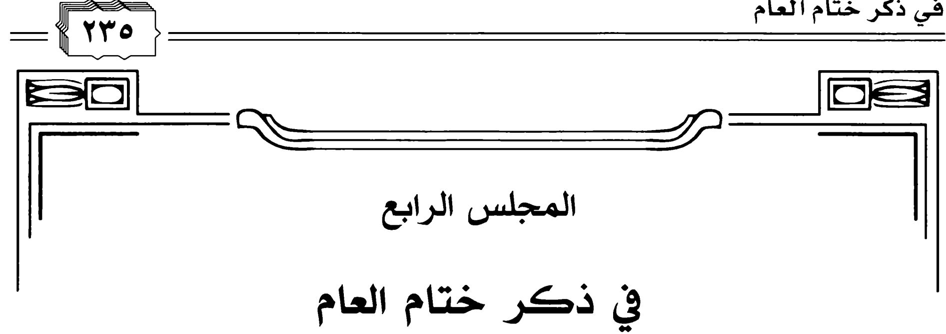
خَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ عن جابرٍ؛ قالَ: خَرَجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا، فقالَ: «**رَأيتُ في المنامِ كأنَّ جِبْريلَ عندَ رأسي وميكائيلَ عندَ رجليَّ**. فقالَ أحدُهُما لصاحبِهِ: اضْرِبْ لهُ مثلًا. فقال: اسْمَعْ سَمِعَت أُذُنُكَ واعْقِلْ عَقَلَ قلبُكَ. إنَّما مثلُكَ ومثلُ أُمَّتِكَ كمثلِ ملكٍ اتَّخذَ دارًا، ثمَّ بَنى فيها بناءً، وجَعَلَ فيها مائدةً، ثمَّ بَعَثَ رسولًا يَدْعو النَّاسَ إلى طعامِهِ، فمنهُم مَن أجابَ الرَّسولَ، ومنهُم مَن تَرَكَهُ. فاللهُ هوَ الملكُ، والدَّارُ هيَ الإسلامُ، والبيتُ الجنَّةُ، وأنتَ يا مُحَمَّدُ رسولٌ، مَن أجابَكَ دَخَلَ الإسلامَ، ومَنْ دَخَلَ الإسلامَ دَخَلَ الجنَّةَ، ومَن دَخَلَ الجنَّةَ أكَلَ ممَّا فيها»[1].

وخَرَّجَهُ البُخارِيُّ بمعناهُ، ولفظُهُ: «مثلُهُ كمثلِ رجلٍ بنى دارًا، وجَعَلَ فيها مأْدبةً، وبَعَثَ داعيًا، فمَن أجابَ الدَّاعيَ دَخَلَ الدَّارَ وأكلَ مِن المأدبةِ، ومَن لمْ يُجِبِ الدَّاعيَ لمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ولمْ يَأْكُل مِن المأدبةِ؛ فالدَّارُ الجنَّةُ، والدَّاعي مُحَمَّدٌ».

فطوبى لمَن أجابَ دعوةَ مولاه، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].



(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٠)، وصحَّحه الحاكم في المستدرك (٢/٣٦٩)، والألباني في صحيح الجامع (١/٤٨٤).



المجلس الرابع

في ذكر ختام العام

خَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ مِن حديثِ جابرٍ، عن النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: **«لا تَتَمَنَّوا الموتَ؛ فإنَّ هولَ المطلعِ شديدٌ، وإنَّ مِن السَّعادةِ أنْ يَطولَ عمرُ العبدِ ويَرْزُقَهُ اللهُ الإنابةَ»**[١].

تمنِّي الموتِ يَقَعُ على وجوهٍ:

منها: تمنِّيه لضرَّ دنيويّ يَنْزِلُ بالعبدِ، فيُنْهى حينئذٍ عن تمنِّي الموتِ.

وفي الصَّحيحين: عن أنس عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ لضرٍّ نَزَلَ بهِ، فإنْ كانَ لا بدَّ فاعلًا؛ فلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ! أحْيِني ما كانَتِ الحياةُ خيرًا لي، وتَوَفَّني إذا كانَت الوفاةُ خيرًا لي»**[٢].

ووجهُ كراهتِه في هذهِ الحالِ أنَّ المتمنِّيَ للموتِ لضرٍّ نَزَلَ بهِ، إنَّما يَتَمَنَّاهُ تعجيلًا للاستراحةِ مِن ضرِّهِ، وهوَ لا يَدْري إلى ما يَصيرُ بعدَ الموتِ، فلَعَلَّهُ يَصيرُ إلى ضرٍّ أعظمَ مِن ضرِّهِ، فيكونُ كالمستجيرِ مِن الرَّمضاءِ بالنَّارِ.

وفي الحديثِ: عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: **«إنَّما يَسْتَريحُ مَن غُفِرَ لهُ»**[٣]. فلهذا لا يَنْبَغي لهُ أنْ يَدْعُوَ بالموتِ إلَّا أنْ يَشْتَرِطَ أنْ يكونَ خيرًا لهُ عندَ اللهِ ﷻ، وكذلكَ كلُّ ما لا يَعْلَمُ العبدُ فيهِ الخيرة لهُ، كالغنى والفقرِ وغيرِهِما، كما يُشْرَعُ لهُ استخارةُ اللهِ فيما يُريدُ أنْ يَعْمَلَهُ ممَّا لا يَعْلَمُ وجهَ الخيرةِ فيه، وإنَّما

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٦٤) وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٧١٣)، وحسَّنه بعض أهل العلم.

يُسألُ اللهُ على وجهِ الجزمِ والقطعِ ما يُعْلَم أنَّهُ خيرٌ محضٌ، كالمغفرةِ والرَّحمةِ والعفوِ والعافيةِ والهدى والتَّقوى ونحوِ ذلكَ.

ومنها: تمنِّي الموت خوفَ الفتنةِ في الدِّينِ، فيَجوزُ حينئذٍ، وقد تَمَنَّاهُ ودَعا بهِ خشيةَ الفتنةِ في الدِّينِ خلقٌ مِن الصَّحابةِ وأئمَّةِ الإسلامِ. وفي الحديثِ: «**وإذا أَرَدْتَ بقومٍ فتنةً؛ فاقْبِضْني إليكَ غيرَ مفتونٍ**»(١).

ومنها: تمنِّي الموتِ عندَ حضورِ أسبابِ الشَّهادةِ اغتنامًا لحصولِها، فيَجوزُ ذلكَ أيضًا. وسؤالُ الصَّحابةِ الشَّهادةَ وتعرُّضُهُم لها عندَ حضورِ الجهادِ كثيرٌ مشهورٌ، وكذلكَ سؤالُ معاذٍ لنفسِهِ وأهلِ بيتِهِ الطَّاعونَ لمَّا وَقَعَ بالشَّامِ.

وقد عُلّلَ النَّهيُ عن تمنِّي الموتِ في حديثِ جابرٍ بعلَّتينِ:

إحداهما: أنَّ هولَ المطلعِ شديدٌ، وهولُ المطلعِ هوَ ما يُكْشَفُ للميِّتِ عندَ حضورِ الموتِ مِن الأهوالِ التي لا عهدَ لهُ بشيءٍ منها في الدُّنيا مِن رؤيةِ الملائكةِ ورؤيةِ أعمالِهِ مِن خيرٍ أو شرّ وما يُبَشَّرُ بهِ عندَ ذلكَ مِن الجنَّةِ والنَّارِ، هذا مع ما يَلْقاهُ مِن شدَّةِ الموتِ وكربِهِ وغصصِهِ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إذا حُمِلَتِ الجنازةُ وكانَتْ صالحةً؛ قالَتْ: قَدِّموني قَدِّموني، وإنْ كانَتْ غيرَ ذلك؛ قالَتْ: يا ويلَها! أينَ تَذْهَبونَ بها؟ يَسْمَعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلَّا الإنسانَ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لَصَعِقَ»(٢).

والعلَّة الثانيةُ: أنَّ المؤمنَ لا يَزيدُهُ عمرُهُ إلّا خيرًا، فمِن سعادتِه أنْ يَطولَ عمرُهُ ويَرْزقَهُ اللهُ الإنابةَ إليهِ والتَّوبَةَ مِن ذنوبِهِ السَّالفة والاجتهادَ في العملِ الصَّالحِ، فإذا تَمَنَّى الموتَ؛ فقد تَمَنَّى انقطاعَ عملِهِ الصَّالح، فلا يَنْبَغي له ذلكَ.

وقد رُوِيَ هذا المعنى عنِ النَّبيِّ ﷺ مِن وجوهٍ متعدِّدة:

---

(١) تقدَّم تخريجه. وهو في سنن الترمذي بسند صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٤).

ففي «صحيح البُخاريِّ»: عن أبي هُرَيْرَة، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكُمُ الموتَ: إمَّا محسنًا فلَعَلَّهُ أنْ يَزْدادَ خيرًا، وإمَّا مسيئًا فلَعَلَّهُ أنْ يُسْتَعْتَبَ**»(١).

وفي «صحيح مُسْلِم»: عن أبي هُرَيْرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**لا يَتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ ولا يَدْعُ بهِ مِن قبلِ أنْ يَأْتِيَهُ، إنَّهُ إذا ماتَ أحدُكُمُ انْقَطَعَ عملُهُ، وإنَّهُ لا يَزيدُ المؤمنَ عمرُهُ إلَّا خيرًا**»(٢).

فالمؤمنُ القائمُ بشروطِ الإيمانِ لا يَزْدادُ بطولِ عمرِهِ إلَّا خيرًا، ومَنْ كانَ كذلكَ فالحياةُ خيرٌ لهُ مِن الموتِ.

وفي سنن التِّرْمِذِيّ عنه ﷺ أنَّه سُئِلَ: أيُّ الناس خير؟ قال: «**مَن طالَ عمره وحسُن عمله**»(٣).

وفي دعاءِ النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ! اجْعَلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خيرٍ، والموتَ راحةً لي مِن كلِّ شرٍّ**». خَرَّجَهُ مسلمٌ(٤).

ولهذا كانَ السَّلفُ الصَّالحونَ يَتَأَسَّفونَ عندَ موتِهِم على انقطاعِ أعمالِهِم عنهُم بالموتِ.

بكَى مُعاذٌ رضي الله عنه عندَ موتِهِ وقالَ: إنَّما أبْكي على ظَمَأ الهواجرِ وقيامِ ليلِ الشِّتاءِ ومزاحمةِ العلماءِ بالرُّكبِ عندَ حلقِ الذِّكرِ.

وبَكَى عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ الأسْوَدِ عندَ موتِهِ وقالَ: وا أسفاهُ على الصَّومِ والصَّلاةِ! ولم يَزَلْ يَتْلو القرآنَ حتَّى ماتَ.

وبَكى يَزيد الرَّقاشِيُّ عندَ موتِهِ وقالَ: أبْكي على ما يَفوتُني مِن قيامِ الليلِ وصيامِ النَّهارِ. ثمَّ بكى وقالَ: مَنْ يُصَلِّي لكَ يا يَزيدُ بعدَكَ؟ ومَن يَصومُ؟ ومَنْ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣). (٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٠١١)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٢٠).

يَتَقَرَّبُ لكَ بالأعمالِ الصَّالحةِ؟ ومَن يَتوبُ لكَ مِن الذُّنوبِ السَّالفة؟

وجَزِعَ بعضُهُم عندَ موتِهِ وقالَ: إنَّما أبْكي على أنْ يَصومَ الصَّائمونَ للهِ ولَسْتُ فيهِم ويُصَلِّيَ المصلُّونَ ولَسْتُ فيهِم ويَذْكُرَ الذَّاكرونَ ولَسْتُ فيهِم، فذلكَ الذي أبكاني.

إذا كانَ المحسنُ يَنْدَمُ على تركِ الزِّيادةِ؛ فكيفَ يَكونُ حالُ المسيءِ؟!

الموتى في قبورِهِم يَتَحَسَّرونَ على زيادةٍ في أعمالِهِم بتسبيحةٍ أو بركعةٍ، ومنهُم مَن يَسْألُ الرَّجعةَ إلى الدُّنيا لذلكَ فلا يَقْدِرون، قد حيلَ بينَهُم وبينَ العملِ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: كلُّ يومٍ يَعيشُ فيهِ المؤمنُ غنيمةٌ.

ما مَضى مِن العمرِ وإنْ طالَتْ أوقاتُهُ فقد ذَهَبَتْ لذَّاتُهُ وبَقِيَتْ تبعاتُه، وكأنَّهُ لم يَكُنْ إذا جاءَ الموتُ وميقاتُهُ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

تلا بعضُ السَّلفِ هذهِ الآيةَ وبَكى وقالَ: إذا جاءَ الموتُ؛ لَمْ يُغْنِ عنِ المرءِ ما كانَ فيهِ مِن اللذَّةِ والنَّعيمِ.

وفي هذا المعنى ما أنشَدَهُ أبو العَتَاهِيَةِ للرَّشيدِ حينَ بَنى قصرَهُ واسْتَدْعى إليهِ ندماءَهُ.

عِشْ ما بَدا لَكَ سالِمًا ... في ظِلِّ شاهِقَةِ القُصورِ
يُسْعى عَلَيْكَ بِما اشْتَهَيْـ ... ـتَ لَدى الرَّواحِ وفي البُكورِ
فَإذا النُّفوسُ تَقَعْقَعَتْ ... في ضيقِ حَشْرَجَةِ الصُّدورِ
فَهُناكَ تَعْلَمُ موقِنًا ... ما كُنْتَ إلّا في غُرورِ

يا أبناءَ العشرينَ! كمْ ماتَ مِن أقرانِكُم وتَخلَّفْتُم.

يا أبناءَ الثَّلاثينَ! أُصِبتُمْ بالشَّبابِ على قربٍ مِن العهدِ فما تأسَّفْتُم.

يا أبناءَ الأربعينَ! ذَهَبَ الصِّبا وأنتُمْ على اللهوِ قد عَكَفْتُم.

يا أبناءَ الخمسينَ! قد تَنَصَّفْتُمُ المئةَ وما أَنْصَفْتُم.

يا أبناءَ السِّتِّينَ! أنتُمْ على معتركِ المنايا قد أَشْرَفْتُم، أَتَلْهُونَ وتلْعَبونَ؟! لقد أسْرَفْتُم!

وَإذا تكامَلَ لِلْفَتى مِنْ عُمْرِهِ خَمْسونَ وَهُوَ إلى التُّقى لا يَجْنَحُ
عَكَفَتْ عَلَيْهِ المُخْزِياتُ فَما لَهُ مُتَأَخَّرٌ عنها ولا مُتَزَحْزَحُ
وإذا رأى الشَّيْطانُ غُرَّة وَجْهِهِ حَيَّا وقالَ فَدَيْتُ مَنْ لا يُفْلِحُ

قال الفُضَيْلُ لرجلٍ: كَمْ أتى عليكَ؟[1] قالَ: ستُّونَ سنةً. قالَ لهُ: أنتَ منذُ ستِّينَ سنةً تَسيرُ إلى ربِّكَ يوشِكُ أنْ تَصِلَ.

وَإنَّ أمْرأً قَدْ سارَ سِتِّينَ حِجَّةً إلى مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَريبُ

يا مَنْ يَفْرَحُ بكثرةِ مرورِ السِّنينَ عليهِ! إنَّما تَفْرَحُ بنقصِ عمرِكَ.

قالَ أبو الدَّرْداءِ والحَسَنُ: إنَّما أنتَ أيَّامٌ، كلَّما مَضى منكَ يومٌ؛ مَضى بعضُكَ. وأَنْشَدَ بعضُهُم:

إنَّا لَنَفْرَحُ بِالأيَّامِ نَقْطَعُها وَكُلُّ يَوْمٍ مَضى يُدْني مِنَ الأجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْتِ مُجْتَهِدًا فإنَّما الرِّبْحُ والخُسْرانُ في العَمَلِ

۞ ۞ ۞

(١) يعني: كم عمرك؟

فصل

وظائف فصول السنة الشمسية



المجلس الأول

في ذكر فصل الربيع

خَرَّجا في الصَّحيحينِ من حديثِ أبي سَعيد الخُدْرِيِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم ما يُخْرِجُ اللهُ لكُم مِن بركاتِ الأرضِ**». قيلَ: ما بركاتُ الأرضِ؟ قالَ: «**زهرةُ الدُّنيا**». **فقالَ لهُ رجلٌ**: «**هل يأتي الخيرُ بالشَّرِّ؟**». **فصَمَتَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُنْزَلُ عليهِ. ثمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عن جبينِهِ. قالَ**: «**أينَ السَّائلُ؟**». قالَ: أنا. قالَ: «**لا يَأتي الخيرُ إلَّا بالخيرِ، إنَّ هذا المالَ خضرةٌ حلوةٌ، وإنَّ مما يُنبت الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ حبطًا أو يُلِمُّ، إلّا آكلةَ الخضرِ، أكَلَتْ، حتَّى إذا امْتَدَّتْ خاصرتاها؛ اسْتَقْبَلَتِ الشَّمس فاجْتَرَّتْ وثَلَطَتْ وبالَتْ، ثمَّ عادَتْ فأكَلَتْ. وإنَّ هذا المالَ خضرةٌ حلوةٌ، مَن أخَذَهُ بحقِّهِ ووَضَعَهُ في حقِّهِ؛ فنِعْمَ المعونةُ هوَ، وإنْ أخَذَهُ بغيرِ حقِّهِ؛ كانَ كالذي يَأكُلُ ولا يَشْبَعُ**»(١).

كانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَخَوَّفُ على أُمَّتِهِ مِن فتحِ الدُّنيا عليهِم، فيَخافُ عليهِمُ الافتتانَ بها.

ففي الصَّحيحين: عن عَمْرِو بنِ عَوْفٍ؛ أنَّ النَّبيّ ﷺ قالَ للأنصارِ لمَّا جاءَهُ مالُ البحرينِ: «**أبْشِروا وأمِّلوا ما يَسُرُّكُم، فواللهِ؛ ما الفقرَ أخْشى عليكُم، ولكنْ أخْشى عليكُم أنْ تُبْسَطَ الدُّنيا عليكُم كما بُسِطَتْ على مَن كانَ قبلَكُم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، فتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهم**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١).

وكانَ آخر خطبةٍ خَطَبَها على المنبرِ حَذَّرَ فيها مِن زهرةِ الدُّنيا. ففي الصَّحيحين: عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ صَعِدَ المنبرَ، فقالَ: «**إنِّي لَسْتُ أخشى عليكُم أنْ تُشْرِكوا بعدي، ولكنِّي أخشى عليكُمُ الدُّنيا أن تنافَسوا فيها فتَقْتَتِلوا فتَهْلِكوا كما هلَكَ مَن كانَ قبلَكُم**». قالَ عُقْبَةُ: فكانَ آخرَ ما رَأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ على المنبرِ[(١)].

وفي «صحيح مسلم»: عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إذا فُتِحَتْ عليكُم خزائنُ فارسَ والرُّومِ؛ أيُّ قوم أنتُم؟**». فقالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوفٍ: نَقولُ كما أمَرَنا اللهُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أو غيرَ ذلكَ! تتنافَسونَ، ثمَّ تَتَحاسَدونَ، ثمَّ تَتَدابَرونَ، ثمَّ تَتَباغَضونَ**»[(٢)].

فقولُهُ ﷺ في حديثِ أبي سعيدٍ: «**إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم ما يُخْرِجُ اللهُ لكُم مِن بركاتِ الأرضِ**»، ثمَّ فسَّرَهُ بزهرةِ الدُّنيا، ومرادُهُ: ما يُفْتَحُ على أُمَّتِهِ منها مِن ملكِ فارسَ والرُّومِ وغيرِهِم مِن الكفَّارِ الذينَ وَرِثَتْ هذهِ الأُمَّةُ ديارَهُم وأموالَهُم وأراضيَهُم التي تَخْرُجُ منها زروعُهُم وثمارُهُم وأنهارُهُم ومعادنُهُم، وغيرُ ذلكَ ممَّا يَخْرُجُ مِن بركاتِ الأرضِ. وهذا مِن أعظمِ المعجزاتِ، وهوَ إخبارُهُ ﷺ بظهورِ أُمَّتِهِ على كنوز فارسَ والرُّومِ وأموالِهِم وديارِهِم، ووقَعَ على ما أخْبَرَ بِهِ.

وقد سَمَّى اللهُ تعالى المال خيرًا في مواضعَ كثيرةٍ مِن القرآنِ: فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨]. وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقالَ عن سُلَيْمانَ: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ [ص: ٣٢].

فلمَّا سَألَهُ السَّائلُ: هل يَأْتي الخيرُ بالشَّرِّ؟ صَمَتَ النَّبيُّ ﷺ حتَّى ظَنُّوا أنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٦)، ومسلم (٢٩٦٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٢٦).

أُوحِيَ إليهِ. والظَّاهرُ أنَّ الأمرَ كانَ كذلكَ، ويَدُلُّ عليهِ أنَّهُ وَرَدَ في روايةٍ لمُسْلِم في هذا الحديثِ: «**فأفاقَ يَمْسَحُ عنهُ الرُّحضاءَ**»، وهوَ العرقُ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ إذا أُوحِيَ إليهِ يَتَحَدّرُ منهُ مثلُ الجُمانِ[1] مِن العرقِ مِن شدَّة الوحيِ وثقلِهِ عليهِ. وفي هذا دليلٌ على أنَّهُ كانَ ﷺ إذا سُئِلَ عن شيءٍ لَمْ يَكُنْ أُوحِيَ إليهِ فيهِ شيءٌ؛ انْتَظَرَ الوحيَ فيهِ، ولمْ يَتَكَلَّمْ فيهِ بشيءٍ حتَّى يُوحى إليهِ فيهِ.

فلمَّا نَزَل عليهِ جوابُ ما سُئِلَ عنهُ؛ قالَ: «**أينَ السَّائلُ؟**». قالَ: ها أنا. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إن الخيرَ لا يَأْتي إلَّا بالخيرِ**».

ثُمَّ ضَرَبَ مثلَ المالِ ومثلَ مَنْ يَأْخُذُهُ بحقهِ ويَصْرِفُهُ في حقِّهِ ومَنْ يَأْخُذُهُ مِن غيرِ حقّه ويَصْرِفُهُ في غيرِ حقّه. فالمالُ في حقّ الأوَّلِ خيرٌ، وفي حقّ الثَّاني شرٌّ. فتَبَيَّنَ بهذا أنَّ المالَ ليسَ بخيرٍ مطلقٍ، بل هوَ خيرٌ مقيَّدٌ: فإنِ استعَانَ بِهِ المؤمنُ على ما يَنْفَعُهُ في آخرتِهِ؛ كان خيرًا لهُ، وإلَّا؛ كانَ شرًّا لهُ.

فأمَّا المالُ؛ فقالَ: إنَّهُ «خضرةٌ حلوةٌ»، وقد وُصِفَ المالُ والدُّنيا بهذا الوصفِ في أحاديثَ كثيرةٍ:

ففي الصَّحيحينِ: عن حَكيم بنِ حِزامٍ؛ أنَّهُ سألَ النبيَّ ﷺ فأعْطاهُ، ثمَّ سألَهُ فأعطاهُ، ثمَّ سَأَلَهُ فأعْطاهُ، ثمَّ سَألهُ فقالَ له ﷺ: «**يا حَكيمُ! إنَّ هذا المالَ خضرةٌ حلوةٌ، فمَن أخَذَهُ بسخاوةِ نفسٍ، بورِكَ لهُ فيهِ، ومَن أخَذَهُ بإشرافِ نفسٍ؛ لمْ يُبارَكْ لهُ فيهِ، وكانَ كالذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ**»[2].

وفي «صحيح مسلِمٍ»: عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، عن النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إنَّ الدُّنيا خضرةٌ حلوةٌ، وإنَّ اللهَ مستخلفُكُم فيها فناظرٌ كيفَ تَعْمَلونَ. فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّسَاءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانَتْ في النِّساءِ**»[3].

---

(١) الجُمان: اللؤلؤ.
(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

واستخلافُهُم فيها هوَ ما أَوْرَثَهُمُ اللهُ منها ممَّا كانَ في أيدي الأمم مِن قبلِهِم كفارِسَ والرُّومِ. وحَذَّرَهُم مِن فتنةِ الدُّنيا وفتنةِ النِّساءِ خصوصًا؛ فإنَّ النساءَ أوَّلُ ما ذَكَرَهُ اللهُ من شهواتِ الدُّنيا ومتاعِها في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

وقولُهُ ﷺ: «**إنَّ ممَّا يُنْبِتُ الرَّبيعُ يَقْتُلُ حَبطًا أو يُلِمُّ؛ إلّا آكلةَ الخضرِ**» مثلٌ آخرُ ضَرَبَهُ ﷺ لزهرةِ الدُّنيا وبهجةِ منظرِها وطيبِ نعيمِها وحلاوتِهِ في النُّفوسِ. فمثلُهُ كمثلِ نباتِ الرَّبيعِ، وهوَ المرعى الأخضرُ الذي يَنْبُتُ في زمانِ الرَّبيعِ؛ فإنَّهُ يُعْجِبُ الدّوابَّ التي تَرْعى فيهِ وتَسْتَطيبُهُ وتُكْثِرُ مِن الأكلِ منهُ أكثرَ مِن قدرِ حاجتِها لاستحلائِها لهُ: فإمَّا أنْ يَقْتُلَها فتَهْلِكَ وتموتَ حَبَطًا ـ والحَبَطُ: انتفاخُ البطنِ مِن كثرةِ الأكلِ ـ أو يُقارِبَ قتلَها ويُلِمَّ بهِ فتَمْرَضَ منهُ مرضًا مخوفًا مقاربًا للموتِ.

فهذا مثلُ مَنْ يَأْخُذُ مِن الدُّنيا بشَرَهٍ وجوعِ نفسٍ مِن حيثُ لاحَتْ لهُ؛ لا بقليلٍ يَقْنَعُ، ولا بكثيرٍ يَشْبَعُ، ولا يُحَلِّلُ ولا يُحَرِّمُ، بل الحلالُ عندَهُ ما حَلَّ بيدِهِ وقَدر عليهِ، والحرامُ عندَهُ ما مُنِعَ منهُ وعَجَز عنهُ.

فهذا هوَ المتخوّضُ في مالِ الله ورسولِهِ فيما شاءَتْ نفسُهُ وليسَ لهُ إلَّا النَّارُ يومَ القيامةِ.

والمرادُ بمالِ اللهِ ومالِ رسولِهِ: الأموالُ التي يَجِبُ على ولاةِ الأُمورِ حفظُها وصرفُها في طاعةِ اللهِ ورسولِهِ مِن أموالِ الفيءِ والغنائمِ، ويَتْبَعُ ذلكَ مالُ الخراجِ والجزيةِ، وكذلكَ أموالُ الصَّدقاتِ التي تُصْرَفُ للفقراءِ والمساكينِ كمالِ الزَّكاةِ والوقفِ ونحوِ ذلكَ.

وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ مَن تَخَوّضَ مِن الدُّنيا في الأموالِ المحرَّمِ أكلُها

ـ كمالِ الرّبا ومالِ الأيتامِ والمغصوبِ والسّرقةِ والغشِّ في البيوعِ والخداعِ والمكرِ وجحدِ الأماناتِ والدَّعاوى الباطلةِ ونحوِها مِن الحيلِ المحرَّمةِ ـ أولى أنْ يَتَخَوَّضَ صاحبُها في نارِ جهنَّمَ غدًا. فكلُّ هذهِ الأموالِ وما أشْبَهَها يَتوسَّعُ بها أهلُها في الدُّنيا ويَتَلَذّذون بها ويَتَوَصَّلونَ بها إلى لَذَّاتِ الدُّنيا وشهواتِها، ثمَّ يَنْقَلِبُ ذلكَ بعدَ موتِهِم فيَصيرُ جمرًا مِن جمرِ جهنَّمَ في بطونِهِم، فما تَفِي لذّتُها بتبعتِها، كما قيلَ:

تَفْنى اللَّذاذَةُ مِمَّنْ نالَ لَذَّتَها ... مِنَ الحَرامِ وَيَبْقى الإثْمُ والعارُ
تَبْقى عَواقِبُ سَوء مِنْ مَغَبَّتِها ... لا خَيْرَ في لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِها النَّارُ

فلهذا شَبّهَ النَّبيُّ ﷺ مَن يَأخُذُ الدُّنيا بغيرِ حقِّها ويَضَعُها في غيرِ حقّها بالبهائِمِ الرَّاعيةِ من خضر الرَّبيعِ حتَّى تَنْتَفخَ بطونُها مِن أكلِهِ فإمَّا أنْ يَقْتُلَها وإمَّا أنْ يُقارِبَ قتلَها.

فكذلك مَن أخذَ الدُّنيا مِن غيرِ حقِّها ووَضَعَها في غيرِ وجهِها: إمَّا أنْ يَقْتُلَهُ ذلكَ فيَموتَ بهِ قلبُهُ ودينُهُ ـ وهو من ماتَ على ذلكَ مِن غيرِ توبةٍ منه وإصلاحِ حالٍ ـ فيَسْتَحِقَّ النَّارَ بعملِهِ. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وهذا هو الميِّتُ حقيقةً؛ فإنَّ الميتَ مَن ماتَ قلبُهُ، كما قيلَ:

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاسْتَراحَ بِميْتٍ ... إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحْياءِ

وإمَّا أنْ يُقارِبَ موتُهُ ثمَّ يُعافى، وهوَ مَن أفاقَ مِن هذهِ السَّكرةِ وتابَ وأصْلَحَ عملَهُ قبلَ موتِهِ.

وأمَّا استثناؤهُ ﷺ مِن ذلكَ آكلةَ الخضرِ؛ فمرادُهُ بذلكَ مثلُ المقتصدِ الذي يَأخُذُ مِن الدُّنيا بحقِّها مقدارَ حاجتِه، فإذا نَفِدَ واحْتاجَ؛ عادَ إلى الأخذِ منها قدرَ الحاجة بحقّهِ.

وآكلةُ الخضرِ دُوَيْبَةٌ، تَأْكُلُ مِن الخضرِ بقدرِ حاجتِها إذا احتاجَتْ إلى الأكلِ ثمَّ تَصْرِفُهُ عنها، فتَسْتَقْبِلُ عينَ الشَّمسِ فتَصْرِفُ بذلكَ ما في بطنِها وتُخْرِجُ منه ما يُؤذيها مِن الفضلات.

وقد قيلَ: إنَّ الخضرَ ليسَ مِن نباتِ الرَّبيعِ عندَ العربِ، إنَّما هوَ مِن كلأ الصَّيفِ بعدَ يبسِ العشبِ وهيجِهِ واصفرارِهِ، والماشيةُ مِن الإبلِ لا تَسْتَكْثِرُ منهُ، بل تَأْخُذُ منهُ قليلًا قليلًا، ولا تَحْبَطُ بطونُها عنهُ.

فهذا مثلُ المؤمنِ المقتصدِ مِن الدُّنيا؛ يَأْخُذُ مِن حلالِها ـ وهوَ قليلٌ بالنِّسبةِ إلى حرامِها ـ قدرَ بلغتِهِ وحاجتِهِ، ويَجْتَزِئُ مِن متاعِها بأدونِهِ وأخشنِهِ، ولا يَعودُ إلى الأخذِ منها إلَّا إذا نَفِدَ ما عندَهُ وخَرَجَتْ فضلاتُهُ، فلا يوجِبُ لهُ هذا الأخذُ ضررًا ولا مرضًا ولا هلاكًا، بل يَكونُ ذلكَ بلاغًا لهُ يَتَبَلَّغُ بهِ مدَّةَ حياتِهِ ويُعينُهُ على التَّزوُّدِ لآخرتِهِ. وفي هذا إشارةٌ إلى مدحِ مَن أخَذَ مِن حلالِ الدُّنيا بقدرِ بُلْغتِهِ وقَنِعَ بذلكَ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**قد أفْلَحَ مَن هَداهُ اللهُ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافًا فقَنِعَ بهِ**»[1].

وقد ضَرَبَ اللهُ في كتابِهِ مثلَ الدُّنيا وخضرتِها ونضرتِها وبهجتِها وسرعةِ تقلُّبِها وزوالِها، وجعلَ مثلَها كمثلِ نباتِ الأرضِ النابتِ مِن قطرِ السَّماءِ في تقلُّبِ أحوالِهِ ومآلِهِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف: ٤٥]. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس: ٢٤]. وقالَ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤).

وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]. وقالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١].

مدَّةُ الشَّبابِ قصيرةٌ كمدَّةِ زهرِ الرَّبيعِ وبهجتِهِ ونضارتِهِ، فإذا يَبِسَ وابْيَضَّ فقد آنَ ارتحالُهُ كما أنَّ الزَّرعَ إذا ابيَضَّ فقد آنَ حصادُهُ.

كلُّ ما في الدُّنيا فهوَ مذكِّرٌ بالآخرةِ ودليلٌ عليهِ:

فنباتُ الأرضِ واخضرارُها في الرَّبيعِ بعدَ قحولِها ويبسِها في الشِّتاءِ وإيناعُ الأشجارِ وزهوُها بعدَ كونِها خشبًا يابسًا يَدُلُّ على بعثِ الموتى مِن الأرضِ. وقد ذَكَرَ اللهُ تَعالى ذلكَ في كتابِهِ في مواضعَ كثيرةٍ: قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحجّ: ٥ ـ ٧]. وقالَ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩ ـ ١١]. وقالَ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقصرُ مدَّةِ الزَّرعِ والثِّمارِ وعودُ الأرضِ بعدَ ذلكَ إلى يبسِها والشَّجرِ إلى حالِها الأوَّلِ كعودِ ابنِ آدَمَ بعدَ كونِهِ حيًّا إلى التُّرابِ الذي خُلِقَ منهُ.

وفصولُ السَّنةِ تُذَكِّرُ بالآخرةِ: فشدَّةُ حرِّ الصَّيفِ يُذَكِّرُ بحرِّ جهنَّمَ وهوَ مِن سمومِها. وشدَّةُ بردِ الشِّتاءِ يُذَكِّرُ بزمهريرِ جهنَّمَ وهوَ مِن زمهريرِها. والخريفُ يَكْمُلُ فيهِ اجتناءُ الثَّمراتِ التي تَبْقى وتُدَّخَرُ في البيوتِ، فهوَ منبِّهٌ على اجتناءِ ثمراتِ الأعمالِ في الآخرةِ. وأمَّا الرَّبيعُ؛ فهوَ أطيبُ فصولِ السَّنةِ، وهوَ يُذَكِّرُ بنعيمِ الجنَّةِ وطيبِ عيشِها، فيَنْبَغي أنْ يَحُثَّ المؤمنَ على الاستعدادِ لطلبِ الجنَّةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ.

كانَ بعضُ السَّلفِ يَخْرُجُ في أيَّامِ الرَّياحينِ والفواكهِ إلى السُّوقِ فيَقِفُ ويَنْظُرُ ويَعْتَبِرُ ويَسْأَلُ اللهَ الجنَّةَ.

فَوا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصي الإلـ ـهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجاحِدُ
وَلِلَّهِ في كُلِّ تَحْريكَةٍ وَفي كُلِّ تَسْكينَةٍ شاهِدُ
وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

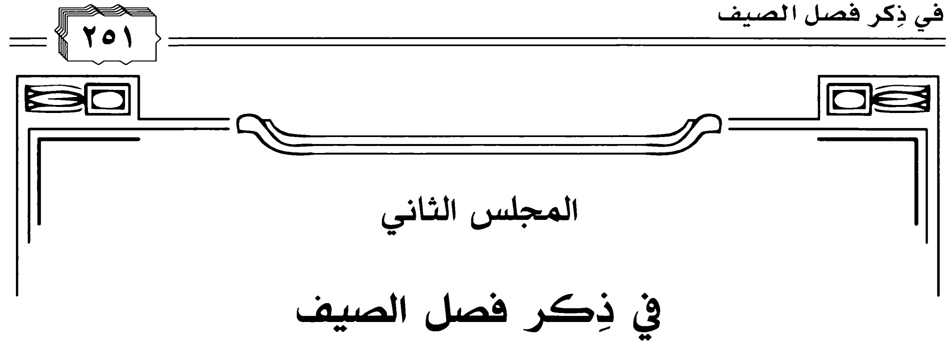
ومِن وجوهِ الاعتبارِ في النَّظرِ إلى الأرضِ التي أحْياها اللهُ بعدَ موتِها في فصلِ الرَّبيعِ بما ساقَ إليها مِن قطرِ السَّماءِ أنَّهُ يُرْجى مِن كرمِهِ أنْ يُحْيِيَ القلوبَ الميتةَ بالذُّنوبِ وطولِ الغفلةِ بسماعِ الذِّكرِ النَّازلِ مِن السَّماءِ. وإلى ذلكَ الإشارةُ بقولِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ مَن قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها بوابلِ القطرِ فهوَ قادرٌ على إحياءِ القلوبِ الميتةِ القاسيةِ بالذِّكرِ.

عَسى مَن أحْيا الأرضَ الميتةَ بالقطرِ أنْ يُحْيِيَ القلوبَ الميتةَ بالذِّكرِ فهو اللَّطيفُ الكريم.

عسى نفحةٌ مِن نفحاتِ رحمتِهِ تَهُبُّ، فمَن أصابَتْهُ سَعِدَ سعادةً لا يَشْقى بعدَها أبدًا، فهوَ المنَّانُ الرَّحيمُ.

إذا ما تَجَدَّدَ فَصْلُ الرَّبيعِ ... تَجَدَّدَ لِلْقَلْبِ فَضْلُ الرَّجاءِ
عَسى الحالُ يَصْلُحُ بعدَ الذُّنوبِ ... كَما الأرْضُ تَهْتَزُّ بَعْدَ الشِّتاءِ
وَمَنْ ذا الذي لَيْسَ يَرْجُوكَ رَبِّ ... وَرَبْعُ عَطائِكَ رَحْبُ الفِناءِ





المجلس الثاني

فِي ذِكر فصل الصيف

خَرَّجا في الصَّحيحينِ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**اشْتكَتِ النَّارُ إلى ربِّها فقالَتْ: يا ربِّ! أكَلَ بعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنَفَسَيْنِ؛ نفسٍ في الشِّتاءِ، ونفسٍ في الصَّيفِ، فأشدُّ ما تَجِدونَ مِن الحرِّ مِن سمومِ جهنَّمَ، وأشدُّ ما تَجِدونَ مِن البردِ مِن زمهريرِ جهنَّمَ**»(١).

لا شكَّ أنَّ اللهَ تَعالى خَلَقَ لعبادِهِ دارينِ يَجْزيهِم فيهِما بأعمالِهِم. وخَلَقَ دارًا معجَّلةً للأعمالِ، وجَعَلَ فيها موتًا وحياةً، وابْتَلى عبادَهُ فيها بما أمَرَهُم بهِ ونَهاهُم عنهُ، وكَلَّفَهُم فيها الإيمانَ بالغيبِ، ومنهُ الإيمانُ بالجزاءِ والدَّارينِ المخلوقتينِ لهُ، وأنْزَلَ بذلكَ الكتبَ وأرْسَلَ بهِ الرُّسلَ وأقامَ الأدلَّةَ الواضحةَ على الغيبِ الذي أمَرَ بالإيمانِ بهِ، وأقامَ علاماتٍ وأماراتٍ تَدُلُّ على وجودِ داري الجزاءِ؛ فإنَّ إحدى الدَّارينِ المخلوقتينِ للجزاءِ دارُ نعيم محضٍ لا يَشوبُهُ ألمٌ، والأُخرى دارُ عذابٍ محضٍ لا يَشوبُهُ راحةٌ، وهذهِ الدَّارُ الفانيةُ ممزوجةٌ بالنَّعيمِ والألمِ، فما فيها مِن النَّعيمِ يُذَكِّرُ بنعيمِ الجنَّةِ، وما فيها مِن الألمِ يُذَكِّرُ بألمِ النَّارِ.

وجَعَلَ اللهُ تَعالى في هذهِ الدَّارِ أشياءَ كثيرةً تُذَكِّرُ بدارِ الغيبِ المؤجَّلةِ الباقيةِ:

فمنها ما يُذَكِّرُ بنعيمِ الجنَّةِ مِن زمانٍ ومكانٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧).

ومنها: ما يُذَكِّرُ بالنَّارِ؛ فإنَّ اللهَ جَعَلَ في الدُّنيا أشياءَ كثيرةً تُذَكِّرُ بالنَّارِ المعدَّةِ لمَن عَصاهُ وبما فيها مِن الآلامِ والعقوباتِ مِن أماكنَ وأزمانٍ وأجسامٍ وغيرِ ذلكَ:

كلُّ ما في الدُّنيا دليلٌ على صانعِهِ يُذَكِّرُ بهِ ويَدُلُّ على صفاتِهِ، فما فيها مِن نعيمٍ وراحةٍ يَدُلُّ على كرمِ خالقِهِ وفضلِهِ وإحسانِهِ وجودِهِ ولطفِهِ، وما فيها مِن نقمةٍ وشدَّةٍ وعذابٍ يَدُلُّ على شدَّةِ بأْسِهِ وبطشِهِ وقهرِهِ وانتقامِهِ، واختلافُ أحوالِ الدُّنيا مِن حرٍّ وبردٍ وليلٍ ونهارٍ وغيرِ ذلكَ يَدُلُّ على انقضائِها وزوالِها.

ومِن أعظمِ ما يُذَكِّرُ بنارِ جهنَّمَ النَّارُ التي في الدُّنيا. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣]؛ يَعْني: أنَّ نارَ الدُّنيا جَعَلَها اللهُ تذكرةً تُذَكِّرُ بنارِ الآخرةِ.

مَرَّ ابنُ مَسْعودٍ بالحدَّادينَ وقد أخْرَجوا حديدًا مِن النَّارِ فوَقَفَ يَنْظُرُ إليهِ ويَبْكي.

وكانَ أُوَيْسٌ يَقِفُ على الحدَّادينَ فيَنْظُرُ إليهِم كيفَ يَنْفُخونَ الكيرَ ويَسْمَعُ صوتَ النَّارِ فيَصْرُخُ ثمَّ يَسْقُطُ.

وكانَ كثيرٌ مِن السَّلفِ يَخْرُجونَ إلى الحدَّادينَ يَنْظُرونَ إلى ما يَصْنَعونَ بالحديدِ، فيَبْكونَ ويَتَعَوَّذونَ باللهِ مِن النَّارِ.

كانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَقولُ: أكْثِروا ذكرَ النَّارِ؛ فإنَّ حرَّها شديد، وإنَّ قعرَها بعيد، وإنَّ مقامعَها حديد.

كانَ ابنُ عُمَرَ وغيرُهُ مِن السَّلفِ إذا شَرِبوا ماءً باردًا بَكَوْا وذَكَروا أمنيةَ أهلِ النَّارِ وأنَّهُم يَشْتَهونَ الماءَ الباردَ ـ وقد حيلَ بينَهُم وبينَ ما يَشْتَهونَ ـ ويَقولونَ لأهلِ الجنَّةِ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فيَقولونَ لهُم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

والمصيبةُ العظمى حينَ تُطْبِقُ النَّارُ على أهلِها ويَيْأسونَ مِن الفرجِ، وهوَ الفزعُ الأكبرُ الذي يَأْمَنُهُ أهلُ الجنَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].





المجلس الثالث

في ذكر فصل الشتاء

خَرَّجَ الإمامُ أحْمَدُ مِن حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**الشِّتاءُ ربيعُ المؤمنِ**»(١).

وخَرَّجَهُ البَيْهَقِيُّ وغيرُهُ وزادَ فيهِ: «**طالَ ليلُهُ فقامَه، وقَصُرَ نهارُهُ فصامَه**»(٢).

إنَّما كانَ الشِّتاءُ ربيعَ المؤمنِ لأنَّهُ يَرْتَعُ فيهِ في بساتينِ الطَّاعاتِ ويَسْرَحُ في ميادينِ العباداتِ ويُنَزِّهُ قلبَهُ في رياضِ الأعمالِ الميسَّرةِ فيهِ كما تَرْتَعُ البهائمُ في مرعى الرَّبيعِ فتَسْمَنُ وتَصْلُحُ أجسادُها، فكذلكَ يَصْلُحُ دينُ المؤمنِ في الشِّتاءِ بما يَسَّرَ اللهُ تَعالى فيهِ مِن الطَّاعاتِ.

فإنَّ المؤمنَ يَقْدِرُ في الشِّتاءِ على صيامِ نهارِهِ مِن غيرِ مشقَّةٍ ولا كلفةٍ تَحْصُلُ لهُ مِن جوعٍ ولا عطشٍ؛ فإنَّ نهارَهُ قصيرٌ باردٌ، فلا يُحِسُّ فيهِ بمشقَّةِ الصِّيامِ.

وكانَ أبو هُرَيْرَةَ يَقولُ: ألا أدُلُّكُمْ على الغنيمةِ الباردةِ؟ قالوا: بلى. فيَقولُ: الصِّيامُ في الشِّتاءِ.

ومعنى كونِها غنيمةً باردةً أنَّها غنيمةٌ حَصَلَتْ بغيرِ قتالٍ ولا تعبٍ ولا مشقَّةٍ، فصاحبُها يَحوزُ هذهِ الغنيمةَ عفوًا صفوًا بغيرِ كلفةٍ.

وأمَّا قيامُ ليلِ الشِّتاءِ؛ فلطولِ الليل يُمْكِنُ أنْ تَأْخُذَ النَّفسُ حظَّها مِن النَّومِ ثُمَّ تَقومَ بعدَ ذلكَ إلى الصَّلاةِ، فيَقْرَأُ المصلِّي وِردَهُ كلَّهُ مِن القرآنِ وقد أخَذَتْ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧١٦)، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

(٢) أخرجه البيهقي (٤/٤٨٩).

نفسُهُ حظَّها مِن النَّومِ، فيَجْتَمِعُ لهُ فيهِ نومُهُ المحتاجُ إليهِ، معَ إدراكِ وردِهِ مِن القرآنِ، فيَكْمُلُ لهُ مصلحةُ دينِهِ وراحةُ بدنِهِ.

ومِن كلامِ يَحْيى بنِ مُعاذٍ: الليلُ طويلٌ؛ فلا تُقَصِّرْهُ بمنامِك، والإسلامُ نقيٌّ فلا تُدَنِّسْهُ بآثامِك.

بخلافِ ليلِ الصَّيفِ؛ فإنَّهُ لقصرِهِ وحرِّهِ يَغْلِبُ النَّومُ فيهِ فلا تَكادُ تَأْخُذُ النَّفسُ حظَّها بدونِ نومِهِ كلِّهِ، فيَحْتاجُ القيامُ فيهِ إلى مجاهدةٍ، وقد لا يَتَمَكَّنُ فيهِ لقصرِهِ مِن الفراغِ مِن وردِهِ مِن القرآنِ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ؛ قالَ: مرحبًا بالشِّتاءِ؛ تَنْزِلُ فيهِ البركةُ، ويَطولُ فيهِ الليلُ للقيامِ، ويَقْصُرُ فيهِ النَّهارُ للصِّيامِ. ورُوِيَ عنهُ مرفوعًا ولا يَصِحُّ رفعُهُ.

وعنِ الحَسَنِ قالَ: نِعْمَ زمانُ المؤمنِ الشِّتاءُ؛ ليلُهُ طويلٌ يَقومُه، ونهارُهُ قصيرٌ يَصومُه.

وعن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ؛ أنَّهُ كانَ إذا جاءَ الشِّتاءُ قالَ: يا أهلَ القرآنِ! طالَ ليلُكُم لقراءتِكُم، وقَصُرَ النَّهارُ لصيامِكُم، فصوموا وقوموا.

* * *

القيامُ في ليلِ الشِّتاءِ يَشُقُّ على النُّفوسِ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: مِن جهةِ تألُّمِ النَّفسِ بالقيامِ مِن الفراشِ في شدَّةِ البردِ.

والثَّاني: بما يَحْصُلُ بإسباغِ الوضوءِ في شدَّةِ البردِ مِن التَّألُّمِ.

وإسباغُ الوضوءِ في شدَّةِ البردِ مِن أفضلِ الأعمالِ.

وفي «صحيح مُسْلِم»: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**ألا أدُلُّكُم على ما يَمْحو اللهُ بهِ الخطايا ويَرْفَعُ بهِ الدَّرجاتِ؟**». قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ! قالَ: «**إسباغُ الوضوءِ على المكارِهِ، وكثرةُ الخطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ. فذلكُمُ الرِّباطُ، فذلكُمُ الرِّباطُ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).

وفي حديثِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ عنِ النَّبي ﷺ؛ أنَّهُ رَأى ربَّهُ ﷻ (يَعْني: في المنام)، فقالَ لهُ: يا مُحَمَّدُ! فيمَ يَخْتَصِمُ الملأُ الأعلى؟ قالَ: «**في الدَّرجاتِ والكفَّاراتِ**». قالَ: «**والكفَّاراتُ: إسباغُ الوضوءِ في الكريهاتِ، ونقلُ الأقدامِ إلى الجمعاتِ (وفي روايةٍ: الجماعاتِ)، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ. مَن فَعَلَ ذلكَ عاشَ بخيرٍ وماتَ بخيرٍ وكانَ مِن خطيئتِهِ كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. والدَّرجاتُ: إطعامُ الطَّعامِ، وإفشاءُ السَّلامِ، والصَّلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ...**» وذَكَرَ الحديثَ. خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ[1]. وفي بعضِ الرِّواياتِ: «**إسباغُ الوضوءِ في السَّبراتِ**». والسَّبرةُ: شدَّةُ البردِ.

فإسباغُ الوضوءِ في شدَّةِ البردِ مِن أعلى خصالِ الإيمانِ.

وقدِ امْتَنَّ اللهُ على عبادِهِ بأنْ خَلَقَ لهُم مِن أصوافِ بهيمةِ الأنعامِ وأوبارِها وأشعارِها ما فيهِ دفءٌ لهُم:

قالَ تَعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل: ٥].

وقالَ تَعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

رَوى ابنُ المُبارَكِ، عن صَفْوانَ بنِ عَمْرٍو، عن سُلَيْم بنِ عامِرٍ؛ قالَ: كانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إذا حَضَرَ الشِّتاءُ تَعاهَدَهُم وكَتَبَ إليهِم بالوصيَّةِ: إنَّ الشِّتاءَ قد حَضَرَ، وهوَ عدوٌّ، فتَأهَّبوا لهُ أُهْبَتَهُ مِن الصُّوفِ والخفافِ والجوارِبِ، واتَّخِذوا الصُّوفَ شعارًا ودثارًا؛ فإنَّ البردَ عدوٌّ، سريعٌ دخولُهُ، بعيدٌ خروجُهُ.

وإنَّما كانَ يَكْتُبُ بذلكَ عُمَرُ إلى أهلِ الشَّام لمَّا فُتِحَتْ في زمنِهِ، فكانَ يَخْشى على مَن بها مِن الصَّحابةِ وغيرِهِم ممَّن لمْ يَكُنْ لهُ عهدٌ بالبردِ أنْ يَتأذَّى

---

(١) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

ببردِ الشَّامِ، وذلكَ مِن تمامِ نصيحتِهِ وحسنِ نظرِهِ وشفقتِهِ وحياطتِهِ لرعيَّتِهِ رضي الله عنه.

وليس المشروعُ أنْ يَتَّقِيَ البردَ حتَّى لا يُصيبَهُ منهُ شيءٌ بالكلِّيَّةِ؛ فإنَّ ذلكَ يَضُرُّ أيضًا. وقد كانَ بعضُ الأُمراءِ يَصونُ نفسَهُ من البردِ والحرِّ بالكلِّيَّةِ حتَّى لا يُحِسَّ بهِما بدنُهُ، فتَلِفَ باطنُهُ وتُعُجِّلَ موتُهُ. فإنَّ اللهَ بحكمتِهِ جَعَلَ الحرَّ والبردَ في الدُّنيا لمصالحِ عبادِهِ، فالحرُّ لتحلُّلِ الأخلاطِ والبردُ لجمودِها، فمتى لم يُصِبِ الأبدانَ شيءٌ مِن الحرِّ والبردِ؛ تَعَجَّلَ فسادُها، ولكنِ المأمورُ بهِ اتِّقاءُ ما يُؤْذي البدنَ مِن ذلكَ؛ فإنَّ الحرَّ المؤذيَ والبردَ المؤذيَ معدودانِ مِن جملةِ أعداءِ بني آدَمَ.

وقالَ اللهُ تَعالى في صفةِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣]؛ فنَفى عنهُم شدَّةَ الحرِّ والبردِ. قالَ قَتادَةُ: عَلِمَ اللهُ أنَّ شدَّةَ الحرِّ تُؤْذي وشدَّةَ البردِ تُؤْذي، فوَقاهُم أذاهُما جميعًا.

والصَّيفُ عندَ العربِ هوَ الرَّبيعُ، وأمَّا الذي تُسَمِّيهِ النَّاسُ الصَّيفَ؛ فالعربُ تُسَمِّيهِ القيظَ. ففي الشِّتاءِ تَغورُ الحرارةُ إلى باطنِ الشَّجرِ فتَنْعَقِدُ موادُّ الثَّمرِ فتَظْهَرُ في الرَّبيعِ مباديها فتُزْهِرُ الشَّجرُ ثمَّ تورِقُ، ثمَّ إذا ظَهَرَتِ الثِّمارُ قَوِيَ حرُّ الشَّمسِ لإنضاجِها.

الإيثارُ في الشِّتاءِ للفقراءِ بما يَدْفَعُ عنهُمُ البردَ لهُ فضلٌ عظيمٌ.

رُفِعَ إلى بعضِ الوزراءِ الصَّالحينَ أنَّ امرأةً معَها أربعةُ أطفالٍ أيتامٍ وهُم عراةٌ جياعٌ، فأمَرَ رجلًا أنْ يَمْضِيَ إليهِم ويَحْمِلَ معَهُ ما يُصْلِحُهُم مِن كسوةٍ وطعامٍ، ثمَّ نَزَعَ ثيابَهُ وحَلَفَ: لا لَبِسْتُها ولا دَفِيتُ حتَّى تَعودَ وتُخْبِرَني أنَّكَ كَسَوْتَهُم وأشْبَعْتَهُم. فمَضى وعادَ وأخْبَرَهُ أنَّهُمُ اكْتَسَوْا وشَبِعوا وهوَ يَرْعُدُ مِن البردِ، فلَبِسَ حينئذٍ ثيابَهُ.

ومِن فضائلِ الشِّتاءِ أنَّهُ يُذَكِّرُ بزمهريرِ جهنَّمَ ويوجِبُ الاستعاذةَ منها.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ لجهنَّمَ نفسينِ؛ نفسًا في**

الشِّتاءِ ونفسًا في الصَّيفِ. فأشدُّ ما تَجِدونَ مِن البردِ مِن زمهريرِها، وأشدُّ ما تَجِدونَ مِن الحرِّ مِن سمومِها»(١).

وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. وقالَ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص: ٥٧]. قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: الغَسَّاقُ: الزَّمهريرُ الباردُ الذي يُحْرِقُ مِن بردِهِ. وقالَ مُجاهِدٌ: هوَ الذي لا يَسْتَطيعونَ أنْ يَذوقوهُ مِن بردِهِ. وقيلَ: إنَّ الغسَّاقَ الباردُ المنتنُ.

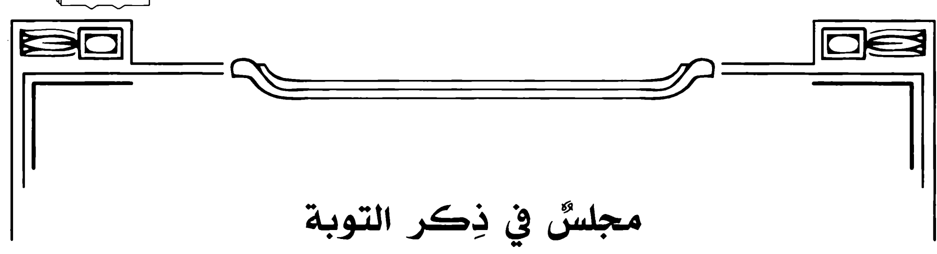
أجارَنا اللهُ تَعالى من ذلك.

يا مَن تُتْلى عليهِ أوصافُ جهنَّم، ويُشاهِدُ نفسَها كلَّ عامٍ حتَّى يُحِسَّ بهِ ويَتَألَّم، وهوَ مصرٌّ على ما يَقْتَضي دخولَها معَ أنَّه يَعْلَم، سَتَعْلَمُ إذا جِيءَ بها تُقادُ بسبعينَ ألفِ زمامٍ مَن يَنْدَم، ألكَ صبرٌ على سعيرِها وزمهريرِها؟ قُلْ وتَكَلَّمْ، ما كانَ صلاحُكَ يُرْجى واللهُ أعلم.

كَمْ يَكونُ الشِّتاءُ ثُمَّ المَصيفُ ... وَرَبيعُ يَمْضي وَيَأْتي الخَريفُ
وَارْتِحالٌ مِنَ الحَرورِ إلى البَرْ ... دِ وَسَيْفُ الرَّدى عَلَيْكَ مُنيفُ
يا قَليلَ المُقامِ في هذهِ الدُّنـ ... ـيا إلى كَمْ يَغُرُّكَ التَّسْويفُ
عَجَبًا لامْرِئٍ يَذِلُّ لِذي الدُّنـ ... ـيا وَيَكْفيهِ كُلَّ يَوْمٍ رَغيفُ



(١) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين.



مجلسٌ في ذِكر التوبة والحثِّ عليها قبل الموت وختم العمر بها فإنَّ التَّوبةَ وظيفةُ العمرِ وهو خاتمةُ مجالسِ الكتابِ

خَرَّجَ الإمامُ أحمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وابنُ حِبَّانَ في «صحيحه» مِن حديثِ: ابنِ عُمَرَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**إنَّ اللهَ ﷻ يَقْبَلُ توبةَ العبدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ**». قالَ التِّرْمِذِيُّ: حديثٌ حسنٌ[1].

دَلَّ هذا الحديثُ على قبولِ اللهِ توبةَ عبدِهِ ما دامَتْ روحُهُ في جسدِهِ لمْ تَبْلُغِ الحلقومَ والتَّراقيَ.

وقد دَلَّ القرآنُ على مثلِ ذلكَ أيضًا: قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [النساء: ١٧]. وعملُ السُّوءِ إذا أُفْرِدَ؛ دَخَلَ فيهِ جميعُ السَّيِّئاتِ صغيرُها وكبيرُها.

والمرادُ بالجهالةِ الإقدامُ على عملِ السُّوءِ، وإنْ عَلِمَ صاحبُهُ أنَّهُ سوءٌ؛ فإنَّ كلَّ مَن عَصى اللهَ فهوَ جاهلٌ وكلَّ مَن أطاعَهُ فهوَ عالمٌ، وبيانُهُ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ مَن كانَ عالمًا باللهِ وعظمتِهِ وكبريائِهِ وجلالِهِ؛ فإنَّهُ يَهابُهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٦٤٠٨)، والترمذي (٣٠٣٧)، وابن حبان (٦٢٨)، والحاكم (٢٨٦/٤)، وقال: صحيح الإسناد.

ويَخْشاهُ، فلا يَقَعُ منهُ معَ استحضارِ ذلكَ عصيانُهُ. كما قالَ بعضُهُم: لو تَفَكَّرَ النَّاسُ في عظمةِ اللهِ؛ ما عَصَوْهُ. وقالَ آخرُ: كَفى بخشيةِ اللهِ علمًا وكَفى بالاغترارِ باللهِ جهلًا.

والثاني: أنَّ مَن آثَرَ المعصيةَ على الطَّاعةِ؛ فإنَّما حَمَلَهُ على ذلكَ: جهلُهُ وظنُّهُ أنَّها تَنْفَعُهُ عاجلًا باستعجالِ لذَّتِها، وإنْ كانَ عندَهُ إيمانٌ؛ فهوَ يَرْجو التَّخلُّصَ مِن سوءِ عاقبتِها بالتَّوبةِ في آخرِ عمرِهِ. وهذا جهلٌ محضٌ؛ فإنَّهُ يَتَعجَّلُ الإثمَ والخزيَ ويَفوتُهُ عزُّ التَّقوى وثوابُها ولذَّةُ الطَّاعةِ، وقد يَتَمَكَّنُ مِن التَّوبةِ بعدَ ذلكَ، وقد يُعاجِلُهُ الموتُ بغتةً، فهوَ كجائعٍ أكَلَ طعامًا مسمومًا لدفعِ جوعِهِ الحاضرِ ورَجا أنْ يَتَخَلَّصَ مِن ضررِهِ بشربِ الدِّرياقِ[1] بعدَهُ، وهذا لا يَفْعَلُهُ إلَّا جاهلٌ.

فأمَّا التَّوبةُ مِن قريبٍ؛ فالجمهورُ على أنَّ المرادَ بها التَّوبةُ قبلَ الموتِ. والعمرُ كلُّهُ قريبٌ، والدُّنيا كلُّها قريبٌ، فمَن تابَ قبلَ الموتِ؛ فقد تابَ مِن قريبٍ، ومَن ماتَ ولمْ يَتُبْ؛ فقد بَعُدَ كلَّ البعدِ.

فمَن تابَ قبلَ أنْ يُغَرْغِرَ؛ فقد تابَ مِن قريبٍ، فتُقْبَلُ توبتُهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨]: فسَوَّى بينَ مَن تابَ عندَ الموتِ ومَن ماتَ مِن غيرِ توبةٍ.

والمرادُ بالتَّوبةِ عندَ الموتِ التَّوبةُ عندَ انكشافِ الغطاءِ ومعاينةِ المحتضَرِ أُمورَ الآخرةِ ومشاهدةِ الملائكةِ؛ فإنَّ الإيمانَ والتَّوبةَ وسائرَ الأعمالِ إنَّما تَنْفَعُ بالغيبِ، فإذا كُشِفَ الغطاءُ وصارَ الغيبُ شهادةً؛ لمْ يَنْفَعِ الإيمانُ ولا التَّوبةُ في تلكَ الحالِ.

---

(١) الدرياق والترياق: الدواء.

وقولُهُ ﷺ في حديثِ ابنِ عُمَرَ: «**ما لمْ يُغرْغِرْ**»؛ يَعْني: ما لَمْ تَبْلُغْ روحُهُ عندَ خروجِها منهُ إلى حلقِهِ. فشَبَّهَ تردُّدَها في حلقِ المحتضَرِ بما يَتَغَرْغَرُ بهِ الإنسانُ مِن الماءِ وغيرِهِ ويُرَدِّدُهُ في حلقِهِ.

وإلى ذلكَ الإشارةُ في القرآنِ: بقولِهِ ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]. وبقولِهِ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ [القيامة: ٢٦].

ورَوى ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادِهِ عنِ الحَسَنِ؛ قالَ: أشدُّ ما يَكونُ الموتُ على العبدِ إذا بَلَغَتِ الرُّوحُ التَّراقيَ. قالَ: فعندَ ذلكَ يَضْطَرِبُ ويَعْلو نفسُهُ. ثمَّ بَكى الحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

واعْلَمْ أنَّ الإنسانَ ما دامَ يُؤَمِّلُ الحياةَ فإنَّهُ لا يَقْطَعُ أملَهُ مِن الدُّنيا، وقد لا تَسْمَحُ نفسُهُ بالإقلاعِ عن لذَّاتِها وشهواتِها مِن المعاصي وغيرِها، ويُرَجِّيهِ الشَّيطانُ التَّوبةَ في آخرِ عمرِهِ، فإذا تَيَقَّنَ الموتَ وأيِسَ مِن الحياةِ؛ أفاقَ مِن سكرتِهِ بشهواتِ الدُّنيا، فنَدِمَ حينئذٍ على تفريطِهِ ندامةً يَكادُ يَقْتُلُ نفسَهُ، وطَلَبَ الرَّجعةَ إلى الدُّنيا لِيَتوبَ ويَعْمَلَ صالحًا، فلا يُجابُ إلى شيءٍ مِن ذلكَ، فيَجْتَمِعُ عليهِ سكرةُ الموتِ معَ حسرةِ الفوتِ.

وقد حَذَّرَ اللهُ تَعالى عبادَهُ مِن ذلكَ في كتابِهِ لِيَسْتَعِدُّوا للموتِ قبلَ نزولِهِ بالتَّوبةِ والعملِ الصَّالحِ:

قالَ تَعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٥٤، ٥٦].

وقد سُمِعَ بعضُ المحتضَرينَ عندَ احتضارِهِ يَلْطِمُ على وجهِهِ ويَقولُ: يا حَسْرَتا عَلى ما فَرَّطتُ في جنبِ اللهِ.

وسُمِعَ من آخرَ قوله: سَخِرَتْ بيَ الدُّنيا حتَّى ذَهَبَتْ أيَّامي.

وقالَ آخرُ عندَ موتِهِ: لا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنيا كما غَرَّتْني.

وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقالَ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وقالَ تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]. وفَسَّرَهُ طائفةٌ مِن السَّلفِ ـ منهُم عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ ـ بأنَّهُم طَلَبوا التَّوبةَ حينَ حيلَ بينَهُم وبينَها.

قالَ الحَسَنُ: اتَّقِ اللهَ يا ابنَ آدَمَ! لا يَجْتَمِعُ عليكَ خصلتانِ؛ سكرةُ الموتِ، وحسرةُ الفوتِ.

غايةُ أُمنيةِ الموتى في قبورِهِم حياةُ ساعةٍ يَسْتَدْرِكونَ فيها ما فاتَهُم مِن توبةٍ وعملٍ صالحٍ، وأهلُ الدُّنيا يُفَرِّطونَ في حياتِهِم فتَذْهَبُ أعمارُهُم في الغفلةِ ضياعًا، ومنهُم مَن يَقْطَعُها بالمعاصي.

النَّاسُ في التَّوبةِ على أقسامٍ:

فمنهُم: مَن لا يُوَفَّقُ لتوبةٍ نَصوحٍ، بل يُيَسَّرُ له عملُ السَّيِّئاتِ مِن أوَّلِ عمرِهِ إلى آخرِهِ حتَّى يَموتَ مصرًّا عليها، وهذهِ حالةُ الأشقياءِ.

وأقبحُ مِن ذلكَ: مَن يُسِّرَ لهُ في أوَّلِ عمرِهِ عملُ الطَّاعاتِ، ثمَّ خُتِمَ لهُ بعملِ سوءٍ حتَّى ماتَ عليهِ.

ما أصعبَ الانتقالَ مِن البصرِ إلى العمى! وأصعبُ منهُ الضَّلالةُ بعدَ الهدى والمعصيةُ بعدَ التُّقى.

وقسمٌ: يُفْني عمرَهُ في الغفلةِ والبطالةِ، ثمَّ يُوَفَّقُ لعملٍ صالحٍ فيَموتُ عليهِ. وهذهِ حالُ مَن عَمِلَ بعملِ أهلِ النَّارِ حتَّى ما يَكونُ بينَهُ وبينَها إلَّا ذراعٌ، فيَسْبِقُ عليهِ الكتابُ، فيَعْمَلُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ، فيَدْخُلُها.

وفي الحديثِ: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا؛ عَسَلَهُ**»(١). قالوا: وما عَسَلَهُ؟ قالَ: «**وَفَّقَهُ لعملٍ صالحٍ ثمَّ يَقْبِضُهُ عليهِ**»(٢).

رَوى عَبْدُ الواحدِ في كتابِ «قتلى القرآنِ» بإسنادِهِ: أنَّ رجلًا مِن أشرافِ أهلِ البصرةِ كانَ منحدرًا إليها في سفينةٍ ومعَهُ جاريةٌ لهُ، فشَرِبَ يومًا وغَنَّتْهُ جاريتُهُ بعودٍ لها، وكانَ معَهُم في السَّفينةِ رجلٌ صالحٌ. فقالَ لهُ: يا فتى! هل تُحْسِنُ مثلَ هذا؟ قالَ: أُحْسِنُ ما هوَ أحسنُ مِن هذا. وكانَ الرجلُ حسنَ الصَّوتِ، فاسْتَفتَحَ ثمَّ قَرَأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. فرَمى الرَّجلُ ما بيدِهِ مِن الشَّرابِ في الماءِ، وقالَ: أشْهَدُ أنَّ هذا أحسنُ ممَّا سَمِعْتُ، فهل غيرَ هذا؟ قالَ: نعم. وتَلا عليهِ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ الآيةَ [الكهف: ٢٩]. فوَقَعَتْ مِن قلبِهِ موقعًا،

---

(١) عَسَلَه بالتخفيف وبالتشديد عَسَّلَه، كلاهما صحيح، وهو مأخوذ من العسل كأنه ختم حياته بأمرٍ طيِّبٍ كالعسل.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٩٤٩)، وابن حبان (٣٤٢)، قال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد.

ورَمى الشَّرابَ في الماءِ، وكَسَرَ العودَ، ثمَّ قالَ: يا فتى! هل هنا فرجٌ؟ قالَ: نعم. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ الآيةَ [الزمر: ٥٣]. فصاحَ صيحةً عظيمةً، فنَظَروا إليهِ، فإذا هوَ قد ماتَ.

ورَوى ابنُ أبي الدُّنْيا بإسنادِهِ: أنَّ صالِحًا المُرِّيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كانَ يومًا جالسًا في مجلسِهِ يَقُصُّ على النَّاسِ، فقَرَأ عندَهُ قارئ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، فذَكَرَ صالِحٌ النَّارَ وحالَ العصاةِ فيها وصفةَ سياقِهِم إليها وبالَغَ في ذلكَ، وبَكى النَّاسُ، فقامَ فتًى كانَ حاضرًا في مجلسِهِ وكانَ مسرفًا على نفسِهِ، فقالَ: أكلُّ هذا في القيامةِ؟ قالَ صالِحٌ: نعم، وما هوَ أكبرُ منهُ، لقد بَلَغَني أنَّهُم يَصْرُخونَ في النَّارِ حتَّى تَنْقَطِعَ أصواتُهُم فلا يَبْقى منهُم إلَّا كهيئةِ الأنينِ مِن المريضِ المدنفِ. فصاحَ الفتى: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ! وا غفلتاهُ عن نفسي أيَّامَ الحياةِ! ووا أسفاهُ على تفريطي في طاعتِكَ يا سيِّداه! ووا أسفاهُ على تضييعِ عمري في دارِ الدُّنيا! ثمَّ اسْتَقْبَلَ القبلةَ، وعاهَدَ اللهَ على توبةٍ نصوحٍ، ودَعا اللهَ أنْ يَتَقَبَّلَ منهُ، وبَكى حتَّى غُشِيَ عليهِ، فحُمِلَ مِن المجلسِ صريعًا، فمَكَثَ صالحٌ وأصحابُهُ يَعودونَهُ أيَّامًا، ثمَّ ماتَ، فحَضَرَهُ خلقٌ كثيرٌ، فكانَ صالِحٌ يَذْكُرُهُ كثيرًا في مجلسِهِ ويَقولُ: بأبي قتيلُ القرآنِ! وبأُمِّي قتيلُ المواعظِ والأحزانِ! فرَآهُ رجلٌ في منامِهِ فقالَ: ما صَنَعْتَ؟ قالَ: عَمَّتْني بركةُ مجلسِ صالِحٍ فدَخَلْتُ في سعةِ رحمةِ اللهِ التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وبَقِيَ هاهُنا قسمٌ آخرُ: وهوَ أشرفُ الأقسامِ وأرفعُها، وهوَ مَن يُفْني عمرَهُ في الطَّاعةِ، ثمَّ يُنَبَّهُ على قربِ الأجلِ لِيَجِدَّ في التَّزوُّدِ ويَتَهَيَّأَ للرَّحيلِ بعملٍ يَصْلُحُ للِّقاءِ ويَكونُ خاتمةً للعملِ.

قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: لمَّا نَزَلَتْ على النَّبيِّ ﷺ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [سورة النصر]؛ نُعِيَتْ لرسولِ اللهِ ﷺ نفسُهُ، فأخَذَ في أشدِّ ما كانَ اجتهادًا في أمرِ الآخرةِ.

قالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ في آخرِ أمرِهِ لا يَقومُ ولا يَقْعُدُ ولا يَذْهَبُ ولا يَجيءُ إلَّا قالَ: «**سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ**». فذَكَرْتُ ذلكَ لهُ، فقالَ: «**إنِّي أُمِرْتُ بذلكَ**»، وتَلا هذهِ السُّورةَ.

وكانَ مِن عادتِهِ ﷺ أنْ يَعْتَكِفَ في كلِّ عامٍ في رمضانَ عشرًا ويَعْرِضَ القرآنَ على جِبْريلَ مرَّةً، فاعْتَكَفَ في ذلكَ العامِ عشرينَ يومًا وعَرَضَ القرآنَ مرَّتينِ. وكانَ يَقولُ: «**ما أرى ذلكَ إلَّا لاقترابِ أجلي**»[١].

* * *

إذا كانَ سيِّدُ المحسنينَ يُؤْمَرُ أنْ يَخْتِمَ عمرَهُ بالزِّيادةِ في الإحسانِ؛ فكيفَ حالُ المسيءِ المفرِّطِ في عمرِهِ بالأماني والنِّسيانِ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: أصْبِحوا تائبينَ وأمْسُوا تائبينَ.

يُشيرُ إلى أنَّ المؤمنَ لا يَنْبَغي أنْ يُصْبِحَ ويُمْسِيَ إلَّا على توبةٍ؛ فإنَّهُ لا يَدْري متى يَفْجَؤُهُ الموتُ صباحًا أو مساءً. فمَن أصبَحَ أو أمْسى على غيرِ توبةٍ؛ فهوَ على خطرٍ؛ لأنَّهُ يُخْشى أنْ يَلْقى اللهَ غيرَ تائبٍ فيُحْشَرَ في زمرةِ الظَّالمينَ، قالَ تَعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

تأْخيرُ التَّوبةِ في حالِ الشَّبابِ قبيحٌ، وفي حالِ المشيبِ أقبحُ وأقبحُ.

اللَّهُمَّ! ألْهِمْنا رُشْدَنا.

---

(١) تقدَّم تخريجهما.

فأمَّا إذا نَزَلَ المرضُ بالعبدِ؛ فتأخيرُهُ للتَّوبةِ حينئذٍ أقبحُ مِن كلِّ قبيحٍ؛ فإنَّ المرضَ نذيرُ الموتِ.

ويَنْبَغي لمَن عادَ مريضًا أنْ يُذَكِّرَهُ التَّوبةَ والاستغفارَ، فلا أحْسَنَ مِن ختامِ العملِ بالتَّوبةِ والاستغفارِ: فإنْ كانَ العملُ سيِّئًا؛ كانَ كفَّارةً لهُ، وإنْ كانَ حسنًا؛ كانَ كالطَّابعِ عليه.

وفي حديثِ سيِّدِ الاستغفارِ المخرَّجِ في الصَّحيحِ: أنَّ مَن قالَهُ إذا أصْبَحَ وإذا أمْسى ثمَّ ماتَ مِن يومِهِ أو ليلتِهِ؛ كانَ مِن أهلِ الجنَّةِ[1].

ولْيُكْثِرْ في مرضِهِ مِن ذكرِ اللهِ، خصوصًا مِن كلمةِ التَّوحيدِ؛ فإنَّهُ مَن كانَتْ آخرَ كلامِهِ دَخَلَ الجنَّةَ.

وفي حديثِ أبي سَعيدٍ وأبي هُرَيْرَةَ: عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ أنَّهُ قالَ: «**مَن قالَ في مرضِهِ: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبرُ، لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ، لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ؛ فإنْ ماتَ في مرضِهِ؛ لمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ. خَرَّجَهُ النَّسائِيُّ وابنُ ماجهْ والتِّرْمِذِيُّ وحَسَّنَهُ**»[2].

كانَ السَّلفُ يَرَوْنَ أنَّ مَن ماتَ عقيبَ عملٍ صالحٍ كصيامِ رمضانَ أو عقيبَ حجٍّ أو عمرةٍ؛ أنَّهُ يُرْجى لهُ أنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ.

وكانوا معَ اجتهادِهِم في الصحَّةِ في الأعمالِ الصَّالحةِ يُجَدِّدونَ التَّوبةَ والاستغفارَ عندَ الموتِ ويَخْتِمونَ أعمالَهُم بالاستغفارِ وكلمةِ التَّوحيدِ.

التَّوبةَ التَّوبة، قبلَ أنْ يَصِلَ إليكُم مِن الموتِ النَّوبة، فيَحْصُلَ المفرِّطُ على النَّدمِ والخيبة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٠)، والنسائي في الكبرى (٩٧٧٤)، وابن ماجه (٣٧٩٤)، والحاكم (١/٤٦)، وقال: حديثٌ صحيحٌ.

الإنابةَ الإنابة، قبلَ غلقِ بابِ الإجابة.

الإفاقةَ الإفاقة؛ فقد قَرُبَ وقتُ الفاقة.

ما أحسنَ قلقَ التُّوَّاب! ما أحلى قدومَ الغُيَّاب! ما أجملَ وقوفَهُم بالباب!

مَن نَزَلَ بهِ الشَّيبُ فهوَ بمنزلةِ الحاملِ التي تَمَّتْ شهورُ حملِها فما تَنْتَظِرُ إلَّا الولادةَ، كذلكَ صاحبُ الشَّيبِ لا يَنْتَظِرُ غيرَ الموتِ، فقبيحٌ منهُ الإصرارُ على الذَّنبِ حينئذٍ.

ولكنْ توبةُ الشَّبابِ أحسنُ وأفضلُ.

الشَّابُّ تَرَكَ المعصيةَ معَ قوَّةِ الدَّاعي إليها، والشَّيخُ قد ضَعُفَتْ شهوتُهُ وقَلَّ داعيهِ، فلا يَسْتَوِيانِ.

قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه في قولِهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]: هُمُ الذينَ يَشْتَهونَ المعاصيَ ولا يَعْمَلونَ بِها.

أيُّها العاصي! ما يَقْطَعُ مِن صلاحِكَ الطَّمَع، ما نَصَبْنا شركَ المواعظِ إلَّا لِتَقَع.

إذا خَرَجْتَ مِنَ المجلسِ وأنتَ عازمٌ على التَّوبةِ؛ قالَتْ لكَ ملائكةُ الرَّحمةِ: مرحبًا وأهلًا، فإنْ قالَ لكَ رفاقُ المعصيةِ: هلمَّ إلينا؛ فقُلْ لهُم: كلَّا، ذاكَ خمرُ الهوى الذي عَهِدْتُموهُ قدِ اسْتَحالَ خَلًّا.

يا مَن سَوَّدَ كتابَهُ بالسِّيِّئاتِ! قد آنَ لكَ بالتَّوبةِ أنْ تَمْحو. يا سكرانَ القلبِ بالشَّهوات! أما آنَ لفؤادِكَ أنْ يَصْحو.

يا نَدامايَ صَحا القَلْبُ صَحا ... فَاطْرُدوا عَنِّي الصِّبا وَالمَرَحا

زَجَرَ الوَعْظُ فُؤادي فَارْعَوى ... وَأفاقَ القَلْبُ مِنِّي وَصَحا

هَزَمَ العَزْمُ جُنودًا لِلْهَوى ... فاسِدي لا تَعْجَبُوا إنْ صَلَحا

بادِروا التَّوْبَةَ مِنْ قَبْلِ الرَّدى ... فَمُناديهِ يُنادينا الوَحا

تمَّ المختصر

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة